السلوك الإنسانى

ثلاث نظريات فى فهمه

- نظرية سيجموند فرويد
- نظـرية ب . ف سكنيـر
- نظـرية كـارل روجـرز

تأليف

روبرت د. ناى

إعداد وترجمة

أحمد إسماعيل صبح

منير فـوزى



تقديم الترجمة

منذ أكثر من قرن من الزمان تحرر علم النفس عن الفلسفة، وبدأت الدراسات النفسية تشق طريقها عبر معارج متعددة منها ما هو معملي وما هو نظرى بحت. وظهرت نظريات تتناول السلوك الإنسانى من جوانب السواء ونقيضه من الاضطراب. واستخدمت وسائل تجريبية وأخرى بعيدة عن العلم الموضوعي مثل التنويم المغناطيسى، وغيرها من تجارب معملية على الحيوان مقارنة بالإنسان. ومن تلك التجارب والنظريات ظهرت مدارس تتميز بالجرأة والدقة كان أشهرها على الإطلاق ثلاث نظريات يتناولها هذا الكتاب بالشرح والنقد والمقارنة. هؤلاء العلماء هم: سيجموند فرويد وسكينر وروجرز. وفي حياة هؤلاء العلماء تناولتهم أقلام النقد والمعارضة ما بين الرفض التام أو النقد شبه الموضوعي. ومن خلال النقد والحوار حول تلك النظريات ظهرت نظريات جديدة أفادت كثيراً علم النفس والعلاج النفسى بصفة خاصة، كما ظهرت تفريعات جديدة تلقى الضوء على جوانب كانت غامضة عن الإنسان مثل القدرات والاستعدادات والميول ... الخ، والتى أثرت فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للشعوب، ذلك

لأن العلوم والدراسات النفسية تنعكس نتائجها "وخاصـــة المعمليـــة منها" بصورة مباشرة وغير مباشرة فى حياة الإنسان فى مجتمعــــه، وفى الحياة اليومية العادية للأفراد. ومن أمثلة تلك التفريعـــات فـــى العلوم والدراسات النفسية: علـــم النفـــس الصنـــاعى، والتجـــارى، والاقتصادى، والطفل، والتعليمى، والاجتماعى، والسياسى، وإعـــادة التأهيل، والمرضى، وكذا فى جميع نواحى الحياة.

والنقد القائم على أسس علمية ومنهجية هو أفضل ما يقدمـــه العلماء لتطوير الحياة وتحسين وسائل المعيشة، ولا يتم ذلك التقـــدم بطبيعة الحال إلا من خلال قوى بشرية سوية جسمياً وعقلياً ونفسـياً. وكلما تقدمت الأبحاث عن الإنسان وفاعليته فى الأسرة والمجتمـــع، كلما تم معرفة الأسباب المؤدية إلى الفشل أو المـــرض النفســـى أو عدم التوافق فى العمل والمدرسة ومع الآخريـــن. وكلمـــا اتســـعت زاوية الرؤية من أجل المعرفة والتشـــخيص تـــم وضـــع القواعـــد والأسس التى تؤدى إلى علاج المشكلات التى تعانى منها البشـــرية، وتقديم أفضل الحلول.

وقد نرى من خلال النظريات الثلاث المقدمة بين دفتى هـذا الكتاب وقراءة الفصل الرابع فى نقده وتقييمه لتلـــك النظريـــات، أن وجهات النظر متعددة وتضيف الجديد كلما تقدمت الحضارة وتطـور العلم فى شتى مجالاته. هناك ثوابت يصعب تغييرها، كما أن هنـــاك

أحداث فى حياة البشرية وفى العالم من حولنا، وفى الطبيعة تلزمنـــا لإعادة النظر فى كثير مـــن النظريـــات وغيرهـــا مـــن القواعـــد، والقوانين لنبقى على الثوابت ونحدثها، ونلغى أو نصرف النظر عما يظهر عدم جدواه فى وقتنا الحاضر. وهكذا يســـتمر علـــم النفـــس والعلاج النفسى. مثله مثل بقية العلوم – فى تطور مســـتمر، مـــع الاحترام والتقدير للجذور الرئيسية التى أرسى قواعدها العلماء فـــى جميع المجالات.

وأثناء ترجمة الكتاب لاحظنا بعض العبارات والأفكار التـــى تبدو غامضة وغير قابلة للفهم فى مجتمعنا العربى بسبب اختـــلاف القيم والتقاليد والتى كانت سائدة فى مجتمعات أصحاب النظريـــات والتى تختلف زماناً ومكاناً عما هو مألوف فـــى الوقـــت الحـــاضر فضلاً عن اختلاف البيئة.

وعندما نتحدث عن اختـــلاف وجـــهات النظـــر بالنســـبة لنظريات علـــم النفـــس يجـــدر بنـــا أن نتذكـــر أســـتاذنا الجليـــل الدكتور يوسف مراد منشئ مدرسة علم النفس التكاملى فى مصـــر ومن بعده الأستاذ الدكتور مصطفى سويف والأساتذة القائمين علـــى تدريس العلوم النفسية فى الجامعـــات المصريـــة والعربيـــة حيـــث الاهتمام بالنظر إلى الإنسان باعتباره كـــائن حـــى يؤثـــر ويتـــأثر بالعوامل المحيطة به فى مجتمعه بل وفى العالم من حوله. ويـــزداد

هذا الاتجاه التكاملي قوة وتأثيراً مع التقدم الهائل في مجال الاتصالات والأقمار الصناعية التي جعلت المواطن العادى يطل في أي وقت على أحداث العالم من حوله، ليرى ويقارن ويستنتج وتزداد زوايا المعرفة عنده ويتغير حكمه على الأحداث .. فهل تبقى النظريات كما هي؟! أليس هذا كافياً بأن نرى الإنسان من منظور مختلف؟ الأمر الذى يدعو إلى مزيد من الدراسات عن النفس البشرية من زاوية أكثر اتساعاً وتكاملاً.

وفى آخر العقد الأخير من القرن الماضى أعلن العلماء عن الحلقة الأولى من الخريطة شبه الكاملة للجينات البشرية: مشروع الجينوم البشرى أو كتاب الحياة واكتشاف الحامض النووى الذى يحمل التعليمات المتعلقة بصنع البروتينات داخل الخلايا. والشفرات الخاصة بعملها. وسوف تؤدى نتائج الدراسات عن الإنسان من خلال هذا الاكتشاف إلى مزيد من المعرفة عن دور الوراثة فى توجيه السلوك الإنسانى وبالتالى الدور الفعال للبيئة.

ونحن فى مصر والعالم العربى فى أمس الاحتياج للاستفادة بالعلوم النفسية ليس فقط فى الاتجاه النظرى والأكاديمى ولكن، وهذا هو المهم فى التطبيق العملى فى جميع مراحل الحياة، فلا تكفى نظرية علمية بدون تطبيق ولا ممارسة عملية دون نظرية. ولتأكيد أهمية دور العلوم النفسية والكشف عن إمكانات وقدرات

الإنسان فى مجال الأعمال المختلفة، يكفى أن نضرب مثلاً فى أحد الأعمال الحديثة والتى ساهمت فى تطوير الحضارة خلال القرن الماضى، نضرب مثلاً مؤكداً فى أعمال الطيران المدنى، حيث تمت دراسات دولية على مدى ثلاثة عقود لمعرفة الأسباب الحقيقية لحوادث الطيران خلال تلك الفترة، تبين أن كل أربع حوادث طيران ثلاثة منها تعود لأخطاء بشرية. أى أنه لم يحدث اختيار مهنى للعاملين فى هذا العمل وفقاً للقدرات العقلية والنفسية لممارسة هذا العمل الحيوى. والأمثلة كثيرة ومتنوعة فى بقية مجالات الحياة بصفة عامة والعمل والإنتاج بصفة خاصة.

وبعد ترجمة هذا الكتاب رأينا أهمية الاستفادة بما قدمه الأستاذ الدكتور فرج عبدالقادر طه فى موسوعته القيمة "علم النفس والتحليل النفسى" الناشر "دار سعاد الصباح". والتى أضافت إلى المكتبة العربية الكثير فى المعرفة والتعريف بالمصطلحات العلمية فى هذا المجال شرحاً وتقييماً للنظريات وعلماء النفس. أخذنا من تلك الموسوعة تعريفاً عن أصحاب النظريات الثلاث: فرويد – سكينر – روجرز لإضافتها فى مقدمة كل نظرية.

ولا يفوتنا فى النهاية أن نشيد بمؤلف هذا الكتاب "روبرت . د . ناى" بأمانته العلمية ونقده الموضوعى وحياده التام،

وأيضاً بالفصل الأخير الذى كرسه للمقارنة والنقد والتقييم، ثم إبـداء وجهة نظره الشخصية التى لا تقل من حيث القيمة والثراء والأهمية عن أصحاب النظريات أنفسهم. وقد نضيف إلى رؤيتـه ووجـهات نظره، ما نراه فى مجتمعنا الشرقى والعربى بأن هناك زاوية هامـة لم يلتفت إليها أصحاب النظريات فى العلاج النفسى فى الغـرب .. قد تكون تلك الزاوية ذات أهمية بالغة لنا هنا فى الشرق المتديـن، وهو الاتجاه الإيمانى والذى يمثل فـى واقعـه الصحـة النفسـية المنشودة.

والله الموفق ،،

المترجمان

مقدمة الفصل الأول

سيجموند فرويد

Freud (١٩٣٩-١٨٥٦)

منشئ مدرسة التحليل النفسى phsyco analysis وواضع منهجها، ونظريتها الأساسية. هو أصلا طبيب نمساوى، أخصائى طب عصبى ونفسى، حيث كانت بداياته التى طورها وأتاحت له من ثم الفرصة لوضع نظريته فى التحليل النفسى، بما أمدته من خبرات وتجارب ومواقف وتأملات لسلوك مرضاه النفسيين.

وحسب ما يقول سيجموند فرويد فى سيرته الذاتية التى نتخذها هنا مرجعنا الأساسى، والتى كتبها فى كتاب ترجمه إلى العربية مصطفى زيور وعبد المنعم المليجى ونشرته دار المعارف فى القاهرة عام ١٩٥٧ و١٩٦٧ بعنوان "حياتى والتحليل النفسى". ولد فرويد فى "السادس من مايو عام ١٨٥٦، فى فريبرج مورافيا، تلك المدينة الصغيرة التى توجد فيما يعرف الآن بتشيكوسلوفاكيا". لوالدين يهوديين. وفى الرابعة من عمره نزح إلى فيينا، حيث تلقى كل تعليمه. ورغم رقة حال أسرته إلا أنها أصرت على أن تكون ميوله هى الرائدة فى اختيار نوع تعليمه وتخصصه. وقد كان مدفوعا منذ حداثة تعليمه بضرب من الفضول والرغبة إلى دراسة

الأمور الإنسانية أكثر من موضوعات العلوم الطبيعية، وبالتالى لـــم يكن فى ذلك الوقت يستشعر ميلا خاصا لدراسة الطـــب. غـــير أن نظريات داروين التي شاعت وقتذاك جذبت اهتمامه بقوة "لما كـــانت تبشر به من تقدم فائق فى تفهم الكون". ويذكر فرويد أن اســـتماعه "مقال جوته الممتع عن دراساته الطبية، ألقاها فى محاضرة عامـــة الأستاذ كارل برول قبيل تخرجى من المدرســـة جعلنـــى أقـــرر أن أدرس الطب. وعند التحاقي بالجامعة عام ١٨٧٣ عانيت من خيبـــة الأمل الشيء الكثير، فقد واجهت التزاما غريبا: كان على أن أشـــعر أننى دون غيرى من الناس، وأننى غريب عنهم لأننى كنت يـــهوديا. ولكننى أبيت إباءً تاما أن أرضخ للأمر الأول.

فلم أكن أستطيع أن أتبين لماذا أجد معرةً من أصلى، أو كما شرع الناس يقولون، من جنسى، أما عن قبولى فى المجتمـــع فقـــد تنازلت عنه دون أسف شديد، فقد كنت أشعر برغم ذلك الإبعـــاد أن من يسهم بعلمه مع غيره من الناس فى جد ونشاط لن يعدم مكانا مـا فى هيكل المجتمع الإنسانى" (المرجع السابق المشار إليـــه ص ١٤- ١٥ من طبعة ١٩٦٧). ويقول فرويد عن نفسه "ولم تكن تســـتهوينى مختلف فروع الطب ذاته، فيما عدا الطب النفســـى. فكنـــت أتـــابع دراساتى الطبية فى إهمال بالغ، فحصلت على شهادة دكتـــور فـــى الطب فى وقت متأخر إذ لم يكن ذلك قبل عام ١٨٨١".

ولقد عمل فرويد فى معمل بروك الفسيولوجى فى تشـــريح خلايا الجهاز العصبى فى الفترة من عام ١٨٧٦ حتى عــام ١٨٨٢، الذى استهواه كثيرا، لكن حاجته إلى المال دفعته إلى عدم التركـــيز على العمل النظرى الذى لا يدر عائدا ذا قيمة والاتجاه إلى ممارسة الطب، وإن كان قد ظل يمارس بحوثه فى النخاع الشوكى والجـــهاز العصبى المركزى للإنسان بتوجيه بروك وتشجيعه. ثم بعـــد ذلـــك ركز اهتمامه على دراسة الأمراض العصبية. وقد نشر نتائج أبحاثه ومشاهداته الإكلينيكية عما يلحق بالجهاز العصبـــى مـــن أمـــراض وإصابات، حتى ذاعت شهرته فأخذ يقبل عليه "سيل مـــن الأطبـــاء الأمريكيين" كان يحاضرهم بإنجليزية ركيكة". وفـــى عـــام ١٨٨٥ عين محاضرا فى علم الأمراض العصبية استنادا إلى ما نشره مـــن بحوث هستولوجية وإكلينيكية. وبعد شهور قليلة وفى نفس العام منح مكافأة مالية لرحلة دراسية إلى باريس، فأصبح بذلك طالبا بمستشفى سالبتريير، هناك تصادف أن "شاركوه" كان بحاجة إلى مترجم إلـــى الألمانية لترجمة محاضراته فاستعان بـــ"فرويد" الذى أصبـــح مـــن تلاميذه المقربين إليه، وقد استفاد فرويـــد منـــه كثـــيرا، ذلـــك أن "شاركوه" قد أثبت لتلاميذه أن الأعراض الهستيرية ما هى إلا وقـــائع طبيعية تخضع لقوانين ينبغى اكتشافها، وأنها لا تمضـــى عبثـــا أو بشكل فوضوى أو عفوى كما كان يظن. كما أثبت أيضا أنـــه مـــن

الممكن إحداث الشلل أو التقلصات الهستيرية بواسطة الإيحاء التنويمى "وأن تلك الأعراض التى يثيرها الطبيب صناعيا لا تختلف فى شئ عن أعراض الإصابات التلقائية، التى كانت تنجم عادة عن الصدمات".

وفى عام ١٨٨٦ عاد إلى فيينا كطبيب للأمراض العصبية، وتزوج واستقر به المقام. وقد كلف فى نفس العام أن يلقى تقريرا أمام الجمعية الطبية عما أفاده من "شاركوه" فى رحلته إلى فرنسا، وكان "شاركوه" قد توصل من خلال بحوثه التى عرضها على تلاميذه وأقنعهم بها عن مرض الهستيريا أنه يصيب أيضا الرجال (ولم تكن هذه الحقيقة معروفة من قبل، حيث كان يظن أن الهستيريا مرض يقتصر على النساء). فعندما ذكر فرويد هذه المعلومة ضمن غيرها ثار أطباء فيينا عليه وقابلوه مقابلة سيئة، على أساس أن هذه المعلومة غير جديرة بالتصديق وطلب منه أن يعرض على الجمعية حالات كالتى وصفها. وقد حاول فرويد ذلك إلا أن رؤساء الأقسام الطبية التى كانت بها بعض هذه الحالات لم يتعاونوا معه، ورفضوا أن يسمحوا له بمقابلتها أو بحثها "حتى إن أحدهم، وهو جراح مسن، ثار فعلا وأعرب عن عجبه قائلا: (ولكن كيف تستطيع ذكر هذا الهذر يا سيدى العزيز؟ إن "هستيرون" معناها الرحم. أنى إذن لرجل أن يكون هستيريا". وأخيرا اهتدى فرويد إلى حالة رجل

خارج المستشفى مصاباً بالهستيريا عرضها أمام الجمعية، وحظى منها على الثناء عند ذاك، ولكن لم يهتم به أحد بعد ذلك، مما جعله يشعر أنه خارج على إجماع الأطباء لقوله بوجود الهستيريا عند الرجال وبإمكان إحداث الشلل الهستيرى عن طريق الإيحاء.

واستبعد إثر ذلك من معملِ تشريح المخ ومر فصلا دراسيا كاملاً دون أن يلقى أية محاضرات، فاعتزل الحياة الدراسية والمحافل العلمية، ولم يذهب منذ ذلك الحين إلى الجمعية الطبية.

كان على سيجموند فرويد أن يكسب عيشه فى وقت لم يكن أمامه إلا علاج مرضى العصاب، حيث كانت وسيلته إلى ذلك التنويم الذى شاهده وتعلمه في باريس، وعنه يقول: "اتفق حين كنت لا أزال طالبا أن حضرت عرضاً عاماً قام به هانسن المنوم، وقد لاحظت أن أحد الأشخاص الذين نوموا استحال لونه إلى صفرة الموت عند حدوث نوبة التخشب، وظل على هذه الحال حتى انتهت النوبة. من ذلك أيقنت يقينا راسخا بصحة التنويم. وما لبث السند العلمى أن وافى هذه النظرة على يد (هايدنهين)، ولكن ذلك لم يمنع أساتذة الطب النفسى أن يظلوا زمناً طويلاً يعلنون أن التنويم فضلا عن كونه غشاءاً، فهو خطر أيضاً، وأن يقفوا من المنومين موقف الازدراء. وكنت قد شاهدت التنويم يستخدم كثيرا كوسيلة لإحداث أعراض فى المرضى يتم إزالتها ثانية. ثم يوافينا خبر ظهور

مدرسة فى نانسى (بفرنسا) أحرزت نجاحـــا كبــيراً ورائعــاً فـــى الاستفادة من الإيحاء بواسطة التنويم أو بدون التنويـــم، لأغــراض علاجية. وهكذا أصبح "الإيحاء بواسطة التنويم" أداتى الرئيسية فـــى عملى خلال الأعوام الأولى من اشتغالى بالطب، إلى جانب طـــرق العلاج النفسى الاتفاقية غير المنتظمة. وبذلك تخلـــى فرويـــد عـــن علاج الحالات العصبية العضوية وركز على علاج الحالات النفسية العصبية. التى كانت تجدى معها إلى حـــد لا بـــأس بـــه طريقتـــه التنويمية. إلا أنه صادفته مشكلتان: الأولى أنه لم يكن يفلح فى تنويم بعض مرضاه، والثانية أنه لم يكن ينجح فى جعل بعض مرضاه فى حالة من التنويم بالعمق الذى كان يريده.

ولهذا قام فرويد فى عام ١٨٨٩ برحلة إلى نانسى قضى بها عدة أسابيع لتطوير قدرته على التنويم، شاهد فيها تجارب "برنـــهايم" المدهشة على مرضاه الذين كان يعالجهم بالمستشفى ،ممـــا جعلـــه يقتنع اقتناعا شديدا بأن هناك عمليات نفسية قوية، خفية لا يشعر بـــها الناس، شديدة التأثير على سلوكهم وشخصياتهم. كما أن فرويد كـــان يستخدم التنويم على غير الطريقة التى كان يســـتخدمها المعـــالجون الآخرون، حيث لم يكن يستخدمه استخداماً إيحائياً لإزالة الأعـــراض المرضية بالأوامر والنواهى، بل استخداماً الهدف منـــه الاستفســـار من المريض عن منشأ أعراضه، والذى لا يستطيع معرفته وهو فى

حالة اليقظة المعتادة إلا نادراً. ويبين لنا فرويد كيف اهتـــدى إلـــى طريقته الخاصة فى الإيحاء، فيذكر أنه- وأثنـــاء اشـــتغاله بمعمـــل بروك تعرف على "جوزيف بروير" فى فيينا، وكان هذا طبيباً نابـــهاً ذا مكانة علمية وذلك لاكتشافاته الطبية فى غير مجـــال الأمـــراض النفسية. وقد حكى له بروير - قبل أن يذهب فرويد إلى بـــاريس - عن حالة قام بعلاجها بيـــن عـــامى ١٨٨١و١٨٨٢مـــن أعـــراض هستيرية أتاحت له أن ينفذ نفاذا عميقا فـــــى الكشـــف عـــن علـــل الأعراض الهستيرية وعن دلالاتها. وقد قرأ "بروير" علـــى فرويـــد أكثر من مرة بعضا من تاريخ هذه الحالة ونتائج فحصها، مما جعـــل فرويد يحس بأن دراسة "بروير" لهذه الحالـــة وصلـــت إلـــى فـــهم للعصاب لم يبلغه أى فحص سابق، فعزم فرويد أن يطلع "شـــاركوه" على هذا الكشف لـــ"بروير" عندما يصل إلى باريس، وقـــام بذلـــك فعلاً، إلا أن "شاركوه" لم يعر الأمر اهتماما لائقاً به وعندما رجـــع فرويد إلى فيينا عاد إلى تقرير "بروير" عن الحالـــة مـــرة أخـــرى فاستفاد منه كثيرا واستزاد علماً. فقد كانت المريضة فتاة ذات تربيـــة ومواهب فذة، أصابها المرض حينما كانت تقوم بتمريض والدهـــا، الذى كانت تخلص له الحب. عندما اضطلع "بروير" بمباشرة حالتـــها كانت تبدو عليها ألوان عدة من الأمراض: شلل مصحوب بتقلصـــات عضلية، وأنواع من التعطيل، وحالات خلط ذهنى. وقـــد توفـــرت

للطبيب "بروير" ملاحظة بينت له أنه من الممكن للفتاة أن تتخلص من حالات الخلط في الشعور هذه إن حملناها على أن تتحدث عما كان يتملكها من أخيلة انفعالية، وبهذا الكشف وصل(بروير) إلى طريقة للعلاج جديدة، فكان ينومها تنويما عميقا ويجعلها في كل مرة تفصح عما تضيق به، فلما أفلح في القضاء على الخلط الاكتئابي عمد إلى الطريقة نفسها في إزالة أنواع التعطيل واضطراباتها الجسمية ولم تكن الفتاة حال يقظتها بأكثر من غيرها من المرضى قدرة على أن تبين كيف نشأت الأعراض، ولم تكن تستطيع أن تتبين أية صلة بين أعراضها هذه وبين أية خبرة في حياتها، ولكنها كانت في حالة التنويم تكشف فورا عن الصلة المفقودة التي تبين بأن سبب جميع أعراضها هي حوادث أثرت في نفسها تأثيرا عميقا أثناء قيامها بتمريض والدها ، أي أن أعراضها كانت ذات معنى وكانت بقايا أو ذكريات تخلفت عن تلك المواقف الوجدانية. ظل فرويد منذ أن بدأ اشتغاله بعلاج المرضى النفسيين الهستيريين في فيينا من عام ١٨٨٦ يستخدم التنويم حتى وصل إلى نتائج مشابهة ومؤيدة لما سبق أن وصل إليه "بروير". وبعد أن جمع فرويد عدداً لا بأس به من المشاهدات الشبيهة بمشاهدات "بروير" عرض عليه أن يشتركا معا في مؤلف يعرضان فيه كشوفهما وما انتهيا إليه من آراء حول منشأ الهستيريا، وما حققاه من نتائج في

علاجها، فما كان من "بروير" إلا أن عارض هـــذا الاقـــتراح مـــن جانب فرويد بشدة، إلا أنه عاد وقبله بعد أن بدأ "جانييه" فى فرنســـا بنشر بحوثه عن الهستيريا والتى كانت قريبة فى نتائجها من نتـــائج بروير وفرويد مثل: رد الأعراض الهستيرية إلى أحداث فى حيـــاة المريض وإزالتها عن طريق استعادتها بالتنويم على النحـــو الـــذى نشأت به، فدفع هذا بـــ"بروير" إلى الموافقة على اقـــتراح فرويـــد، فقاما معا بنشر بحث تمهيدى عـــن الميكـــانيزم النفســـى للظـــاهرة الهستيرية عام ١٨٩٣، ثم أتبعا هذا البحث فى عام١٨٩٥ بكتابـــهما الشهير "دراسات فى الهستيريا" ويعتبر هذان العملان مبشرين بنشـــأة التحليل النفسي وأول ما أشارا إلى بداياته وأذنا له بالانطلاق خاصـــة كتاب "دراسات فى الهستيريا". ويدهشنا فرويد بتواضعـــــه العلمـــى عندما يقول عنه: "إن كان البيان الذى أوردته حتى الآن يوعز إلـــى القارئ بأن كتاب "الدراسات في الهستيريا" بكل عناصره الرئيســـية إنما هو نتاج عقل "بروير" فذلك هو ما ناديت به دائما وما انتويـــت ترديده فى هذا المقام، ففيما يختص بالنظرية التى عالجـــها الكتـــاب فقد أسهمت فى وضعها ولكن بقسط لم يعد سبيل إلى تعيينه اليـــوم". ثم يستمر معلقا على النظرية التى جاءت فى هـــذا الكتـــاب: "كـــان التواضع طابع هذه النظرية فما كادت تتجاوز الوصــــف المباشـــر للمشاهدات. لم تكن تطمع أن تتعمق طبيعة الهستيريا وإنما توضـــح

فحسب منشأ الأعراض ومن ثم أبرزت أهميـــة الحيـاة الانفعاليـة وضرورة التمييز فى الأفعال النفسية بين ما هولا شعورى وما هـو شعورى "أو بالأحرى ما يمكن أن يصبـح شـعورياً". كمـا أنـها استحدثت عاملاً ديناميا مؤداه أن العرض ينشأ عن حجز انفعال مـا، وعاملا اقتصاديا مؤداه أن ذلك العرض نفسه نتيجة أو هو مكـافئ لقدر من الطاقة حول إلى هذا المظهر، فى حين أنه ينصرف عـادة على نحو آخر، وسميت هذه العملية الأخيرة تحولاً. دعـا "بروير" طريقتنا هذه طريقة التطهير وبيان غرضـها العلاجـى، حيـث أن الانفعال المتراكم والمتسبب فى إيجاد العرض قـد اتخـذ مسـالكاً منحرفة احتبس فيها، فلابد من رده إلى مسـلك سـوى يجـد فيـه منصرفاً أو تفريغاً له لقد أسفرت طريقة التطهير هذه عـن نتـائج عملية باهرة وبالرغم من عيوبها التى وضحت فيمـا بعـد، وهـى عيوب العلاج بالتنويم بشتى صوره، إلا أنـه لا يـزال نفـر مـن المشتغلين بالعلاج النفسى يقتصرون على طريقة التطهير كما فهمها "بروير" ويرضون عنها.

لم يكن "بروير" يمتلك الحماس ولا الجـرأة ولا اسـتقلالية الرأى دون تهيب الاجتماع بمثل ما كان ذلك من نصيب سـيجموند فرويد ولذا فقد جمد "بروير" عند موقفه من النظرية البدائيـة التـى عرضت فى كتاب "الدراسات فى الهستيريا"، ومن طريقة التطـهير

قانعا بهما وفقد اهتمامه بالموضوع ولم يستمر في تطويره أو يضيف جديدا إلى معطيات عام ١٨٩٥ على نحو ما ذكر في الطبعة الثانية لهذا الكتاب عام١٩٠٨، وهكذا مضى سيجموند فرويد في تجديد وتطوير مكتشفاته. كما سعى لإقامة صرح نظرية التحليل النفسي بديلا عن التطهير الذى بدأ به، وذلك للتغلب على عيوبه التى كانت واضحة أمامه، خاصة بعد أن اكتشف الرقابة والمقاومة والكبت والصراع والجنسية الطفلية وإعلاء الغريزة الجنسية، وتفسير الأعراض في الأمراض النفسية، وتفسير الأحلام وميكانيزمات تكوينها، وتفسير الهفوات والرمزية والليبيدو وعقدة أوديب، وغريزتى الحب والعدوان. كما وضع تصورات لتكون الشخصية من ثلاثة أجهزة هى الهو "أو الهى" والأنا والأنا الأعلى وعملها على المستويين الشعورى واللاشعورى. وعلاوة على كل ذلك، كان قد ابتدع منهج التداعى الطليق، وهو منهج التحليل النفسى وطريقته التى يعتمد عليها فى كل من البحث والعلاج لمرضاه. ولسنا نرى أن المكان هنا يسمح لنا بإيراد القصة التفصيلية لكيفية اكتشاف فرويد لكل هذا. لكننا نحيل إلى المرجع السابق ذكره "حياتى فى التحليل النفسى" لفرويد وإلى فرج عبد القادر طه "التحليل النفسى والمنهج العلمى" مجلة دراسات فلسفية وأدبية / الرباط العدد الثانى١٩٧٧ وقد نشر المقال فيما بعد فى كتابنا

"علم النفس وقضايا العصر" دار المعـــارف / القــاهرة ١٩٨٨، أو طبعة دار النهضة العربية / بيروت ١٩٨٦.

ومع بدايات هذا القرن، وخاصة بعد أن نشر فرويد كتابـــه "تفسير الأحلام" عام١٩٩٠، بدأت نظرية التحليل النفسى تذاع فـــى العالم وتكسب مكتشفاتها أنصاراً يتزايد عددهم باضطراد. كما بـدأت تتكون تجمعات علمية للمهتمين بالتحليل النفسى، وجمعيات وروابـط علمية له فى بلاد مختلفة من العالم. ففـــى عـــام ١٩٠٨ عقـد أول مؤتمر للتحليل النفسى بسالسبرج حيث بدأت تتـــهال علـــى فرويـــد الدعوات من جامعات العالم المختلفة لإلقاء محاضرات بـــها عـــن التحليل النفسى. كما ظهرت مدارس جديدة شأن أى نظرية علميـــة أو مدرسة فكرية، فبدأت مدرسة علـــم النفـــس التحليلـــى "ليونـــج" ومدرسة علم النفس الفردى لأدلر"راجع يونج وأدلر". وقد بدأت "أنـــا فرويد" تتابع أعمال أبيها وتشاركه نشرها "راجع فرويد أنا".

وفيما كتبه فرانك بروير عن فرويد فى قاموسه

dictionary of key words in psychology (1986)

يقول عنه: "يعتبر فرويد إلى حد كبير أشـــهر ســيكولوجى عاش على هذه الأرض. فإذا لم يكن الأشخاص العاديون قد ســمعوا من قبل عن سيكولوجى، فهم عادة قد سمعوا عـــن فرويـــد". كمـــا يضيف: "إن أهم افتراض وحيد لفرويد هو المتعلق بـــأن الأفكـــار

والدوافع والذكريات اللاشعورية Unconscious تلعب دوراً كبيراً في حياتنا اليومية. هذا إلى جانب أن أعظم فكرتين محوريتين في أعمال فرويد هما الجنس والعدوان" وفرويد كاتب غزير الإنتاج وطويل النفس طلي الأسلوب، قوي الحجة، متماسك الفكر، عالم المنهج، متسق المنطق، فيلسوف النظرة، وهو بلا منازع - أهم عالم نفس استطاع أن يقيم نظرية متكاملة متسقة تمكن من خلالها أن يفسر الحياة النفسية في انحرافها واستوائها، في إيجابياتها وسلبياتها، وهكذا أثر فرويد، على حد قول شابلن عنه في قاموسه Dictionary of psychology ١٩٨٢، في كل فروع الفكر الإنساني. ولعل من أهم وأشهر مؤلفات فرويد "دراسات في الهستيريا" مع "بروير" عام١٨٩٥، "وتفسير الأحلام" ١٩٠٠ وثلاث مقالات في "نظرية الجنس" ١٩٠٥، ومحاضرات تمهيدية في "التحليل النفسي"(١٩١٦- ١٩١٧)، ومحاضرات تمهيدية جديدة في "التحليل النفسي"١٩٣٢ "وما وراء مبدأ اللذة "١٩٢٠ "وحياتي والتحليل النفسي"١٩٢٥، "والحضارة وسوءاتها" ١٩٣٠. وفي حوالي عام ١٩٢٣ أصيب فرويد بالسرطان البطئ النمو في فكه سبب له آلاما ومشكلات كثيرة، ومع ذلك ظل نشيطا في بحوثه، يراجع نظريته ويعدل فيها ويضيف إليها وينشرها ويدافع عنها. وفي عام١٩٣٨ عندما زحف النازي إلى النمسا اضطر فرويد إلى

الهرب من فيينا، خوفاً من النازى، إلى لندن وساعده على الهرب عالم النفس البريطانى "إرنست جونز" والأميرة اليونانية "مارى بونابرت"، وسفير أمريكا فى فرنسا. وفى ٢٣ من سبتمبر عام ١٩٣٩ (أى العام التالى مباشرة من وصوله لندن)وافته المنية عن عمر يناهز الثالثة والثمانين.

الدكتور فرج عبد القادر طه

موسوعة علم النفس والتحليل النفسى

الناشر: دار سعاد الصباح

تمهيد

يقدم هذا الكتاب ويقارن بصورة تقريبية ومبسطة وبطريقة مباشرة، عدداً لأغلب أفكار ثلاثة رجال ساهموا مساهمة عظيمة فى فكر علم النفس المعاصر: سيجموند فرويد Sigmund Freud، ب. ف. سكينر B.F Skinner ، وكارل روجرز Carl Rogers.وقد حاولت تغطية معظم وجهات النظر الأساسية والضرورية، إضافة إلى الأفكار الأكثر إثارة وأهمية، وتشمل مهمتى استحضار وتجهيز تلك النظريات وعرضها على القارئ، وكذلك دراسة الأعمال الأصلية لهؤلاء العلماء. والكتاب موجه إلى الطلاب المبتدئين، والذين يحتاجون إلى المعلومات الأساسية، وأيضاً للطلاب المتقدمين الذين يرغبون فى تجديد اهتماماتهم عن فكر ثلاثة من أعظم علماء النفس، ولحب المعرفة للقارئ العادى.

وبالطبع فقد أنشأ سيجموند فرويد التحليل النفسى، ذلك العلم الضخم المؤثر فى دراسة سلوك الإنسان، وأسلوب العلاج الذى يؤكد ديناميات "تفاعلات" الشخصية اللاشعورية. بينما وجه ب. ف. سكينر وهو باحث مخضرم – دقته وجهده مخلصاً لعلم النفس السلوكى، مصراً على أن ذلك هو النهج الأمثل لفهم الإنسان من خلال دراسة دقيقة ومنظمة للسلوك وتوابعه، والأحوال البيئية المحيطة به. أما كارل روجرز فإنه عالم نفسى عيادى والذى

يعرف بنظرية التركيز حول العميل "المريض"، حيث ركـــز علـــى أهمية النظر إلى الإنسان بصـــــورة متكاملـــة متضمنـــة مشـــاعره ومفهومه عن نفسه؛ إذا أريد معرفة الإنسان بصورة مناسبة.

ومن هذا الموجز يتبين لنا أن هناك ثلاث وجـــهات نظـــر مختلفة عن الإنسان، ولكل وجهة نظر مميزاتها وجدارتها، كمـــا أن كل رؤية قد اكتسبت مؤيدين لها أو معارضين، سواء داخل مجـــال علم النفس أو خارجه، متوقفاً ذلك على مدى الصدق النســـبي لكـــل نظرية.

يتناول الفصل الأول والثاني والثـــالث الأفكـــار الرئيســـية لسيجموند فرويد وسكينر وروجرز تباعاً. وقد حاولت الحياد بقـــدر الإمكان في عرض كل نظرية، بمعنى أنه عند كتابـــة كـــل فصـــل أكون مؤمناً تماماً بنظرية صاحبها وموضوع المناقشة. في الفصـــل الأول كنت فرويدى التفكير، وفى الثانى ســـكينارى، وفـــى الثـــالث روجارزى. أما في الفصل الرابع نقد تقييمى للكل بالإضافـــة إلـــى مقارنات لتلك النظريات.

وإني أدين أساساً لمحتوى هذا الكتاب وأصحاب النظريـــات الثلاث: لسيجموند فرويد، وب. ف. سكينر، وكـــارل روجـــرز لأن إسهاماتهم في علم النفس قدمت تراثاً عظيماً مـــن الأفكـــار حـــول نهجهم ومحاولاتهم لتوضيح وتفسير السلوك الإنسانى.

الفصل الأول

سيجموند فرويد والتحليل النفسى

المحتويات

١: سيجموند فرويد والتحليل النفسى.
- تاريخ حياة فرويد.
- رؤيته الحتمية.
- التنويم المغناطيسى.
- مصادر المعلومات.
- اللاشعور (العقل الباطن).
- ما قبل اللاشعور.
- الهو: الغرائز والطاقة النفسية.
- الجنس والعدوان.
- الأنا الأعلى (الضمير) وقيمه.
- الوصف (طبوغرافيا) والتكوين.
الملاءمة مع بعضها البعض.
- مراحل النمو الجنسى النفسى وعقدة أوديب.
- القلق ونظرية الحيل الدفاعية.
- التحليل النفسى للأنا.
- مراجع الفصل الأول.

تاريخ حياة سيجموند فرويد

- ولد سيجموند فرويد فى فريبرج مورافيا (تشيكوسلوفاكيا) فى ٦ مايو سنة ١٨٥٦م، وكان والده تاجر أصواف، وتزوج والده مرتين، أنجب خمس بنات وولدين بعد فرويد، وكان لوالده أيضا ولدين من زوجته الأولى - والدة فرويد كانت امرأة ذات حيوية وذكاء. وقد احتفظت بتلك المزايا حتى وفاتها عن عمر يناهز ٩٥ عاما.

- رحلت الأسرة إلى فيينا عندما كان فرويد فى سن الرابعة، وبالرغم من إمكاناتهم المحدودة، إلا أنه لم يكن هناك ما يمنع من تعلمه - وقد أجاد فى دراسته وحصل على درجته الطبية من جامعة فيينا عام ١٨٨١م، وبعد ممارسته للطب فى المستشفى العام فى فيينا قام بدراسة الأمراض الرئيسية للجهاز العصبى. وفى عام ١٨٨٦م تزوج مارثا برنايس، والتى استمرت خطبته لها أربعة أعوام. وقد أنجب منها ستة أطفال، الكبرى هى أنا فرويد ولدت عام ١٨٩٥م وهى التى كرست حياتها فى مجال التحليل النفسى.

- وفى عام ١٨٨٦م قام فرويد بممارسة متخصصة فى الأمراض العصبية حيث بدأت اهتماماته بأن تحول من الاهتمام بالمظاهر العضوية "الجسمية" للجهاز العصبى إلى الاهتمام بتقصى الأسباب النفسية للأمراض العصبية. هذا التغير فى الجوهر أو فى

الاتجاه جعله أكثر جدة وقوة خلال بضع سنوات تالية، وفـــى آخــر الأمر كرس كل اهتمامه لدراســـة الأســس النفســية أو مايســمى بــ"الجذور النفسية للأعصاب."

وقد استمر فى إصراره على ذلك حتى وفاته فى لندن عـــام ١٩٣٩م عن عمر يناهز ٨٣عاماً. وكان مقتنعاً بترك بيتـــه الــذى عاش فيه عمراً طويلاً فى فيينا فى ســنواته الأخــيرة هربــاً مــن الاضطهاد النازى. ومن ضمن أعمال فرويد المتعـــددة المنشــورة كتاب "تفسير الأحلام" ١٩٠٠، "الأمراض النفسية فى الحياة اليوميـة" ١٩٠١ "ما وراء مبدأ اللذة" ١٩٢٠، "الأنا والهو" ١٩٢٣، "الحضارة وأزماتها" ١٩٣٠. ومن أفضل أعماله فى علم النفس تم نشره عندمـا كان فى الستينات والسبعينات من عمره. واستمرت كتاباته فى أعلى مستواها خلال سنوات عمره رغم ما كان يعانيه من آلام من مرض سرطان الفك، حيث أجريت له ٣٣عملية جراحية لم تقلل من جهوده فى الخوض داخل النفس الإنسانية.

وقد غير فرويد بعضاً من افتراضاته النظرية علـــى مــدى سنوات عمره، كما أن عدداً من كتاباته المبكرة اختلف عن كتاباتـــه حول نظريته الأخيرة- مثال على ذلك - مـــا جـــاء فـــى كتاباتـــه "محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى" ١٩٣٣، "وموجز التحليـــل

النفسى" ١٩٤٠، تختلف عن الأفكار المطروحة فى هذا الفصل، إذا أنها تقدم بصفة أساسية المراحل الأخيرة فى أفكار فرويد.

الرؤية الحتمية A Deterministic view

كان فرويد حتمى فى تحليله؛ ففى اعتقاده دائماً بأن كل نمط من أنماط السلوك له أسبابه (سببى المنشأ)، ابتداءً من ذلة اللسان حتى الأحلام والهلوسات والنسيان والاختيار والرغبات والكفاح من أجل النجاح وتكرار سلوكيات معينة مرة تلو الأخرى، ورفض السماح بالأخطاء.. كله مقصود، وكون الإنسان عدوانى نحو الاخرين، وأى نشاط فكرى مثل كتابة القصة ورسم الصور...إلخ. كل تلك السلوكيات وغيرها قابلة للتفسير بالنسبة لرؤية فرويد. وإذا كانت الإنسانية سراً من الأسرار فذلك بسبب عدم القدرة على كشف القوى الدافعة والمثيرة لها والخبرات المؤثرة فى سلوكها. وعلى الرغم من ذلك فإن تلك القوى الدافعة والتأثيرات موجودة فعلاً رغم غموضها، فهى أمور حتمية فى توظيف وأداء الأنماط المختلفة لسلوك الإنسان. وهذا هو دور التحليل النفسى فى كشف الغموض بالبحث عن مصادر التفكير والمشاعر والأفعال من خلال الكشف عن الدوافع المختبئة والصراعات. وبفحص الطرق التى تفاعلت فيها الخبرات المبكرة للشخص مع الطبيعة الإنسانية لخلق أو تكوين

شخص الفرد البالغ. وقد طور فرويد نظرياتـــه لفحـــص واختبـــار الأسباب المختفية وراء السلوك الإنساني وذلك باهتمامه فى استخدام تقنيات التنويم المغناطيسي.

التنويم المغناطيسى HYPNOSIS

فى أعماله المبكرة اعتقد فرويـــد أن التنويـــم المغناطيســـى يمكن أن يساعد فى الكشف عن الأسباب الكامنة وراء المشـــكلات النفسية. وفى عام ١٨٨٥م رحل عن فيينا لمدة عام للدراســـة فـــى فرنسا مع "جين شاركوه Jean Charcot " الـــذى كـــان يســـتخدم التنويم المغناطيسي فى علاجه لمرضاه الذين يعانون من الهســـتيريا "هذا العرض المرضى يحمل فى طياته بما يمكن تســـميته الآن رد الفعل التحولى"، حيث يحول المريض المشكلة النفسية إلى عـــرض جسمي أو عضوى، وذلك بسبب الصراع النفســـى الداخلـــى، وقـــد يتحول الشخص إلى أعمى أو يفقد القدرة على اســـتخدام أطرافـــه، ساقه أو ذراعه، أو يعانى بعض أعراض عدم الكفـــاءة الجســـمية، وحتى بعد أن يعرف المريض بأنه لا توجد أعـــراض أو مـــرضٍ وظيفي فسيولوجى أو إصابات فإن عدم القدرة أو العرض الظاهرى يستمر، ذلك لأن السبب فى عدم القدرة نفسياً وليس عضوياً. وقـــد وجد "شاركوه" أن التنويم يمكن أن يخلص المريـــض مـــن الشـــلل

الهستيرى. وقد عاد فرويد إلى فيينا متأثراً بإمكانية اســـتخدام تلـــك التقنية، فقد بدأ عمله مع "جوزيف بروير Josef Breuer " وهـــو طبيب من فيينا كان يستخدم التنويم المغناطيسى لتخفيـــف حـــالات الأعراض العقلية والجسمية للهستيريا، وكانت إجراءاتـــه العلاجيـــة بأن يستدعى المريض المنوم ويتذكر الخبرات السابقة التـــى كـــانت بمثابة صدمة، والتى كانت منسية، بينما يفضـــي بحريـــة التعبـــير بالانفعال المصاحب لتلك الخبرات المؤلمة. وقد سمي هذا الأســـلوب بطريقة التطهير النفسى "Cathartic Method".

كانت لمشاركة فرويد مع بروير نتيجة فعالـــة، ففـــى عـــام ١٨٩٥ انشرا معاً كتاب "دراسات عـــن الهســـتيريا" Studies on Hysteria، إلا أن مشاركتهما معاً لم تستمر، فقد أصبح فرويد أكثر قناعة بأن الاضطرابات العاطفية تحتوى فى جذورها على مشـــكلة ذات طبيعة جنسية، ولم يكن الوقت مناسباً لعرض تلـــك النظريـــة، ذلك أن الجنس كان أمراً لا يمكن تناوله بصراحة ووضوح فى عـــلم ١٨٠٠م، أى فى العصر الفيكتورى، فقد كانت الأحاسيس الإنســـانية منكرة أو على الأقل متجاهلة. وبالرغم من أن "برويـــر" لـــم يكـــن موافقاً على إصرار فرويد على أهمية تقصـــى العوامـــل الجنســـية كأسباب أو دوافع أولية للاضطرابات الانفعالية والعاطفية، نجـــد أن

فرويد كان مصمما على أن يسير بخطى ثابتة فى اتجاهاته وتفكيره، من هنا، وبطبيعة الحال كان لابد أن ينفصلا.

وقد حدث تطور آخر فى فكر فرويد. ذلك أنه لم يكن مقتنعا بالتنويم المغناطيسى كوسيلة علاجية. فقد وجد أن بعض المرضى يصعب إخضاعهم للتنويم، ولم يكن التنويم أحيانا عميقا بالحد الكافى لذا كانت تحدث انتكاسة. وكوسيلة بديلة، اعتبرها فرويد أفضل من التنويم، فقد ابتدأ تدريجيا فى ابتداع طريقة أخرى هى وسيلة "التداعى الطليق أو الحر"Free Association ، حيث يسترخى المريض "راقدا فوق أريكة التحليل" ويقول ما يخطر على باله ويعتمل فى نفسه. هذا الأسلوب بالإضافة إلى تحليل الأحلام يعتبر من أعظم ما أبدعه فرويد فى منهجه العلاجى بالتحليل النفسى وسوف نتناول هذين المنهجين فيما بعد.

مصادر البيانات Sources of Data

ومع استمرار فرويد فى أساليبه العلاجية للمرضى كون أفكارا مختلفة عن الطبيعة الإنسانية الأصيلة، وعن تطور وتكوين الشخصية الإنسانية، تلك الأفكار التى تأثرت ليس فقط من اتصالاته ومقابلاته مع المرضى لكن أيضا بقراءاته الأدبية وتقديره للأحداث العالمية فى غاية الأهمية وبتحليله النفسى لذاته. بدأ فرويد حوالى عام ١٨٩٧م فى تكريس وقته لفحص ودراسة أفكاره الداخلية

ومشاعره، وكذا خبراته الطفولية. كما حاول تحليل أحلامــــه، وقــد ساعد ذلك فيما بعد فى جهود معينة "التداعى الحر أو الطليق" مــــع من تبادل معهم الأفكار بمعانى أحلامه وأحلامهم.

يعتبر التحليل النفسى نظرية للشخصية، كما يعتـــبر أيضـــاً منهجاً علاجياً. وقد حاول فرويد الوصول إلي تفسير كيـــف نجـد طريقنا فى حياتنا، أى بمعنى كيف تتكون شـــخصياتنا، كمـــا أنشـــأ أساليب تستخدم فى علاج العصاب أيضاً. ولم يقم بـــالتركيز علـــى جانب من التحليل النفسى ثم يتناول جانب آخــــر، وإنمـــا اســـتخدم أسلوب التفسير والعلاج جنباً إلي جنب وفى نفـــس الوقـــت. وكمـــا أوضحنا آنفاً فقد بدأ فرويد عمله المبكــــر بفكـــرة أن الصراعـــات اللاشعورية ذات الطبيعة الجنسية تعتبر الجذور الرئيسية للمشـــكلات النفسية. تلك بداية نظرية التحليل النفسى التى تقدم بها فرويـــد فـــى خطوات تدريجية لتطورات نظريته، والتى حدثت مع استمراره فـــى علاج المرضى العصابيين وانشغاله بالتحليل الذاتى لنفسه. وكـــانت هناك تفاعلات مستمرة بين مكوناته النظرية وملاحظاته التحليليـــــة كل يؤثر فى الآخر.

ومن المظاهر الأكثر وضوحاً للتحليل النفسى هى نظريـــــة الشخصية "أحياناً تسمى النظرية التحليلية" وسوف نـنـــاقش التحليـــل النفسى كطريقة للعلاج.

اللاشعور، وما قبل الشعور، والشعور

unconcious, preconcious And concious

- طبقات الشخصية: layers of the personality

إن نظرية التحليل النفسي كما قدمها فرويد، واستمر في تعديلها خلال فترة تناهز نصف قرن، كان في عمودها الفقري تأكيداً على المظاهر اللاشعورية للشخصية. ولم يكن فرويد هو الأول في التاريخ للتحقق بأن الإنسان لم يكن مهتماً أو مشغولاً لدوافعه الأساسية وصراعاته الداخلية، وإنما كانت إسهاماته في الدراسة المنظمة للاشعور، كما أنه بذل مجهوداً مركزاً وطويلاً ليربط معاً قطعاً كثيرة من المعلومات الصغيرة ومن مصادر مختلفة لإعطاء معانى لديناميات وتفاعلات اللاشعور وتأثيرها في الشخصية الإنسانية.

وبتأكيده وإصراره على اللاشعور لم يتبع فرويد الاتجاهات السائدة لأى ممارسة من الممارسات العلاجية المعروفة في هذا القرن في العلاج الطبي أو في مجال علم النفس، ولم يحاول الأطباء وقتذاك التعامل مع العناصر أو العوامل النفسية في مسببات المرض، وكان الاتجاه هو محاولة تفسير جميع الأعراض الناجمة عن بعض الاضطرابات العضوية أو الوظائف المرضية للمخ.

وكان العلاج الجسمى يشخص بالنسبة للعقاقير والمنشطات والمعالجة بالماء Hydrotherapy والعلاج بالكهرباء، وإذا ما فشلت تلك الوسائل فى العلاج يقال أن الأسباب الجسمية غير معروفة ولا شئ يمكن عمله أكثر من ذلك.

فى ذلك الوقت كان مجال علم النفس يدرس الجانب الشعورى وذلك عن طريق تحليل الخبرات الشعورية مثل إدراك الأشياء وإرجاعها إلى عناصرها الأصلية والاهتمام بخبرة الفرد عندما يحتك ببيئته - ووصف اللاشعور بأنه موضوع غير قابل للنقد أو التحليل العلمى.

من جانب آخر فقد رأى فرويد أن اللاشعور جزء من الشخصية يجب دراسته. وقد استخدم عبارات محددة لتصوير مدى اهتمامه باللاشعور مثل عبارة جبل جليدى تحت سطح الماء، وبأن الجزء الأعظم من شخصية الإنسان يرقد تحت مستوى الرعاية والاهتمام. كما اعتقد فرويد أن العوامل ذات الأهمية العقلية والمؤثرة فى سلوك الإنسان تكمن داخل عالم الشخصية المجهولة، وبناء على ذلك، ولكى نفهم الإنسان، يجب الكشف عن عالم اللاشعور.

وفى كتاب "طبوغرافية العقل Topography of the mind" يوجد ثلاث مستويات للشعور. وهذه المستويات الثلاثة

تتكون من: اللاشعور وهو في حقيقته مظاهر شخصياتنا التي لا نعتني بها. ثم مستوى ما قبل الشعور أي الخبرات والأشياء التي ليست في اهتمامنا حالياً والتي من الممكن الوصول إليها وإدراكها، وكثيراً من أفكارنا ومثلنا تصبح ممكنة لنا عندما نركز عليها أو نحاول استحضارها داخل مجال اهتمامنا وهو المستوى الثالث المسمى بالهو. تلك المستويات الثلاث ليست تماماً قابلة للتقسيم ووضعها في فئات، ولكنها نقاط كمية متصلة تختلف عن الأمور الواضحة والحاضرة من اهتماماتنا ومختبئة بعمق داخل أعماق شخصياتنا.

الهو، وغرائزها والطاقة النفسية The ID Inistincts and Energy

نشر فرويد كتاب "الذات والهو" عام ١٩٢٣م، حيث قدم منهجاً آخر للنظر إلى الشخصية كبناء يتكون من الذات والهو والأنا والأنا الأعلى. فالهو أو ID تعتبر الجزء الأكثر بدائية في الشخصية، لأنه النظام الأصلي المولود به الطفل جاهزاً. ويبدأ نمو الذات بعد الولادة حيث يبدأ الطفل بالتفاعل مع بيئته، أما الأنا الأعلى فهو يمثل مظاهر الفضيلة والأخلاق ويتم تطويرها عندما يقدم الآباء والراشدون قيم المجتمع وقواعده للطفل، لكي يتبعها. فالجزء البدائي/ الفطري ID لا يعرف أو يميز بين الصواب

والخطأ، ولا يحترم قواعد العالم الواقعى، وليس لديه أيــــة موانــــع، ذلك أن الهو يبحث عن الإشباع وعمليات الإرضاء وفقا لمبدأ اللــذة. إن مفهوم فرويد عن الهو ليس مجرد وصف للطفل بعــــــد مولـــده، فالإنسان فى هذه المرحلة من حياته، لم يختـــبر بعـــد الصعوبـــات للحصول على ما يريده، وليس لديه تحريم أخلاقى، لذا فالطفل فـــى تلك المرحلة عبارة عن مجموعة من الـــ "هو" أو الرغبـــات التـــى تبغى الإشباع، وبعد ذلك تصبح الشخصية معقدة عندما تظهر الـذات والضمير Ego and Super Ego ويستمر تطورهـــا وتفاعلاتـــها الداخلية بين طبيعة الطفل وتنشئته وتربيته اكتساب الخـــبرات مـــن خلال التفاعل مع المجتمع والعالم المادى".

"والهو" حيث تكمن "الغرائز EROS"، أو "غريزة الحياة وغريــــزة الموت Death instinct". وتستمر غريزة الحياة وبقاء الأفــــراد والأنواع من جوع وعطش ودوافع ورغبات جنســـية، تلـــك هـــى مظاهر غريزة الحياة. وللغرائز طاقة، ففى الواقع أن الطاقة النفسـية للغرائز هى ما يقوى بها النشاط الإنسانى. وطاقة الحياة الغرائزيـــة تسمى عند فرويد "ليبيدو Libido – أو الطاقة الليبيدية"، وإذا أردنـا أن نتمثلها فهى مثل الإحساس الشديد بـــالجوع، أو حالـــة الإنســان النفسية والجسدية عند شعوره بالجوع، وهكذا بالنسبة لبقية الغرائز–

"المترجم". وأحيانا يستخدم "الليبيدو" مترادفا مع عبارة "الطاقة الجنسية" وهذا هو مظهر غرائز الحياة التى يعنيها فرويد غالبا.

أما غريزة الموت، فهى ما يعبر عنها أحيانا: "الرغبة فى الموت". فقد اعتقد فرويد بنظرية النشوء Evolution theory، وهى النظرية التى تفترض أن الحياة البشرية البدائية لها نشأتها وأشكالها، فمن خلال أشكال لا حياة فيها حدثت تفاعلات. هذا التحول، الشكل الحى شابه عدم استقرار، لأن هذا التحول كان يكتنفه القديم من الجمود وعدم الحياة. لقد اعتقد فرويد بأن الإنسان طوال حياته يتحرك وفقا لتاريخه السابق، من أشكال الحياة البدائية، ولا يزال يحمل خلال مراحل حياته ميلا إلى العودة إلى مراحل ما قبل الحياة أو الموت، هذا الميل يتمثل نفسيا فى الرغبة فى الموت. وقد تظهر تلك الرغبة مباشرة كما فى حالات الانتحار، أو بصورة غير مباشرة عندما يهوى بعض الأفراد هوايات مدمرة وقاتلة مثل: سباق السيارات، أو عمل الجنود المرتزقة، أو الأعمال المتهورة فى أنشطة تحمل فى طياتها مخاطر جسمية، أو إدمان الكحول والسجائر، وعموما فإن غريزة الحياة تتعارض مع غريزة الموت وتقف حيال تحقيقها. وفى الواقع نؤكد مرة ثانية على نقطة هامة: أن هناك طاقة مرتبطة بكلتى الغريزتين "الحياة والموت". فالطاقة التى تقود الإنسان عموما مصدرها الغرائز، هذه الطاقة النفسية

بطبيعتها محدودة من حيث الكم بمعنى: أن هناك كم معين ممكن فى أى وقت. وكما ذكرنا آنفا أن موقع الغرائز موجـــود فـــى "الـــهو" ويحتوى الهو على طاقة تستولى عليـــها الأجـزاء الأخـرى مـن مكونات الشخصية: الأنا والأنا الأعلى. ويعتبر الهو المنبع الأصلـى المسبب لنمو الشخصية.

كما اعتقد فرويد بأن الشخصية الإنسانية هى نظام طاقـــة، وأن الشخصية هى توزيع الطاقة حول الهو والذات والأنا الأعلـــى. وبما أن هذا التوزيع دائم التغير، فإنه من الصعب إلى حد ما التنبـؤ بدقة عن سلوك الإنسان. فمثلا قد تكون دوافع سلوكنا يغلب عليـــها الرغبة فى الإشباع فى "الهو" بصورة مختلفة عنـــها فـــى أوقـات أخرى. وأحيانا أخرى قد تكون أكثر واقعية فى سلوكنا حيث توظف الذات "الأنا" ، وأحيانا قد نشعر بمزيد من الأخلاقيات الراقية "بسـبب تأثير الأنا الأعلى"، وفى الحالات الثلاث اختلاف يبين تأثير كل مـن الهو والذات والأنا الأعلى على السلوك. إذن هنـــاك تغـيرات فـــى توزيع الطاقة، ويوجد نظام نموذجى كاف يسمح بدقة ليست كاملـــة للتنبؤ بسلوك الشخص.

الجنس والعدوان Sex And Aggression

دافعان لهما أهمية بالغة مطلوب أن يتغلب الإنسان عليـــهما هما "دافع الجنس" ، "ودافع العدوان" وهما دافعان أساســـيان عنـد

الإنسان، ويعتبران جزءان من الوراثة كمظاهر لغريزة الحياة وغريزة الموت الموجودة فى "الهو". من السهل اعتبار أن دافع الجنس له صلة بغريزة الحياة. وقد يكون من الصعب إدراك أن العدوان الموجه إلى الأشخاص والأشياء يكون مدفوعا بغريزة الموت، وأن رغبة الموت موجهة إلى النفس. وفى تلخيص توضيحى يمكننا القول بأن إهلاك أو تدمير الذات عادة ما يمنع بواسطة طاقة غريزة الحياة. فالشخص النموذجى لا يترك لنفسه العنان على الرغم من إلحاح غريزة الموت.

حقيقة أن الرغبة فى الموت "غريزة الموت" لا تأخذ فى الغالب "حيز التنفيذ" فى تدمير الذات، وذلك بسبب توفر تأثيرات مضادة بواسطة طاقة غريزة الحياة، إلا أن هذا لا يعنى أن تلك الغريزة كامنة. إن لها طاقة، وهذه الطاقة أو قوة التدمير "القوة التدميرية" لا يمكن حبسها أو كبتها تماما داخل الشخص وبصفة دائمة وكاملة، لأن الطاقة التدميرية يجب السماح لها ببعض الانطلاق والتحرر. وذلك لاعتقاد فرويد بأنه ليس صحيا للإنسان حبس تلك الطاقة، فقد ينتج عن كبح العدوان بصورة تعسفية أن يظهر هذا العدوان بين الحين والآخر وبأى أسلوب سواء كان ذلك العدوان مباشرا أو غير مباشر. ويمكن أن يحدث التحرر من خلال توجيه الطاقة إلى الخارج، على الأشياء أو الآخرين فى البيئة

المحيطة بالفرد. فإذا انطلقت تلك الطاقة فى صورتها القوية ينتج عن ذلك تدمير مباشر للممتلكات والآخرين ولكن بسبب التحذيرات والموانع الاجتماعية فإن البعض يستبدل التدمير المباشر ببدائل أخرى سنناقشها فيما بعد.

قدم فرويد مقولة "غريزة الموت" فى كتاب "ما وراء مبدأ اللذة" عام ١٩٤٠م، وقد أوضح فيما بعد اعتقاده بأن الميل إلى العنف والتدمير حالة طبيعية لدى الإنسان. كما أكد، وبشدة زائدة، على أن الإنسان يولد ومعه غريزة الموت، وتلك الغريزة تميل للتحول إلى صورة من النزعات العدوانية. وحتى فى حالة توجيه الطاقة العدوانية إلى الخارج، فإنه يبقى بعض من هذه الطاقة داخل الإنسان، وبالطبع فإن هذا البعض من الطاقة المكبوتة سيتمكن من الإنسان مما يؤدى إلى نهاية المرء. ويفترض فرويد أنه ربما يحدث الموت عندما يستنفذ الفرد الليبيدو "طاقة غرائز الحياة" حينئذ تستطيع الطاقة التدميرية أن تأخذ طريقها وتقضى على الإنسان، كما فى حالة الانتحار.

وفي حديثه عن "الحضارة وعدم الارتياح للواقع" Civilization and Discontents – ١٩٣٠م، أكد فرويد على قوة الصراع الحاد بين الطبيعة الأساسية لبحث الإنسان عن اللذة "واللذة هنا تعنى تحرر الطاقات الجنسية والعدوانية"، وبين وجود

المجتمعات المتحضرة. فإننا نمتلك نزوعا وميلا إلى استخدام نمطا واحدا دون الآخر لإشباع طاقة الجنس بدلا من طاقة العدوان، لذا يستخدم أو يستغل البعض الإذلال العدوانى أو التعذيب أو القتل بالنسبة للآخرين، فلم تنجح الحضارة فى إحلال السلام بين البشر، لأن الإنسان فى معظم طبيعته الأساسية "وحش كاسر" لم يتقدم نحو ضبط وإحكام سلوكه خلال مراحل تطوره الحضارى.

والنتيجة الأولى لحضارة الإنسان هو تجسيد الشعور بالذنب، لأن السلطة الداخلية "وظيفة الأنا الأعلى" تقف وتظهر فى موقعها بسبب نواهى السلطة الخارجية أو مواصفات المجتمع وقيمه، وبمعنى آخر، نحن نجد بداية أن العقاب وفقدان الحب يصبح وشيكا وقريبا إذا تصرفنا وفقا لرغباتنا المدفوعة والمتهورة، وهنا نتخلى عن غرائزنا الملحة، ونخاف من ميولنا ورغباتنا الطبيعية، عندئذ يتولى الأنا الأعلى وظيفة ضبط سلوكنا ونوازعنا الخاطئة، وتأتى رغباتنا مصاحبة للشعور بالذنب، من هنا يتم التحكم فى سلوكنا.

وبطبيعة الحال ينتج عن ذلك مشكلة. فعندما تصبح الطاقة الضخمة للرغبات الغريزية مخزونة ونرفض تحررها، فإن ذلك يخلق وضعا قابلا لانفجار ضخم، حيث أن الإنسان يصبح فى حالة توتر شديد متواريا تحت السطح نتيجة لأنه لم يحرر أو يطلق

العنان لـ"الليبيدو" أو "الطاقة التدميرية" ويصبح في حالة من الفوران الداخلي، وقد لا يظهر ذلك في الحال، طالما أن البشر قادرون على استخدام "الحيل الدفاعية Defence Mechanisms"، "سوف نتناولها فيما بعد"، ضد ما بداخلهم، ذلك لأن الرغبات والدوافع غير المقبولة اجتماعيا تجعل الإنسان يمتنع عن تحقيق ميوله الجنسية والعدوانية ليفسح مكانا لوجوده أو تقبله اجتماعيا، وفي هذه الحالة قد يعتريه قلق شديد مما قد يؤدي إلى الإقلال من تقديره لذاته. وإذا كان المجتمع "المتمثل بداية في صورة الوالدين وبعض الأشخاص ذوي التأثير في حياته" يمثلون قوة كبح لاحتياجاته ويهددون بمنع الحب والاهتمام له إذا لم يقاتل تلك الرغبات، عندئذ ترفض الرغبات وتعتبر خطيئة وليست أخلاقية على المستوى الشعوري. ولأن تلك الرغبات متصلة بالغرائز الأصلية، والتي أكد فرويد بأننا مولودون بها فهذا يعني بأنها لن تختفي بواسطة كبتها أو إنكارها شعوريا. بل يعني أنها ما زالت موجودة. وإذا ما زاد مستوى الإحباط والكبت فإنها سوف تتفجر وينتج عن ذلك سلوكا مضادا للمجتمع.

كما توجد إمكانية أخرى عندما تنكسر الطاقة، حيث تصبح الحيل الدفاعية أكثر شدة وحدة، ذلك لأن وجود التوترات الداخلية يستدعي بالضرورة حاجة زائدة للشخص لحماية نفسه من طاقته

الطبيعية الأساسية. إنها قوى مظلمة وشيطانية، كما ينظر إليها المجتمع، تعمل تحت مستوى الشعور وبدافع من الاحتياجات الملحة للإشباع، تلك القوى يمكن أن توقع الفرد فى حالات من القلق الشديد، أما إذا انتصرت، بالحب والاحترام وتقدير الذات فسوف تفقد تأثيرها السلبى. إن المعركة بين القوى الغريزية وبين المظاهر الاجتماعية الإنسانية تكمن وترقد أصلا فى مستوى اللاشعور ويعانى الشخص من تأثيرات هذا الصراع الداخلى، والذى يؤدى إزعاجه إلى تدمير السلام العقلى والنفسى، ومن ثم يؤثر فى السلوك، ويقع الفرد فريسة للشكوك والقلق، بينما التى تسبب له كل تلك الحرب الداخلية بين دوافعه الجنسية ونواهى المجتمع هى النوازع البدائية أو "طاقة الليبيدو"، والتى لا يستطيع – على المستوى الشعورى – إدراكها. وإذا تمكنت الحضارة من تقديم وسائل اجتماعية مقبولة للتحرر من "الليبيدو والطاقة التدميرية" يمكن عندئذ تخفيف أو تسكين المشكلات الناجمة عن تلك الطاقة، والعملية التى يمكن بها تحويل تلك الطاقة إلى أنشطة بديلة تسمى "الإحلال Displacement" أو "الإزاحة". فإذا تم إزاحة الطاقة الغريزية إلى سلوك اجتماعى مرغوب فيه ومقبول يسمى ذلك "إعلاء أو تسامى Sublimation" ... وتتقدم الحضارة بسبب الإعلاءات والإزاحات، حيث تتحول الطاقة الغريزية إلى تأليف

الكتب والرسم وغير ذلك من إبداعات وعلوم ودراسات. وهكذا تبدو الحضارة الطيبة والحسنة، إذا تمكن الناس من إعادة توجيه طاقاتهم إلى أنشطة منتجة، وكلما زاد ذلك فى المجتمع قلل من إمكانية النتائج السيئة الصادرة عن الغرائز الإنسانية الرئيسية، ومن الانشغال بإشباع هذه الغرائز والطابع العدوانى بالإساءة إلى الاخرين. وإذا حدث إعلاء مناسب للغرائز فإن الأفراد المتسامين لن يتعرضوا للتوتر الداخلى والقلق. وبالرغم من ذلك نجد أن فرويد لم يكن متفائلا تماما من إمكانيات الإعلاء هذه، فقد حذر بأن الصراع الأساسى بين غرائز الإنسان والحضارة سيبقى مستمرا ودائما. ويجب أن نذكر أن الإعلاء والتسامى بالغرائز، يعتبر نشاط بديل، ولأنه كذلك فإنه لا يشبع ولا يرضى النزعات الغريزية ويبقى بعض من التوتر.

الأنا ونحررها ووسائل ضبطها:

فى نظرية فرويد، نجد أن الشخصية تتضمن فى جذورها "الهو". فنحن ببساطة نبحث عن اللذة قليلا عند بدء حياتنا، دون أن نفهم الحقيقة. ثم أن حقائق الحياة تبدأ فى الظهور، فمثلا نحن لا نشبع فى كل وقت حاجة الجوع، لذا نعانى بعض الشيء من خبرة عدم الراحة والإحباط وهو شعور يعانيه "الهو" أيضا ويؤدى من ثم إلى التوتر وكل ذلك يسمى بالعملية الأولية.

ولكى نفهم أسس العملية الأولية، علينا أن نفكر في مثال جوع الطفل الذى ينتهى بأن يطعم فى آخر الأمر. ففى أثناء الإطعام ينظر الطفل ويبتسم ويلمس ويتذوق الطعام، وبتكرار تلك اللحظات فى الحالة التى يتم فيها الإشباع، وبتخزين صورة الطعام فى ذاكرة الطفل، وفى الارتباط بين الطعام وخفض حالة "الجوع"، فإنه عندما يحدث الجوع مستقبلا فإن "الهو" ينشغل فى العملية الأولية لمحاولة الحصول على الإشباع أو الإقلال أو تخفيض التوتر الداخلى" وذلك بتشكيل صورة الموضوع "الطعام" الذى يستوجب الإرضاء والاكتفاء والشبع.

وعلى الرغم من استخدام مثال الجوع، فإن العملية الأولية ليست محدودة لمحاولة تخصيص الدافع وحدها. إذ أن هناك صورا متعددة يتم تشكيلها لإشباع دوافع مختلفة، الأحلام، التفكير المتفق مع الرغبة، الخيالات، الهلوسات ... تلك جميعها أمثلة للعملية الأولية. والعملية الأولية نشطة ولكنها لا تؤدى إلى الإشباع أو التحرر من التوترات الناتجة عن الجوع والعطش أو الدوافع الجنسية. ذلك لأن الصورة المتمثلة فى الذاكرة للشىء المرغوب لا تؤكل أو تشرب أو تؤدى إلى معالجة جنسية، ولكى تحصل على إشباع حقيقى – بمعنى خفض التوتر – فإن الفرد يجب أن يقيم

اتصالا مع العالم الحقيقى بالفعل. هذا الاتصال يتحقق من خلال تشكيل نظام هام آخر للشخصية ذلك هو الذات "Ego"

يبدأ الشخص فى التفاعل مع بيئته الطبيعية والاجتماعية، وتنمو الشخصية عبر بعد جديد، وتوظف الذات عن طريق مواجهة الحقائق، وعندما يحاول الطفل أن يربط الأشياء حوله بالأشياء التى فى عقله، الأشخاص والأنشطة التى يشبع من خلالها حاجاته وغرائزه الماسة الداخلية، عندئذ تنمو "الأنا Ego " من خلال التفاعل مع الواقع، لأن "الهو" ذاتية صرفة لا صلة لها بالواقع الخارجى، وتمثل الأنا مظهر الشخصية الموجه نحو الموضوعية، حيث تحاول التفرقة بين ما هو مرغوب فيه، وبين ما هو ممكن واقعيا أو بالفعل. والذى يوجه الأنا ويحكمه ويرشده هو مبدأ الواقعية. وبعبارة أخرى هناك الدوافع والرغبات الملحة وما يريده الشخص بمعنى أن يسأل الفرد نفسه "هل هناك ما هو ممكن لإشباع رغباتى، وهل يمكن تحقيقه؟ فتكون الإجابة التفكير الواقعى أو العملية الثانوية.

يحاول "الأنا" تخفيض توترات "الهو" وذلك بواسطة التعامل الموفق مع البيئة، إذ أن جزءا من الطاقة النفسية – الخام – لغرائز "الهو" تبدأ من تغطية وتوظيف الأنا، والتى تحتوى على طرق تحرير أكثر للطاقة الغريزية "العلاج يقلل التوترات"، ووقف

رغبات "الهو" لحين إيجاد وسائل مناسبة للتحرر. هنا يكون الأنا بمثابة مركز مراقبة للشخصية، وسواء تم التحرر أو تم إحكام كبت الرغبات الغريزية الأساسية اعتمادا على الظروف الخارجية والداخلية فإنها تكتسب فى الكائن لخدمة الهو. إن استخدامات الأنا للطاقة النفسية لإشباع حاجات الإنسان تسمى "Cathexes" "شحنة نفسية" توظف لتحقيق رغبات الشخص، كما أن كبح "الأنا" لرغبات "الهو" تسمى "مضاد للشحنة النفسية anticathexes" ، وتشير عبارتى "شحنة نفسية، ومضاد للشحنة النفسية" إلى "القوى المعبرة، والقوى الكابحة" أو المانعة تباعا. ويمتلك الهو الشحنة النفسية فقط وتوظف فى محاولات لإرضاء الغرائز، فى حين أن الأنا والأنا الأعلى يحملان فى طياتهما "الشحنة النفسية، ومضاد الشحنة النفسية"، وأن كلا منهما يطوق ويحاصر الطاقة لضبط وإحكام الأفعال، ويتأثر توظيف الأنا بمتطلبات واحتياجات تغلغلت داخل الفرد بواسطة الآباء وآخرين ذوى التأثير عليه. وهؤلاء يمثلون فى مجموعهم المجتمع المتحضر. وإذا كان الوالدين والمدرسين ذوى قسوة وشديدى التأثير ولا يسمحون إلا بالقليل لإشباع الطاقة الغريزية، فإن "أنا" الطفل يتأخر فى النمو، حيث لا يجد الطفل المرونة، هو أو هى، من أن يكونوا قادرين على التسامى على نحو

ملائم، وقد تكون النتيجة تكوين توتر وقلق، ومن ثم تكوين بناء وظيفى غير متكافئ.

تؤكد نظرية فرويد أن "الأنا القوى" هو حصن الشخصية السوية الصحية. وقد افترض معيارا للحب والعمل كدلالة على الصحة النفسية والعقلية. وإذا كانت الظروف البيئية غير ظالمة ومحدودة، فإن الإنسان يمكنه أن يعمل ويتحرك فى حلول وسط متوافقا بين غرائزه ومتطلبات الحياة اليومية العادية، حيث يعيش ويعمل. فالحب والعمل يقدمان إخراجا ونتيجة مقبولة اجتماعيا "التسامى" للطاقة الغريزية، وإذا أتيح له نطاقا ومرونة لفحص واختيار تلك الإمكانات فإنه يصبح قادرا على إنشاء توافقا مشبعا ومقبولا فى مواجهته للعالم الواقعى من حوله مقابلا "على الأقل جزئيا" للمتطلبات الأساسية للطبيعة الإنسانية. وإذا كان فى الإمكان تحقيق ذلك، عندئذ يمكن القول بأن الإنسان أنشأ "أنا" قوية يتم توظيفه لكى يتم التحرر والتحكم فى احتياجاته الغريزية. إن السعادة التامة ليست هدفا وهى عبارة غير معقولة من وجهة نظر فرويد. إذ أن الإنسان يجب أن يتقبل إلى حد ما التحذيرات والمحظورات والمعوقات التى تقف فى سبيله والتى تضعها أمامه الحضارة للكف عن إشباع رغباته الغريزية.

الأنا الأعلى (الضمير) وقيمه.

The Super ego and its Values.

ناقشنا آنفا "الهو" و"الأنــا" وجذورهمــا ومظاهرهمــا فــى الشخصية. ولكى نكمل تصوير فرويد لكيان الشـــخصية الإنســانية علينا أن نلقى الضوء على تطور ونمو "الأنا الأعلى".

يمثل الوالدين "بصورة نموذجية" قيم المجتمع، ولديهما كــم من المعايير عن طرق الصواب والخطأ فــى التفكــير والمشــاعر والسلوك. تلك القيم الأخلاقية، يتقاسمها بالقليل أو الكثير، بقية أفــراد المجتمع، وواجب الآباء توصيل تلك القيم الاجتماعية لأبنائهم.

ينمو الأنا الأعلى جزئيا نتيجة لجهود الوالدين المستمرة فــى تأكيد الاتجاهات الصحيحة والمقبولــة لأبنائــهم بواســطة وســائل مباشرة، أو عن طريق نظام الثواب والعقاب وذلك ليتجنبوا العواقــب المؤلمة. هذا الشكل من القيم أو التربية هو ما ينشئ الأنا الأعلى.

ويمكن أن يتحطم الأنا الأعلى داخل الشعور. كما أنه مثـــل الأنا، يخبرك الشعور بما لا يجب عليك فعله، وذلك يعتبر نوعا مــن النظام الداخلى للشرعى والمباح. بينما الأنا المثالية تخبرك بما يجب عليك فعله، إنها تمثل ما تحب أن تكون عليه. يكافح الأنا الأعلـــى ويناضل من أجل الكمال ونادرا ما يكتفى بالأقل وهو بذلـــك يشــبه "الهو" فى أنه مبالغ وغير واقعي – على طرفـــى نقيــض – وقــد

يصبح قويا "بحصوله على المزيد من الطاقة النفسية التـــي تشـكل الشخصية وتمدها بالقوة". عندئذ يمارس الأنا الأعلى الكثــير مــن السيطرة على "الهو" "والأنا"خالقا إحساسا شديدا بالذنب وكفا لغرائــز "الهو". كما يشمل على حركة ومحاولات الأنـــا للحصــول علــى الإشباع من العالم الواقعى أو من متطلبات الحياة: إن كـــم وشــدة "افعل ولا تفعل" قد تكون ضخمة بحيث أن الأنا يتقلص وينكمش فى جانب أو ركن من الشخصية، غير مستجيب لصيحات الرغبة فـــى الإشباع والترضية المطلوبة من "الهو" وغير فعالة فـــى مواجهــة احتياجات الواقع.

وبالنسبة لمعظمنا – بطبيعة الحال – يصعب الهروب مـــن تعلم القيم، والهروب غير مرغوب، لذا فإن الشخصية "الســيكوباتية" معدومة الضمير– هى تصوير حى وقوى عما يفعله "هو أو هـــى" إذا لم يكن مندمجا ومتعلقا بالقيم الأساسية للمجتمع، هــذا الشــخص لديه قدر متدنى من الأنا الأعلى مما له خطــر بــالغ. فمثــل هــذا الشخص لا يتبع قواعد وتقاليد مجتمعه، كمـــا لا يراعـــى مشــاعر وحاجات الآخرين، ويتسم سلوكه بالاندفاع وترضية نفسه وإشــباعها دون الاهتمام بالنتائج والتبعات، كما لا يشعر بالذنب أو القلق حتـــى لو ألحق بالآخرين أضرارا خطيرة. ويؤكد التفسير التحليلـــى لـــهذا النمط من الشخصية الافتقار إلى حب الوالدين. فى البيت النموذجـــى

يظهر الأبناء المتوحدون – Identified مع آبائهم، يمثلـــون نظـــم قيمهم "والتى عادة ما تعكس قيم المجتمع". وإذا لم يكن هناك حـــب، فإن الطفل لا يخاف من فقده وعندئذ يكون أقل رغبة فى التوحد مـع والديه. كما "توجد تفسيرات أخرى غير التحليل النفسى عـــن نمـــو الشخصية السيكوباتية"، فقد يكون الآباء منحرفين بشدة، ويفشـــلون بالطبع فى تعليم القيم النموذجية لأبنائهم، وتوصيل مثلا غير مقبولـــة لهم. وأيضا هناك بعض الحالات عن السلوك الســـيكوباتي بســـبب الإصابة في المخ، أو لأسباب جينية والتى قد تؤدى إلى "عدم القدرة على تعلم القيم الأخلاقية والقواعد". وهناك مـــن هـــم، فـــى خـــط الأخلاق والقيم، بين الشخص شديد الكف أو المكبـــوت بشـــدة فـــى طرف، وفى الطرف المقابل الشخص السيكوباتى. وأحيانـــا يكـــون بين النقيضين، موقع أفضل للشخص الذى يحاول أن يتوسط الوضع المناسب بين الطرفين المتناقضين والذى يعرف عندئذ بالشـــخصية المتوازنة، فى هذا الخط وذلك هو الأمر الصعـــب. وقـــد افـــترض فرويد أن الأنا القوية تكون بالغة الأهميـــة فـــى التوظيـــف الجيـــد للشخصية. ومن هنا يكون من المؤكد أن الأنا الأعلـــى يتحكـــم أو يتولى شئون الشخصية، فعندما يتصرف الفرد بأسلوب أفضل كبـــالغ وناضج فإن الأنا الأعلى يكون المرشد الأخلاقـــى، والإرشـــاد ذو توجيهات ثنائية، فإما أن تكون فى حدود الواقـــع والمقبـــول أو أن

تكون على العكس فى حدود المنكر بالنسبة لمشاعر الآخرين فى محيطنا، مع مراعاة الإمكانات البيئية.

السمات والتكوين:

Topography and Structure

وكيفية توافقها

How they Fit Together

تشكل "الهو والأنا والأنا الأعلى" معا عند فرويد النموذج التكوينى للشخصية. كما تمثل المظاهر المختلفة لها بصفة كاملة. وهى تعتبر فى حد ذاتها واقعا غير ملموس، ذلك لأن الشخصية لا تنقطع أو تتجزأ إلى "هو وأنا وأنا أعلى" ولكن لأغراض تحليلية فإنه من المفيد أن نميز بين الوظائف المختلفة للشخصية التى نفترض لها تلك المكونات. والشخصية تتضمن مشاعر الشخص وأفكاره وأفعاله جميعا، وهى مستمرة ومتفاعلة "ديناميـة" وليست جامدة أو ثابتة. وتعنى مفاهيم فرويد جذب الانتباه لعناصر لها دلالتها فى تكوين الشخصية فى تفاعلها ونموها خلال مراحل الطفولة. كما أنها موجودة فى حالة أكثر ثباتا فى فترة سن البلوغ.

يؤكد النموذج الطبوغرافى "الصفات والسمات" لفرويد على أن الشخصية تتكون من ثلاث طبقات هى: الشعور، وما قبل الشعور، واللاشعور. ويوضح الشكل (١-١) ماهية النموذج

التكوينى والطبوغرافى المرتبط بعضه ببعض "ويجب التحذير بأن الرسم مبسط للمفاهيم المجردة بحيث يجعلها أكثر وضوحاً لنا" ويعطينا انطباع بأنها موجودة بالفعل ويمكن ملاحظتها مباشرة، "تأمل أن يتم التوضيح دون مبالغة فى التبسيط".

شكل ١-١ تكامل التكوين الطبوغرافى لنموذج الشخصية.

يفترض الشكل أن "الهو" يمثل ذلك الجزء من الشخصية وهو لاشعورى، كما أنه يمثل معظم الدوافع الغريزية البدائية والأصلية وهى بصفة عامة غير مقبولة اجتماعياً وبذلك لا يسمح نقلها إلى مستوى الشعور، فقد لا نشعر بوجودها ولكنها تحرك وتدفع بسلوكنا وتخلق الصراعات الداخلية. وبالرغم من وجود هذه الدوافع الغريزية فإن "الهو" يحتوى على مادة كابتة، فعندما نشعر ونفكر، أو نفعل شيئاً نعتبره غير مقبول أو يحمل تهديداً، أو عندما نمر بخبرة مؤلمة، نميل لأن ندفع بكل ذلك داخل اللاشعور "تلك العملية تتم بصفة إرادية تلقائية أى لا شعورية – كما سنعرض فيما بعد" ، تلك الخبرات تأخذ مكانها فى "الهو" متصلة بالدوافع الغريزية اللاشعورية مؤدية إلى المتاعب. إن كمية المخزون لتلك المواد والخبرات المؤلمة داخل "الهو" تختلف بالطبع من شخص إلى آخر نتيجة لاختلاف فى الخبرات الطفولية بين الناس، قد يكون بعض الأفراد أكثر انشغالاً وتقبلاً عن الآخرين فى مكوناتهم الشخصية،

وأكثر التصاقاً بدوافعهم الأساسية وأقل رغبة فى كبت مشاعر معينة أو أفكار أو أفعال وخبرات. إن الهدف الأساسى والوحيد للتحليل النفسى هو فتح مغالق اللاشعور والسماح للشخص بأن يدخل مباشرة فى أعماق نفسه أى "الهو".

وفى الشكل (١-١) نجد أن كلاً من "الأنا والأنا الأعلى" فى نطاق اللاشعور والشعور، حيث أن بعض وظائف الأنا - على سبيل المثال: "التفكير الواقعى واختيار الواقع" تعتبر عمليات شعورية. فالأطفال البالغين والراشدين يخططون شعورياً لأفعالهم ويفكرون فى البدائل لتحقيق أهدافهم ويختارون وهكذا. ولا ننسى أن "الأنا" ينمو من خلال "الهو" وأن الاحتياجات الغريزية للهو تشجع على الاحتكاك بالواقع، وأن الأنا يتشكل عندما تستخدم بعض طاقات "الهو" فى الإلحاح على إشباع وإرضاء احتياجاتنا البدائية من خلال العالم الخارجى. كما أن النمو الجديد للأنا عند الطفل يختلف بوضوح ويفرق بعد محاولات ذات دلالة تؤدى إلى التعامل مع البيئة. وحتى بعد أن يستغل الأنا جزئياً "بالتحكم فى الدوافع الغريزية والاهتمام بالواقعية" لا يزال يوجد فى المستويات العميقة تفاعل داخلى مع "الهو" اللاشعورى - ويبقى جزء من الأنا ممتداً فيما قبل الشعور يتلاشى داخل الشعور.

أشار فرويد إلى مظهر آخر من لاشعور الأنا: هــو قوتــه الكابتة، تلك التى هى غير مقبولة وغير سارة بالنســبة للشــخص، والتى فى نفس الوقت يمكن أن تتفصل عن الشــعور. أى تكبــت. وللإقلال من حالة القلق لحماية تقدير الذات فإن الأنا قد يتصــرف لإزاحة الدوافع غير المريحة والأفكار والمشــاعر أو الذكريــات، حيث يتم ذلك من خلال عملية لاشعورية – بمعنــى الكبــت فــى الشعور، وما يتم كبته فى "الأنا" يتم أيضــاً لا شــعورياً. ويمكــن التمييز بين الكبت Repressionوالقمع Suppression. فــالكبت هو حيلة دفاعية للأنا يتم لا شعورياً، أما فى حالة القمع فنحن نقــرر واعين شعورياً نسيان شئ محدد حيث نتجنب التفكير فيه.

يجب اعتبار المحتويات المختلفة والعمليات الخاصة بالأنــا الأعلى بكونها ذات مستويات مختلفة من الشــعور. فنحــن نــهتم وننشغل تماماً ببعض قيمنا ونطبقها شعورياً. ومن جانب آخر نمــر بخبرة الشعور بالذنب ومشاعر النقص أو الإحساس بالدونية والشــك فى النفس دون الاهتمام بأسبابها: إنها بفعل الأنا الأعلى لا شــعورياً، إن قيماً عديدة تتكون فى مرحلة مبكرة من العمر وتبقى مؤثرة فــى مشاعرنا وأفكارنا وأفعالنا، وعلى الرغم من أن تلك القيم لا تتحقــق شعورياً فى الحاضر، إلا أنها تجعلنا نحس بشــعور طيــب عندمــا

نسلك "نتصرف" وفقاً لها. وعندما نسلك عكسها نكون غير آمنين ونشعر بالذنب ونصبح فى حالة قلق.

لفرويد مفهوم عن طبقات الشخصية اللاشعورية، وما قبل الشعورية تؤدى إلى معنى بديهى، ومع بعض الاستقراء يمكن التحقق أننا لسنا مدركين تماماً للأسباب الفعلية لتصرفاتنا وسلوكياتنا، حيث أن "الأسباب تكمن فى مستوى اللاشعور"، نحن أحياناً نشعر بالاضطراب أو الذنب أو التهديد دون أى سبب واضح، وأحياناً أخرى قد لا نهتم بما نفكر أو نشعر به، أو بما نتصرفه أو نسلكه من سلوك معين، ولكن ببعض الجهد يمكن التعرف على الأسباب "التى تكمن فى مستوى الشعور". وهناك أيضاً دوافع ومظاهر متنوعة من البيئة التى نهتم بها "فى مستوى الشعور".

إن المفاهيم التكوينية "للهو" "والأنا" "والأنا الأعلى" يمكن تطبيقها على شخصية الفرد. معظمنا فى وقت ما نمر بخبرة تلح على السلوك باندفاع أو بأسلوب عدوانى أو جنسى "فعل الهو". ونحن أيضاً نحاول أن نجد الطرق المناسبة أو أفضل الوسائل لكى نتواءم بما يحيط بنا مادياً واجتماعياً لإرضاء وإشباع احتياجاتنا "وظيفة الأنا"، ونتأثر بالاعتبارات والقيم الأخلاقية ونصدر أحكام ذات قيم مختلفة "عمل وتأثير الأنا الأعلى".

مراحل النمو النفسي الجنسي وعقدة أوديب

Psychosexual stages of Development and the exdipus Complex.

اعتقد فرويد أن شخصية الإنسان البالغ تتضمن كمية محدودة من المرونة يمكن تغييرها إلى حد ما، يحاول العلاج التحليلى النفسى، ومن خلال عملية بطيئة ومؤلمة قد يحدث تبديل أو تغيير فى مشاعر الشخص وأفكاره وسلوكه. ورغم هذا فإن الشخصية ليست دائماً مثبتة على ما وصل إليه الإنسان الراشد تماماً. فهناك تكوين أساسى وظيفى تم وصفه وتثبيته خلال السنوات الخمس أو الست الأولى من الحياة. وقد وضع فرويد أهمية كبيرة على تلك السنوات المبكرة، وكثيرا مما نحدده ونسلكه ونقرره ونحن كبار تمليه علينا الخبرات المبكرة التى اكتسبناها فى طفولتنا.

يتنافى التطور النفسى الجنسى الطبيعى خلال سلسلة من المراحل: المرحلة الفمية Oral stage "السنة الأولى من الحياة" ، والمرحلة الشرجية anal stage "السنة الثانية وجزء من السنة الثالثة" والمرحلة القضيبية Phallic Stage "فى السنة الخامسة" وفى الفترة ما بين ست سنوات إلى ١٢ سنة من العمر، وهى مرحلة البلوغ "العشرينات إلى ما بعد ذلك". لقد حذر فرويد من

التحديد الزمنى لنمو المراحل الثلاث، أو أنه يتم بصفة قاطعة وبطريقة محددة، فقد يحدث تداخل لمرحلتين فى وقت واحد.

وفى نظرية فرويد يمثل نمو الطفل خلال تلك المراحل تفاعلاً داخلياً بين الطبيعة والتنشئة، أو بين الجوهر والتربية. فالطبيعة الإنسانية تؤثر فى النمط الأساسى للنمو، ولذا فإن بعض العوامل البيئية "مثل مرونة وسهولة الآباء، أو خشونتهم، أو علاقاتهم مع إخوانهم وأقاربهم"، هذه جميعاً تحدد المخرجات الخاصة بمراحل الحياة. والأمر فى جوهره: أن عمليات النضج الجسمية وراء البؤرة الأصلية للذة تنتقل من منطقة بالجسم إلى منطقة أخرى "من الفم إلى الشرج إلى الأعضاء التناسلية"، وأن الخبرات خلال تسلسل النمو تؤثر فى المخرجات النهائية فى صور وأشكال الفروق الفردية فى أنماط الشخصية. وخلال عملية التنشئة الاجتماعية للشخصية وتطبيعها فإن احتياجات الإنسان وإرادته تشبع وتحبط بدرجات متفاوتة عند مختلف الأفراد، وذلك بسبب الظروف المحيطة الخاصة بكل فرد. وكل منا يمارس خبرات بشكل أو آخر وفقاً لاختلاف اللذة وطرق الإشباع مثلما يحدث بالنسبة للآلام والصراعات النفسية.

ينصب التأكيد فى نظرية التحليل النفسى على المراحل الثلاث الأولية والتى تسمى أحياناً مراحل "ما قبل التناسلى

Pregenital " وتسمى كل مرحلة باسم المنطقة الخاصة بها من الجسم، والتى تعتبر منبع اللذة الجنسية خلال تلك المرحلة لنمو الطفل. ولذا فإنه، وفى أثناء المرحلة الفمية، تكون مراكز النشاط فى الفم مع المص والعض حيث يستمتع الطفل وتتلذ بها. بينما فى أثناء المرحلة الشرجية فإن مركز الاهتمام يصبح فى الشرج وأن إعادة التوتر وإخراج البراز يؤدى إلى تأجيل اللذة ثم الإشباع. ومع بداية المرحلة القضيبية تصبح الأعضاء التناسلية ذات أهمية حيث ينشغل الطفل فى ممارسة استمنائية مصاحبة بخيالات "جنسية".

ولكى يعبر الطفل هذه المراحل بنجاح "دون حدوث توترات أو صراعات نفسية" يتطلب ذلك قدر أفضل من الإشباع فى كل مرحلة- إشباع ليس زائداً ولا قليلاً- فإذا حدث إشباع زائد فى مرحلة من تلك المراحل فقد تحدث مقاومة أو ممانعة للتحول عنها أو للانتقال إلى المرحلة الأخرى، وإذا حدث إشباع قليل جداً فى مرحلة ما فقد يحدث الإحباط والقلق مما يؤدى إلى تأخير النمو النفسى. فمثلاً تأجيل أو تأخير الإشباع فى المرحلة الفمية خلال العام الأول لحياة الطفل قد يؤدى ذلك إلى درجة معينة من التثبيت Fixation على تلك المرحلة، ونتيجة لذلك لا يكتمل نمو الشخصية، وعند البلوغ فإن الشخص قد يستمر فى الاعتماد التام على الآخرين ويصبح "هو أو هى" متوقعاً ومنتظراً دوماً إشباع أو

تلبية احتياجاته من خلال الآخرين. ومن ناحية أخرى فإن الطفل المحروم خلال تلك المرحلة من حياته فإن تثبيته "هو أو هى" قد يؤدى إلى التمركز حول الذات ويبقى دائماً لديه شعور الحاجة، أو يصبح ذو اتجاهات عدوانية وهو بالغ راشد.

وتعنى كلمة تثبيت Fixation أن بعض الطاقة الليبيدية Libidinal Energy تبقى مرتبطة وملتصقة باهتمامات المرحلة المبكرة النفسية الجنسية، ولا تنتقل إلى مراحل النمو التالية. لذا فإن نمو الشخصية المتكامل خلال معظم مراحل النضج التناسلى تتوقف لتبقى بعد ذلك إلى حد ما غير ناضجة، وقد يكون التثبيت على مرحلة أو أخرى ذو دلالة وفقاً للظروف المحيطة بالطفل خلال مرحلة ما ووفقاً لردود فعل الفرد. وكل منا لديه على الأقل قدر قليل من التثبيتات فى مرحلة بلوغه، وتوجد أمثلة على ذلك منها: النهم فى الطعام، والتدخين، والثرثرة الزائدة، وإدمان الخمور وقرض الأظافر. تلك بعض الأمثلة لاحتمالات التثبيت على المرحلة الفمية. وسمات أخرى مثل البخل والعناد والمبالغة الشديدة فى النظافة قد تدل على الممارسة الصارمة لعملية الإخراج خلال المرحلة الشرجية، لأن احتفاظ الطفل بالبراز وعدم إخراجه قد يزيد عن حده ويبالغ فيه، وتلك الصفة قد تعم وتمتد وتشمل سلوكيات أخرى. وإذا تعرض الطفل للشعور بالخجل خلال المرحلة القضيبية

فقد ينمو لديه عدم الأمان والقلق، وعند سن البلوغ قد يصبح شديد العدوانية مع ميول استعراضية Show off والتفاخر كغطاء لشكوك نفسية، قلقة لم تحل بعد.

إن معظم الأحداث الهامة خلال السنوات الخمس من عمر الطفل تحدث أثناء المرحلة القضيبية. إنها "عقدة أوديب Oedipus Complex" ، فقد أكد فرويد أن تلك العقدة ضرورية ولازمة ومظهر عام للطفولة وتحدث لكلا الجنسين، بنين وبنات، حيث ينمو للأولاد انجذاب جنسي للأم والرغبة فى امتلاكها بديلاً عن الأب. وترغب البنات فى تملك الأب بديلاً عن الأم "وتسمى عقدة أوديب الأنثوية أحياناً "عقدة إلكترا Electra complex"، على الرغم من مقاومة فرويد لاستخدام تلك العبارة.

وكما أشرنا آنفاً، أن الأعضاء التناسلية خلال المرحلة القضيبية تأخذ أهمية بالغة، فإن تلك المعالجة ينتج عنها اللذة والخيالات المرتبطة بتلك الأنشطة. فالطفل يبدأ أولاً فى ملاحظة الفروق بين الأعضاء الجنسية للذكر والأنثى، الأب والأم، الأخوة والأخوات، والأشخاص الآخرين من الجنسين. سوف نبدأ أولاً بدراسة عقدة أوديب بالنسبة للولد حيث تعتبر أحد الخيالات الجنسية له وتدور حول رغبته فى تملك الأم. ومع توحده الفكرى بتلك الرغبة الملحة المحرمة فإن الولد يمارس – يعيش – خبرات الغيرة

والاستياء من الوالد، وقد يرغب في إزاحة الوالد فى تلك المنافسة، وكلما زادت تصورات الولد تبدأ الصراعات الداخلية فى البناء والتكوين، ويستمر الولد في رغبته في الوصول إلى أمه منفرداً. ولكن استمرارية وجود الأب إلى جانب تهديد صورة الولد لو كشف عنها وعرفت مشاعره وأفكاره سوف تكون نتيجته القلق، والذى يسميه فرويد "قلق الإخصاء Castration anxiety" أو "الخوف من الإخصاءCastration Fear". ويصبح قلق الإخصاء المحتوى الرئيسى لعقدة أوديب الذكرية. وينشأ هذا الخوف الخاص بسبب أن المنطقة التناسلية هى مصدر مشاعر الولد من شبعه لأمه، "وأيضا لأن الآباء أحيانا يحذرون الأبناء من عدم اللعب بأعضائهم التناسلية"، تلك التحذيرات قد يفسرها الولد كتهديد لمرجعيات مشاعره نحو أمه، بمعنى أنه إذا لم يعدل سلوكه ويعتدل فى مشاعره فإن أمرا سيئا سيحيق به.

إذن لدينا ولد صغير تنشأ بداخله صراعات كبيرة، وبالطبع فإن ثمة عامل آخر معقد، هو أنه مازال يحب والده على الرغم من رغبته فى إزاحته عن طريقه. كيف إذن حل تلك المشكلة؟ الحل العادى هو بعض من الكبت للرغبة العارمة وإقامة بديل للعلاقة الحنونة معها يتوحد الطفل مع الأب Identification، والتوحد مشاركة أو اندماج مع صفات الآخر، وفى هذه الحالة يتبنى أو يتخذ

اتجاهات وقيم والده، عندئذ ينمو الأنا الأعلى للولد كثيراً "أشار فرويد أن الأنا الأعلى وريث عقدة أوديب". والتوحد مع الأب يفيد الولد فى الإقلال من قلق عقدة الإخصاء عنده، كما أن ذلك يفيد المجتمع فى تعلم الولد دور الجنس الذكرى، وعن هذا الطريق تمر المعايير الثقافية "أو القيم الحضارية" للسلوك من جيل إلى جيل.

ولكن، ليس دائماً ما تكون عقدة أوديب لدى الولد إيجابية، فمثلاً: الاستياء والعدوانية تجاه الوالد قد تستمر وتعمم على جميع أشكال وصور السلطة المختلفة، أو أن يؤدى قلق الإخصاء بشدة إلى سلبية حادة "نوع من الاستسلام أو التخلى فى مواجهة الإحباط الشديد والخوف". تلك السلبية فى عقدة أوديب يمكن أن تنتهى إلى "الجنسية المثلية Homosexuality"، إذا كان الوالد ضعيف وخاضع وسلبى، وتكون الأم قوية ومسيطرة ... عندئذ يصبح التوحد مع الأم بدلاً من الأب أمراً ممكناً فى مثل تلك الحالة.

ويوجد عامل آخر مؤثر فى التوحد: هو اختلاف الاستعداد الداخلى لقوة الميول الأنثوية أو الذكرية لدى الفرد، خاصة حينما تكون العوامل الوراثية ذات تأثير، حيث تلعب الميول الذكرية أو الأنثوية دورها. وقد أشار فرويد بأن كل إنسان يحمل فى تكوينه نوعى الجنس: الذكرى والأنثوى، بمعنى أن تكوين الفرد الأصلى يتضمن مكونات نفس الجنس وعكسه. فإذا كان لدى الولد خبرات

أسرية معينة ، مثل تعرض لأب ضعيف وأم مسيطرة، فإنه بذلـــك يرث ميول أنثوية وبذلك يزداد عنده الميل للتوحد مع أمه أكثر مـــن التوحد مع أبوه.

يفسر فرويد عقدة أوديب الأنثوية بأنها أكثر تعقيـــداً وغـــير كاملة. وعلى الرغم من محاولته وصف أحداث حرجـــة، فبالنســبة للذكر يؤدى تهديد الإخصاء إلى عقدة أوديب، وبالنسبة للأنثى تشعر بأنها تفتقد شيئاً– ومع شدة هذا الشعور ينشأ لديـــها أو تدخـــل فـــى دائرة "حسد القضيب Penis Envy". "حسد القضيب عنـــد البنـــت وقلق الإخصاء عند الولد هما مظاهر عقدة الإخصاء كلية".

فى الوقت الذى ينشأ فيه عدوان البنت نحو أمها، وترى أنها ليست أكفأ جسدياً من أمها، تلفظها وتتحول إلى حب الأب، وبـــالطبع فإنه ليس من السهل بطفلة صغيرة أن تتخلى عن أمها، لذلك فـــهى تحاول أن تستبدل جوهر أمها فى داخلها بواسطة التوحد معـــها، وأن تحاول أن تحل مكان أمها فى علاقتها مع الأب وأن تقاســـمها فـــى قضيبه. تصبح البنت حساسة وقابلة للحرج نحو أمها، وهـــذا يزيـــد من استيائها المضمور.

يعتقد فرويد بأن البنات لا يحلون عقـــدة أوديـــب بطريقـــة الأولاد. وذلك لأنهن ليس لديهن خوف شديد من الإخصـــاء الـــذى يدفع الأولاد إلى حل أسرع ومحدد وكامل "عن طريق التوحد مـــع

الأب". فبالنسبة للبنات يرى فرويد أن الإخصاء قد تم بالفعل، لذلــك فإنه لا يوجد تهديداً حالياً أو مستقبلاً ولكنه أمر واقع. ولأن البنــات لا تنتهى لديهن عقدة أوديب فى دلالتها كمــا عنــد الأولاد، فإنــهن أيضاً لا تنشأ لديهن "أنا أعلى" قوى. يرى فرويد أن الافتقار إلى "أنا أعلى" قوى عند البنات مرتبط بتلك السمات الشخصية الأنثوية مثل: الانفعالية، وقلة الإحساس بالحكمــــة، والعنــاد وعــدم الخضــوع لمتطلبات الحياة، وطبعاً فإن المنادون بالمساواة بين الرجل والمــرأة لا يصدقون تلك العبارات.

فبالنسبة لحل البنات لعقدة أوديب يكون فى التوحد مــع الأم وكبت الصراع الذى يحقق الهدف. وإذا قل دور جنس الأنثى فــإن الرغبة فى القضيب يمكن أن تحل إشباعا بالرغبة فى طفل، ويعتــبر الحصول على طفل كإشباع بديل، وكحل وســط تعويضــى لعــدم الحصول على القضيب، فإذا احتفظت البنت برغبتها البدائيــة فــى الحصول على القضيب وهو جوهرها فهذا يعنى أنــها ترغــب أن تكون ولدا. وقد ينشا لديها سمات الذكورة. وفى الحــالات الحــادة تتصف بالجنسية المثلية. ومن المحتمل أن ينشأ عن حسد القضيــب مشاعر النقص أو الخجل بسبب نقص العضو التناســلى Genital Deficiency، "ويجب الإشارة إلى أن رؤية فرويد المسماة "بعقــدة أوديب الأنثوية"، وخاصة فكرته عن حســد القضيــب وتأثيراتــها

المعاكسة، قد هوجمت كثيراً باعتبارها ذات أفكار منحازة وشوفونية" لجانب الرجل".

يبدو أن السبب الأصلى للتوحد مع نفس الجنس "أحد الوالدين" مختلف تماماً فى "عقدة إلكترا" عنه بالنسبة لـ"عقدة أوديب" عند الذكر. بينما يكون توحد البنت مع أمها ما هو إلا محاولة لاستعادة مظاهر فقدان حب الموضوع. فإن توحد الولد مع أبوه يخدم فكرة إزاحة الخوف من الإخصاء.

ووفقاً لنظرية التحليل النفسى فمن المعقول إلى حد كبير أن يكون الحل الإيجابى لعقدة أوديب خطوة هامة فى نمو شخصية صحية وسوية ، وما تبقى من الصراع النفسى يستخدم بعد ذلك، وبدون حل، فى صورة مشاعر جنسية وعدوانية، وأفكار اتجاه الوالدين يمكن استمرارها، والتى يصدر عنها مشكلات فى مراحل البلوغ والرشد. ومن أهداف نظرية التحليل النفسى السماح للمريض بأن يعمل فكره للتعرف على الصراعات الانفعالية والاتصالات عبر الواقعية والمزيفة التى عاشها فترة عقدة أوديب.

وفى سن الخامسة أو السادسة من العمر حينما تكبت الدوافع المحرمة نحو الأقارب والمشاعر العدوانية بالنسبة لعقدة أوديب، تتحول جزئياً إلى مشاعر مقبولة، وتحل جزئياً خلال عملية التوحد، حيث يدخل الطفل فى "مرحلة الكمون

Latency Period"، إذ تهدأ الرغبات الجنسية والعدوانية والخـوف بعض الشيء. وبالرغم مما تتصف به تلك الفترة باللعب مع أنـداده من نفس الجنس، "مما يساعد على تقوية أدوار الجنس خلال توحـد تالى"، وإلى جانب مشاعر التعلق والتقرب من الآباء "حتـى علـى المستوى اللاشعورى" لا يزال يبقى بعض عناصر للرغبة "الجنسـية والعدوانية" وتستمر تلك المرحلة من الهدوء بصفـة عامـة حتـى حوالى سن الـ"١٢".

ومع مرحلة البلوغ تظهر مرة أخـرى الجنسـية التناسـلية ولكن بمظاهر وتأكيدات أخرى. وذلك أن مراحل ما قبل التناسـلى "الفمية والشرجية والقضيبية" اتصفت بالبحث الإشباعى المتمركـز حول الذات، من خلال بواعث ومعالجات بذات الجسم، تكون هـى المصادر الرئيسية للإشباع.

أما عند البلوغ يبدأ البحث عن علاقات جنسية مع الجنـس الآخر فى اتجاه لإشباع متبادل. كما أن الميول المبكرة ذات الصفـة الأنانية تبدأ فى التحول إلى معنى آخر هو مسئولية اختيار شـريك جنسى، من خلال استمرار عملية التنشئة الاجتماعيـة. وإذا كـانت الظروف المحيطة عادية يعبر الإنسان المرحلة التناسلية بمعقوليـة النضج، حيث يكون فى سباق لأن يصبح عضوا منتجا فى المجتمـع ومفيدا وقادرا على الحب والعمل بأسلوب مؤثر من خلال وسـائل

مقبولة وموفقة مع الذات ومتطلبات العالم والذين يعيشون فيه. وهـذا يؤكد بالطبع قدرة التكيف مع عواصف المراحل المبكرة دون التثبت على مرحلة نمو معينة. وعند الوصول إلى المرحلة التناسلية فـهناك تفاعلات فى هذا المستوى تتأثر بكمية الطاقة الليبيدية الممكنة والتـى تعتمد على مدى التثبيتات المبكرة.

القلق والحيل الدفاعية للأنا

Anxiety And The Defence Michanisms of The Ego

إن الشخص الذى تخطى بنجاح المراحل المختلفـــة للنمـــو الجنسى النفسي ، ويتعامل باعتباره شخص ناضج، متكيفا ورشـــيدا ولديه "ذات" تكون قد نشأت بصورة طيبة. تلك الذات الفردية القويـة والقادرة على التعامل مع متطلبات الحياة بأسلوب معقول ومؤثـــر، بالنسبة للهو وللأنا الأعلى؛ مثل هذا الشخص تكاملت لديه المظـاهر المختلفة للشخصية، حيث يوظفها بسلاسة داخل المجتمع ولا يعـانى من صراعات داخلية حادة ولا يتردد فى قراراته أو يشعر بـــالذنب، ولا يشعر بالتهديد أو الإحباط خلال مواقف الحياة اليومية. إن مثـل هذا الشخص، وعلى الرغم مما سبق ذكره فمن المحتمل أحيانا وفـى فترات متباينة قد يعانى من القلق، وعادة ما يكون هذا القلق مقبـولا كجزء من حالة الإنسان. إن الذين يعانون بقدر أكبر وبشـــدة مـن

القلق عاجزون عن التعامل مع أنفسهم ومـــع مجتمعـــهم وبيئتـــهم الطبيعية. فهم يفتقدون التأثير فى الحب وفى العمل. إن القلق يلعـــب دورا تحذيريا للأنا كنوع من التهديد بالخطر، ويزداد هذا الـــدور إذا كانت الذات ضعيفة عنها لو كانت قوية، ذلـــك لأن الـــذات القويـــة تتعامل مع المواقف المتنوعة بكفاءة وبثبات أكبر.

افترض فرويد وجود ثلاثة أنماط للقلق: القلـــق الحقيقـــى، والقلق العصابى، والقلق الأخلاقى. يحدث القلـــق الحقيقـــى عندمـــا يكون ثمة تهديد من العالم الخارجي الواقعى، حيث يواجه الشـــخص بموقف أو حالة تشكل خطرا عليه. عندئذ يمكن أن يقوم القلق بتقديم بواعث لاتخاذ رد فعل معين لتجنب الخطر، مثل هذا الفعـــل يقلـــل القلق، فإذا لم يتم اتخاذ رد فعل محدد لمواجهة الخطر، فإن القلـــق يزداد ويعجز الفرد تماما.

أما القلق العصابى فإنه يحدث نتيجة صدور تهديد يخـــترق دوافع الهو ويجعله يفعل شيئا يعاقب عليه، حيث يخاف الشـــخص أن يفقد انضباطه ويقع فى مشكلة. وبطبيعة الحال فإن هذا الخوف ليس ذو صفة شعورية تماما ويكون الشخص ميالا لخـــبرة القلـــق دون قدرة على وصف أو معرفة سببها. وتحدث عـــادة مشـــاعر عامـــة للخوف والتهديد بالخطر. أما القلق الأخلاقى فيحدث نتيجة تـــأثيرات الأنا الأعلى، فعندما يفكر الشخص، ويشعر أو يفعل أمـــرا مدنســـا

للقيم المعترف بها أو يتنافى مع القواعد الأخلاقية، عندئذ يصبح الأنا الأعلى قادرا على إصدار الشعور بالذنب والخجل والشعور بالدونية، ذلك عندما يأثم "هو أو هى" أو يزل فى حياته أو حتى مجرد التفكير فى فعل الإثم، ويحتوى القلق الأخلاقى شعوريا" الخوف من العقاب.

وتجدر الإشارة إلى أن الواقع - على الأقل من ناحية المبدأ- من الممكن أن يكون هو أساس القلق العصابى والقلق الأخلاقى. فالوعى الأساسى بالقلق العصابى والقلق الأخلاقى والأفعال التى تستحق العقاب تجسد معايير القيم والأخلاق فى التعامل مع الواقع الخارجى، وهو ما يمثله الآباء والأشخاص الاخرين المؤثرين فى حياة الفرد.

وكما أوضحنا سلفا، فإن الشخص الذى يمتلك "أنا" قوية يصبح قادرا على أن يتغلب بكفاءة على ظروفه المحيطة به وبغير جمود، وأن يتكيف مع القيم والقواعد التى تلقنها فى بيئته. ويعتبر ذلك أمرا مثاليا أو نموذجيا. إلا أن معظمنا يحتاج على الأقل دفاعات مؤقتة ضد القلق لكى يصل بمحاولاته إلى خبرات. لسنا دائما قادرين على اتباع المنطق والتعقل والتغلب على أنفسنا عندما نواجه أو نتعامل مع الحقائق بأسلوب واقعى أو منطقى، فعندما نتبنى ونسلك طرقا غير واقعية فى تعاملنا مع البيئة المحيطة بنا

ومع دوافعنا أو مشاعرنا فإننا نستخدم أسلوب "الحيل الدفاعية Defence Mechanisms".

ووفقا لنظرية التحليل النفسي فإن الحيل الدفاعية يتم توظيفها بواسطة "الأنا" لحماية الشخص من القلق. كما أن استخدامها يدل على ضعف الأنا، في حالة قد تكون خطيرة وطويلة الأجل. والحيل الدفاعية تتضمن تزييف لأحوال حقيقية ومن المفترض أنها تتم لا شعوريا. وعندما تستخدم كثيرا ولفترات طويلة هذه الطريقة يصبح هذا التوظيف أسلوبا خطير التأثير حيث تتعاظم الدفاعات أكثر فأكثر كلما ساءت الأحوال المحيطة بالشخص. وذلك بسبب تجنب مواجهة الواقع والتغلب عليه. وباختصار يستخدم البعض أسلوب الحيل الدفاعية إذا واجهوا حقائق "داخلية أو خارجية" غير سارة.

وقد حاول بعض الكتاب "بما فيهم "أنا فرويد – ابنته"، سرد الحيل الدفاعية التى أشار إليها فرويد في كتاباته، ومن تلك الدفاعات المذكورة: الكبت والتكوين العكسي Reaction Formation، التعطيل Undoing،الإسقاط Projection، التبرير Rationalization ، الإنكار Denial، التوحد Identification ، الإزاحة Displacement "يتضمنه الإعلاء أو

التسامى Sublimation"، التثبيت Fixation، والنكوص Regression.

الكبت: Repression

يعتبر من أكثر الحيل الدفاعية الأساسية، حيث يستبعد الأنا من الشعور ما هو مرفوض ومؤلم، وتحبس الدوافع غير السارة، والأفكار والمشاعر والذكريات غير المرغوب فيها. فإما أن تبقى وإما يدفع بها إلى داخل اللاشعور بسبب القلق الناتج عن موقف معين. ويستخدم الأنا الطاقة "مضاد للشحنة النفسية Anticathexes" لحبس الموضوع خشية وصوله إلى مستوى الشعور.

وقد شكل فرويد نظريته فى الكبت عام ١٨٩٠م واعتبرها كشف سيكولوجي أوحد وأعطاه أهمية كبيرة باعتباره جزء رئيسى وضرورى فيما هو أبعد فى تطوير نظريته. وقد أشار فرويد فى مؤلفاته عن الكبت بأنه حجر الأساس للتحليل النفسى.

وفى حالة "التكوين العكسى Reaction formation": فإن القلق الذى يؤدى إلى دفعات، فكر أو شعور، يستبدل بعكسه. فقد تستبدل الكراهية بالحب، والضجر بالعاطفة، والوجدان والجنسية بالبراءة والطهارة. وهكذا. أما الدفعة الأصلية من الفكر والمشاعر

فتبقى، فهى ببساطة خافية عن الشعور بالتبصير الذى يعبر عنـــها، فمثلا الشخص قد يستبدل حبه الكبير وعاطفته واهتمامـــه بـــالآخر حتى يشعر المتلقى بالضيق.

التعطيل: Undoing

يمثل التعطيل محاولة من الأنا لإعادة تكوين الأفعال السابقة لتصبح أقل قلقا. إذا كان السلوك وتوابعه غير مقبولة فـــإن موقـف الأنا الضعيف قد يعطل الفعل بإبعاده، ويتعامل مع الموقف ليصبـــح أقل ألما. وقد تؤدى عملية التعطيل إلى هدم الصدق والحقيقة. وقـــد يعتقد الشخص "هو أو هى"، وعلى مســـتوى الشـــعور، بأنـــه لـــم يتصرف بالسوء مطلقا "عكس الحقيقة".

الإسقاط: Projection

الإسقاط هو محاولة للتخلى عن صفـــات شـــخصية غـــير مقبولة بإسقاط تلك الصفات على الآخرين، فمثلا عنـــد القـــول: لا يمكن أن تكون تلك مشـــاعرى أو أفكـــارى أو دوافعـــى لأنـــها لا تخصنى بل تخص الآخرين أو شخص بعينه. عندئـــذ يكـــون هـــذا

الشخص راغبا فى إيذاء وكراهية من أسقط عليه صفاته، يســتخدمه كشيطان أو عدوانى إلخ. فى حين أنه "هو أو هـــى" الــذى يحمــل الذنب والانفعالات والأفكار.

التبرير: Rationalization

يتضمن التبرير تقديم تفسيرات معقولة ومسموعة لسـلوكيات غير مقبولة وغير معقولة، وتلك اللاعقلانية تشكل لإظهار العقلانيـة للشخص أو للآخرين. فإذا قام شخص "هو أو هـــى" بفعــل مندفــع وتأخر أسفه. قد يكون غير قادر على قبول الاعتراف بأنـــه حقيقـــة تصرف مندفعا، وقد ينشئ عندئذ سببا جيدا ومقبولا كمبرر لسـلوكه. ويستخدم التبرير أيضا لتفسير الفشل فى تحقيق هدف، فمثـــلا عنـــد القول: "أنا لم أحاول" يمكن أن تحمى الشخص من القلق الناتج عـــن كونه فاشل وبالتالى فقده لتقدير الذات.

الإنكار: Denial

فى هذه الحالة يكون الأنا غير قادر على التعامل مباشـــــرة مع الحقائق التى تهدده من خلال الموقف الحالى، وعندئذ لا يعـترف الشخص بالحقيقة الواضحة والمعلومة. فى بيئة الفرد حقيقة خارجية "غير سارة" بالنسبة للواقع تثير القلق على الأقل بصفة مؤقتة، عندئذ قد ينكر الشخص وجود هذا الواقع غير السار، وقد يصبح الإنكـــار

بديلا عن خيالات الحقيقة، فمثلا قد يفكر شخص ما في موت حبيبته، وقد يحتفظ بخيالاته حية وذلك بحرصه على حفظ ملابس محبوبته، أو أن يترك حجرته التي كان يعيش فيها قبل وفاتها كما هي دون تغيير. وفي موقف آخر، قد يرفض شخص متزوج بعض الأمور عن الزواج المضطرب ويستمر في التصرف كما لو كانت العلاقات الزوجية سعيدة منكرا تلك الأمور المرفوضة كما لو كانت غير موجودة.

التوحد: Identification

يحتوي التوحد على الاندماج والمشاركة والاحتواء لسمات وصفات شخص آخر، أي أن يتمثله في صفاته، وقد يحقق التوحد إزاحة أو إبعاد الخوف من القوة المفرطة للشخص المتوحد معه، وفي تلك الحالة يسمى "التوحد مع الباغي أو العدواني". فمثلا لحل الخوف من الإخصاء أثناء عقدة أوديب، فإن الولد يتوحد مع والده تخطيا لإحساسه بالخوف. وهناك أيضا التوحد مع "الموضوع المفقود". والذي هو محاولة لاستعادة أو إعادة الاحتفاظ بالموضوع "شخص". وقد يكون ذلك هو أساس توحد البنت الصغيرة مع أمها المرفوضة في حل عقدة إلكترا. قد يتخذ أحدهم أيضا صفات الشخص المحبوب المختفي الغائب أو المتوفي، في محاولة

لاشعورية لإعادة خلق وإيجاد فكرة أن هذا الشخص ما زال حيا فى نفسه. وكما يحدث فى الأشكال الأخرى من الحيل الدفاعية فإن التوحد يلطف ويخفف التهديدات وعدم الأمان حتى دون مواجهتها بصورة مباشرة.

الإزاحة: **Displacement**

الإزاحة هى تحرير الطاقة الغريزية فى نشاط بديل لمخرج مشبع مباشرة، سواء كان هذا المخرج غير ممكن أو ممنوع ومحرم. وأحيانا لا يستطيع الشخص أن ينفس عن معظم دوافعه الجنسية والعدوانية. فإذا لم يجد مخرجا مسموح به، قد ينتج عن ذلك إحباطات غير محتملة، وتسمح الإزاحة بالنقل من أكثر أشكال الإشباع صعوبة إلى شكل ممكن كبديل للإشباع.

قد يتملك الشخص الرغبة فى تحقيق دوافعه الجنسية القوية نحو إنسان آخر. أو ليس لديه القدرة على تحقيق ميوله العدوانية نحو شخص ما. هنا نجده يقوم بتحويل تركيزه أو انتباهه، أو بأن يقوم بتحويل تلك الطاقة "الجنسية / العدوانية" نحو مسار آخر.

ينتج عن تلك الإزاحة نشاطا مقبولا أو مجازا اجتماعيا، بما يسمى "إعلاء أو تسامى Sublimation". وقد افترض فرويد أن

التقدم الحضارى ينجم عن التسامى والإعلاءات حيث تتحول الدوافع الغريزية ويعاد توجيهها فى أنشطة بناءة ومنتجة.

التثبيت والنكوص: Fixation and Regression

لهما صلة بالحيل الدفاعية. ففى خلال النمو النفسى الجنسى قد يثبت الشخص إلى حد قليل أو كبير على مراحل مختلفة. فعندما تكون الإحباطات قد وصلت إلى درجة كبيرة "ربما بسبب قلة الإشباع"، أو عندما يصل القلق إلى درجة كبيرة في النمو النفسى الجنسي، خاصة عند الانتقال من مرحلة إلى مرحلة تالية فى هذا النمو "ربما بسبب الإفراط فى الرغبة فى الإشباع عند مرحلة معينة"، كل هذا قد يكون بسبب أن "الأنا" لدى الطفل تتجه إلى حيل دفاعية هى "الإبقاء" ... أى أن يبقى الطفل فى المرحلة التى هو فيها دون رغبة فى التطور إلى المرحلة التالية. مما ينتج عنه "نكوصا" أو "ارتدادا فى الشخصية". فإذا واجه الفرد خبرة مؤلمة، فمن المحتمل عند عدم قدرته على التغلب بكفاءة على هذا الموقف، أن يرتد المرء إلى مرحلة طفلية، ويعيد تعامله ومواجهته للموقف المؤلم بأسلوب طفولى، هو أسلوب يحمل سمات وخصائص مرحلة هو تجاوزها بالفعل، وبسبب هذا التثبيت فإن الوسائل الملائمة للتعامل مع المشاكل والحقائق لن تتطور لدى الفرد.

وعندما يواجه الشخص حقائق صعبة يميـــل تلقائيـاً إلـى النكوص والارتداد للأسلوب الوحيد القديم للتغلب عليها "هو أو هـي" التي نقلها ومارسها في طفولته.

فقد يستمر الطفل الكبير في مص إصبعه أو يختفي خلـف ثوب أمه عندما يواجه موقفاً ضاغطاً. والرجل فـي عمـل جديـد صعب عليه، قد يمرض ويضطر إلى البقاء في البيت لتعتنـي بـه زوجته. وهناك نكوص أقل ووقتي "متصل بتثبيـت فـي المرحلـة الفمية" مثل قرض الأظافر عند المعاناة.

معظم الحيل الدفاعية ذات تأثيرات سلبية في أداء الإنسان.

افترضت نظرية فرويد أن اثنتين من تلك الدفاعـات ذات تـأثيرات إيجابية هما: التوحد والإعلاء. فالتوحد يسمح بقيم وقواعد المجتمـع أن تنتقل من جيل إلى آخر مؤكدة بعض الثبات والاستمرارية فـي أنماط سلوكية مقبولة. ويتضمن الإعـلاء أنشـطة مفيـدة للجنـس البشرى ويسمح ذلك بالتقدم والتطور الحضارى.

التحليل النفسي كعلاج

القلق ومظاهره المتصلة به تدفع الفرد للبحث عن المسـاعدة عند المعالجين النفسيين. وكما ناقشنا آنفاً فإن فـي نظريـة فرويـد ثلاث مصادر للقلق وهى غالباً: الظروف المهددة للإنسان من البيئـة الخارجية "قلق واقعى". واختراق التهديد للموضوع المكبـوت فـي

الغريزة "قلق عصابى". تهديد لذنب ومشاعر أخرى غير مريحة منبثقة من الأنا الأعلى "قلق أخلاقى".

والقلق طويل الأجل والشديد يدل على ضعف الأنا وعدم القدرة على التغلب بصورة واقعية على المشكلات الخارجية، والتحكم فى الصراعات الداخلية بصورة غير علمية، وعدم القدرة على مواجهة وحل الصراعات الداخلية والخارجية المحيطة بالبيئة. يستخدم الأنا الضعيف جيلاً دفاعية، ومن خلال تشويه أو تحريف وتزييف وخداع النفس فإن الحيل الدفاعية تقدم بعض الراحة من القلق ولكن دون استمرار. فما دامت تلك الحيل تمنع الانفعالات والدوافع والرغبات، كما تمنع التقدير المناسب للبيئة الخارجية، فإن هذا قد يبعد الشخص عن الاستبصار والفهم وتذوق الواقع وغير ذلك من الممكنات والسلوك الخصب المفيد، ومن ثم يقع الشخص فى مشكلات أعمق وأعمق.

- عندما تستمر الأحوال المؤدية إلى القلق أو الشدة المسببة لأعراض مختلفة مثل الإرهاق والاكتئاب والشعور بالذنب والتوتر الزائد والصراع والعجز "الجنسى فى الأرجح"، أو البرود الجنسى والشعور بالدونية وعدم الكفاية فقد يقرر الشخص الذهاب إلى المحلل النفسى.

وليس كل المحللين النفسيين يســـــتخدمون نفـــس الوســـائل العلاجية. فبعضهم أقل معرفة عن غيرهم. فعندمـــا يؤخـــذ الاتجاه العلاجي الفرويدى كأساس نجد أن بعض المحلليـــن يجدد فى وسائل علاجه. وفيما يلى عرض مختصر لنظريـة التحليل النفسى بالطرق التقليدية:

بدأ فرويد استخدام التنويم المغناطيســـى عـام ١٨٨٠ مـــع "جوزيف بروير Josef Breuer"، وفحص إمكانيات التنويم لعلاج وشفاء الاضطرابات العاطفية من خــــلال "التطــهير النفسى Catharsis"، أو التحرر العـــاطفى، والـــذى يتـم بواسطة كلام المريض عن مشكلاته بينما هو تحت تـــأثير التنويم. ولم يرض فرويد بطريقة التنويم هذه، حيث وجدهــا صعبة عند تنويم بعض المرضـــى بصفـــة خاصـــة لكـــى يستقرئ حالات تنويم عميق وكاف للحصول على علاجـات دائمة.

وقد تعلم فرويد قدر كبـــير مـــن ملاحظاتـــه عـــن المرضى المنومين. واستنبط أن القوى النفســـية المتفاعلـــة تعمل داخل الشخص لينتج عنها أعراضاً عصابية مختلفـــة. ولتحليل أو تفسير تلك القوى بطريقة يمكـــن مـــن خلالـــها التعامل معها بصفة عامة؛ أنشأ فرويـــد أسـلوب تشـــجيع

المرضى وحثهم على الاسترخاء، والتخلى عن محـــاولات التفكير الشعورى الفعلى، وأن يقول المريض مـــا يخطـــر بباله أو فكره مباشرة مهما كان وبدون أية مقاومة، ويعطـــى تعليماته للمريض بأن يقول كل شئ يخطر بباله حتـــى لـــو كان تافهاً، أو غير مترابط أو معقداً ومربكاً، حيث تصبـــح العفوية والتلقائية ذات أهمية بالغة. ويسمى هـــذا الأسـلوب بـــ "التداعـــى الحـــر أو الطليـــق Free Association"، ويعتبر ذلك جزءاً هاماً وضرورياً فـــى التحليـــل النفســـى التقليدى.

ويعتبر الاسترخاء فوق أريكة معدة لذلك من أعظـــم مظاهر إجراءات التحليل النفسى النمطى، والذى اســـتخدمه فرويد ليصل بـــالمريض إلـــى أقصـــى حـــالات التفكـــير الانعكاسى العميق. ومع الاستلقاء فوق الأريكـــة لا يواجـــه المريض المعالج وجهاً لوجه مباشرة وباســـتمرار، وهـــذا يؤدى إلى أكبر قدر من المناخ الاسترخائى وبمنع التدخلات المرفوضة فى عملية التحليل "مثل التى قـــد تحـــدث عـــن تعبيرات وجه المعالج المحلل".

ومن وسائل هذا العلاج التى ابتدعها فرويد:

"تحليل الأحلام Dream Analysis"، أو "تفسير الأحلام Dream Interpretation". حيث أن الأحلام لها محتويان هما: "المحتوى الظاهرى The manifest content" للحلم، وهو المظهر الشعورى للحلم والذى يفسره المريض عند وصف الحلم. "والمحتوى الخفى The Latent content" للحلم وهو المظهر ذو الدلالة الهامة فى التحليل النفسى، ذلك أنه الشىء المختبئ، والذى له دلالات ومعانى لاشعورية.

وما الأحلام عند فرويد إلا تعبيراً عن الرغبات اللاشعورية، وعندما تصل إلى مستوى الشعور تبدو متخفية ورمزية المعنى.

وقد تكون مزعجة جداً للشخص عندما تكون الدوافع والرغبات العدوانية والجنسية لدى الشخص "هو أو هى" يعبر عنها بصورة مباشرة وعلى المستوى الشعورى، عندئذ تسمى عملية "صياغة الحلم Dream work" وهى تحول عمليات الحلم من محتواه اللاشعورى الخفى إلى محتوى ظاهرى أكثر تقبلا. وتصبح العصا فى الحلم مرادفة ورمزاً للقضيب، أو أى شئ آخر مثل الثعبان له شكل مستقيم وقد يتحول الفرج رمزياً فى الحلم إلى شكل صندوق أو فرن، أو حديقة "تزرع بالحبوب" رمزاً للمعنى وهكذا.

وتستبدل المرأة فى الحلم رمزاً بالبيت أو الحجرة، كما أن أبوابها ترمز لمنافذ الجسم. وقد تدل العملية الجنسية فى الحلم بصورة قماش مبلل أو صعود سلم، وقد يعبر عن العدوانية فى الحلم بالموت أو حادثة.

تلك الأمثلة تعتبر مباشرة وواضحة. والأحلام غالباً ما تحتوى على رموز أكثر تعقيداً وتحتاج إلى معالجة وتفسير يأخذ جهداً كبيراً من جانب المحلل النفسى.

وقد استخدم فرويد التداعى الحر أو الطليق وتحليل الأحلام جنباً إلى جنب فى العلاج بالتحليل النفسى، حيث يسأل المريض بأن يترك تفكيره فى حرية كاملة وتداعى حر لبعض مظاهر محتوى الحلم فى محاولة تحويل المحتوى الظاهر للحلم إلى محتواه الكامن والخفى.

والغرض من ذلك ذو أهمية بالغة، وذلك من أجل كشف المادة اللاشعورية التى تسببت فى ظهور مشكلات المريض. والخطوة الهامة فى عملية العلاج بالتحليل النفسى هى إخراج الأمور من معقلها الغامض إلى الوضوح حتى يمكن التعامل معها من خلال الواقع الحاضر، فالدوافع المكبوتة والرغبات والصراعات يجب أن تخرج وتصل إلى مستوى الشعور.

يستمر المحلل النفسى فى دوره مستمعاً ومتفهماً للمريض فى تداعياته الطليقة ومتصلا معه فى سرد أحلامه وتعبيراته، ويجب أن ينشأ بينه وبين المريض الثقة مهما كانت محتويات المشاعر، وعندما تبدأ المادة اللاشعورية فى الانفراج، عادة ما يبدأ المريض في المقاومة بصورة نمطية وذلك بالتحول إلى موضوع أخر، أو اتجاه جانبى فى الحوار، ومحاولة لتأجيل العلاج لجلسات متباعدة ونحو ذلك. تلك المقاومة من جانب المريض تبدو عندما يصل أثناء علاجه إلى مرحلة غير سارة وإلى دوافع خفية أو ذكرى على شفا الوصول للمستوى الشعورى، وحيث يمكن طرق القلق لبوابة الأنا، والتى إن حدثت تثير عائقاً أمام المادة القلقة والمزعجة للمريض، وتلك الحالة تعنى أن المريض "هو أو هى" لم يصل بعد إلى تقبل هذا الموقف العلاجى. وهناك سبب آخر للمقاومة قد يكون بسبب نفور المريض من كشف السبب الخفى لأعراضه العصابية. والأعراض التى تظهر مثل الصداع المستمر أو الإرهاق المزمن قد تخدم أغراضاً معينة للمريض، وعلى الرغم من أن هذا الأمر يعتبر غير مريح، إلا أنه يعتمد عذراً لتجنب المسئولية أو التصرف بطرق عدوانية، وعلى ذلك فإن المريض لا يتخلى عن تلك الأعراض المقاومة بسهولة.

وعلى المحلل النفسى أن يزيل المقاومات إذا استمر العلاج بتلك التعقيدات، وذلك بكشف ما هو أعمق وأعمق فى اللاشعور. والأسلوب المستخدم فى تفسير المقاومة، محاولة المعالج أن يفسر للمريض عدم معقولية مقاومته. والتوفيق مهم فى التفسير. فإذا قيل افعل هذا الأمر حالا فقد يؤدى ذلك إلى زيادة المقاومة، وقد يقدم المحلل للمريض تفسيرات مقبولة "حتى يعتقد شفاءه"، أو يتقبل ذلك على المستوى العقلى أكثر منه على المستوى العاطفى. ويجب أن يحث المريض ليتخلى عن مقاومته ليكتسب الاستبصار لديناميات الأعراض العصابية.

يتضمن العلاج بالتحليل النفسى، إلى حد ما، إعادة الحياة فى ماضى الفرد. فالمشاعر الطفلية والصراعات تنبثق عادة من أعماق اللاشعور، حيث الارتداد والنكوص، وبمجرد استرجاع الماضى تعاد مرة أخرى تلك الخبرات العاطفية القديمة والمريض يميل إلى إلقائها على المحلل نفسه، تلك العملية تسمى "Transference" وقد يرى المريض، أحيانا، المحلل النفسى كأب معاقب أو كأم مرغوبة أو كحبيب فيه إغراء وهكذا.

تلك الارتباطات العاطفية فى مرحلة نهاية العلاج بالتحليل النفسى، وأثناء عملية التحول، فإن المريض يمارس إعادة العلاقات ذات الخبرة الماضية واسترجاعها بوضوح من أجل حلها.

والتحول لا يظهر عادة بصورة واضحة ومباشــــرة، فمــن المحتمل ظهور عواطف المريض نحــو المعــالج بطــرق لطيفــة ومهذبة، وهنا يجب أن يكون المعالج حساساً لهذا اللطف، وعليــه أن يقدم للمريض تفسيراً لذلك فى الوقت المناسب، ويجــب أن يراقــب ويقف ضد "التحول المضــاد Counterinterference"، والــذى يعتبر رد فعل عاطفي للمريض، وعلى المحلل المعــالج أن يكــون قادراً دائماً على السلوك الموضوعى فى مواجهة القلــق والتفــاخر والنقد والغضب والتعبيرات العاطفية الصادرة عن المريض. وهنـاك متطلبات عامة أثناء التدريب على العلاج بالتحليل النفســى هــو أن المحلل الجديد يجب أن تجرى عليه عملية التحليل النفسى، أن يحلـل نفسه، حيث أن التحليل الشخصى للمحلل المقبل على عمله الجديـــد يؤدى إلى الإقلال من إمكانية اســـتحضار أو إظـــهار صراعاتـــهم الشخصية التى لم تحل أثناء الممارسة المهنية، ويجــب أن يحتفــظ بمسافة كافية بينه وبين المريض للسماح بتحليل نفسى دقيق ومعتنــى به، وناقداً لسلوكيات ليست عقلانية ومحبطة للنفس.

فيما يلى تلخيص لأسس وأساليب التحليل النفسى والعمليـات التى سبق عرضها:

"التداعى الحر أو الطليق Free Association"، و"تفســير الأحلام" تستخدمان لفحص "أو تفريغ" لاشعور المريض، وإذا قــاوم

المريض عادة لاشعورية غير سارة أو مسئوليات تظهره بأنه مذنب، عندئذ على المحلل النفسى أن يفسر ذلك السلوك غير العقلانى واللامنطقى، وسيمارس المريض التحول بانفعالاته وعواطفه السابقة نحو المحلل النفسى خلال موقف التحليل ويحول إليه مشاعره السابقة. تلك التحولات يجب أن تكون ذات دلالة أثناء العمل بمساعدة المحلل المعالج، الذى يجب عليه عندئذ تجنب التحول المضاد، أى عدم الاستجابة لهذا التحول العاطفى، والمطلوب لشفاء المريض ليس مجرد الاستبصار البسيط "هو أو هى" بل يجب التعامل مع المكونات العاطفية للمادة اللاشعورية والتى تظهر أثناء المقاومات "التحولات نحو المعالج".

عادة ما يكون التحليل النفسى عملية طويلة وشاقة، وغالباً ما تحتاج إلى عدة جلسات أسبوعية لسنوات قد تمتد. والمريض يقاسى أو يجتاز خبرة تعليمية ذات طبيعة عاطفية عميقة.

ولوصول المريض إلى الهدف يتطلب الأمر الاهتمام والأمانة والقدرة على التحكم وضبط الدوافع، وقدر كبير من العلاقات الشخصية المتداخلة والمؤثرة، وقدر أكبر من التقييم والتقدير الحقيقى للأمور، والقدرة على تقبل ما لا يمكن تغييره، فليس الهدف الوصول إلى السعادة المجردة أو الكاملة، فحالة الإنسان وظروفه لا تسمح بذلك، أو تحقق ذلك. ويجب أن نتعلم

قبول حالات ضعف معينة ومحدودية فى أنفسنا وعند الآخرين.
والشخص الذى يمتلك ذات "أنا" قوية بما فيه الكفاية يمكنه ذلك ويعمل العلاج بالتحليل النفسى من أجل تقوية الأنا.

الفصل الثانى

سكينر والمدرسة السلوكية الراديكالية

مقدمة الفصل الثانى

سكينر(١٩٠٤- ١٩٩٠) Skinner, Burrhus Fredric

هو عالم النفس السلوكى الأمريكى. الذى يعتبر ثانى أعلام مدرسة علم النفس السلوكى بعد واطسون، منشئها ومؤسسها. كما يعتبر سكينر أكبر مجدد فى اتجاهها وأهمهم. فهو من رواد المدرسة السلوكية الجديدة، التى بث فيها الروح، ونفض عنها كثيراً من جمودها وميكانيكيتها فى النظر إلى السلوك الإنسانى، فأعطاها شيئاً من الدينامية، ورد بعض الاعتبار إلى العوامل الداخلية والذاتية والإنسانية الدافعة للسلوك البشرى بعد أن تجاهلتها، وكادت تتكرها السلوكية التقليدية، عن طريق تقديمه مفهوم التشريط الإجرائى.

ولد سكينر أو السلوكية الجديدة فى ٢٠ مارس ١٩٠٤ فى مدينة "سسكيهانا ببنسلفانيا" بالولايات المتحدة الأمريكية، من أب محام علم نفسه بنفسه، فلم يلتحق لدراسة القانون بأى جامعة، وإنما قضى عاماً واحداً بمدرسة قانون قبل أن يجتاز الاختبار النهائى ليصبح قانونياً. وكان الأب موهوباً فى الخطابة ومتحدثاً ممتازاً سواء أكان ذلك فى ساحة القضاء أو فى الاجتماعات السياسية، حيث كان من أنصار الحزب الجمهورى. كما أنه ألف كتاباً ذا قيمة كبيرة فى قانون التعويضات العمالية. أما أم سكينر، فكانت شديدة

التمسك بالتقاليد الاجتماعية والمعتقدات فتعلم سكينر منها أن يخـــاف الله والبوليس، وأن يعطى لرأى الناس وما يظنونه أهميـــة كبـــيرة، ولهذا فإنه كما يؤكد عن نفسه كان يعمل ما يجب عليه عمله بـــدون مقاومة.

وفى صغره أبان عن استعدادات موسيقية وفنية كبيرة، كمــا أبان أيضاً عن موهبة فى وضع تصميمات ميكانيكية وفنية وتشكيلية مبكرة، وقام بتنفيذها بدرجة عالية من الإتقـــان والكفـــاءة. وكـــانت طموحاته الأولى أدبية: شعراً ونثراً، حتى أنه قد طبع له شعر فـــى سن العاشرة بعنوان "هذا الرفيق المتشائم" مما يشير إلى نضج عقلى وفكرى وفنى مبكر. ولذا فإنـــه التحـــق فـــى عـــام ١٩٢٢ بكليـــة هاميلتون، حيث حصل منها على بكالوريوس فى اللغة الإنجليزيـــة وآدابها، وارتفع طموحه فى شكل مستقبل أدبى، حيث كـــان يكتـــب بانتظام لمجلة الكلية، والمجلة الأدبية، ومجلة هـــاميلتون الفكاهيـــة تحت اسم مستعار هو "السير بوردس دى بيرس".

وبعد تخرجه عاد إلى منزل أبويه منتوياً تركـــيز مســـتقبله المهنى وتخطيطه على أن يكون كاتباً أدبياً، وبخاصة فـــى مجـــال الرواية، لكن جو المنزل لم يكن سوياً آنذاك، حيث كان والده يعـــانى من ظروف الفشل مما أصابه بحالة من الاكتئاب، كمـــا أن ســـكينر أحس بالعزلة والوحدة بعيداً عن الأصدقاء والزملاء فى هـــاميلتون.

وكان الأهم من هذا كله أنه بخلوته هذه إلى نفسه وتقليب الرأى بينه وبين نفسه أدرك أنه ليس عنده ما يقوله أو يكتبه، بل ليس عنده أصلا سبب يجعله يكتب، مما أذمه ذلك كثيراً، وانتوى لهذا أن يذهب إلى معالج نفسى، حتى أنه أطلق على هذه السنة التى أعقبت تخرجه من كلية هاميلتون وقضاها فى منزل والديه "سنته المظلمة his Dark year".

لكن من حسن حظه، أن اتجه تفكيره إلى دراسة علم النفس مدركاً أن الأدب ليس وحده القادر على إجلاء الحقيقة وإظهارها. إذ أن تلك هى أمنيته وهدفه. بل هناك أيضاً علم يمكنه من ذلك، ذاك هو علم السلوك أو علم النفس، خاصة وأن سكينر لاحظ من قراءاته فى النقد الأدبى أن الأديب كثيراً ما يصف صوراً أدبية أو يرسم أشخاصاً تسلك، فى غاية الدقة والصدق، دون أن يكون واعياً أو مستشعراً بالعوامل التى أدت إلى الموقف فى الصورة التى وصفها، أو بالأسباب الحقيقية التى جعلت أشخاصاً تسلك بهذه الكيفية، مما أدى به إلى إدراك أن النظرة العلمية للسلوك هى وحدها التى يمكن أن تهيئ لنا هذا الاستبصار الدقيق، وهذا الفهم المطلوب. وكان سكينر قد قرأ فى هذه الفترة كتاب واطسون الهام "السلوكية"، حيث تأثر به كثيراً ووجد فيه ما يؤيد رؤاه، كما وجد فيه أيضاً ما يمكنه من تفسير كثير من السلوك الغريب والمحير سواء عند الحيوان أو

عند الإنسان، وهو أمر كان يستحوذ كثيراً على شخص مثل سكينر يتمتع بمواهب فنية وإبداعية وعلمية كبيرة.

وهكذا قرر سكينر أن يتخصص فى علم النفس، وأن يقوم بدراسات عليا فيه، فتقدم فى عام ١٩٢٨ إلى جامعة هارفارد، إذ كان للاتجاهات السلوكية فى علم النفس نفوذاً كبيراً فى هذه الجامعة، حيث قدم تحت إشراف "إدوين بورنخ" رسالة للماجستير فى عام ١٩٣٠، ورسالته للدكتوراه فى عام ١٩٣١. وبقى بالجامعة يعمل زميلاً باحثاً ومساعداً حتى عام ١٩٣٦. وتصادف فى عام ١٩٣٢ أنه كان يقدم أول بحث له إلى مؤتمر جمعية علم النفس الأمريكية (A P A) فى هذا العام، وكان بحثه فى أواخر المؤتمر، فخشى ألا يحضر أحدا لسماعه، حيث لم يكن معروفا فى هذا الوقت، إلا أن من حسن حظه أن "ريتشارد أليوت" رئيس قسم علم النفس بجامعة "مينوسوتا" كان حاضرا أثناء إلقاء سكينر لبحثه، وأعجب بما جاء فيه، وتعرف عليه. وفى عام ١٩٣٦ قدم له وظيفة بجامعة "مينوسوتا".

وفى عام ١٩٣٩ حصل على درجة أستاذ مساعد "مشارك" فى الجامعة. ثم انتقل من جامعة "مينوسوتا" عام ١٩٤٥ ليصبح أستاذا ورئيسا لقسم علم النفس بجامعة "إنديانا" حتى عام ١٩٤٨. ثم رجع إلى جامعة "هارفارد"، حيث بقى بها حتى نهاية حياته.

وكان سكينر قد نشر عام ١٩٣٨ كتابه الشهير "سلوك الكائنات الحية" حيث قدم فيه "التشريط الإجرائى"، فبدأت بسببه جامعة "إنديانا" منذ عام ١٩٤٦ عقد اجتماعات سنوية عن التحليل التجريبى للسلوك، مما أدى بعد عقد من الزمان، إلى إنشاء مجلة "التحليل التجريبى للسلوك"، وإلى تخصيص قسم "للتحليل التجريبى للسلوك "بجمعية علم النفس الأمريكية.

هذا، ومن أهم اختراعات سكينر ذلك التصميم الذى قام به وهو عبارة عن صندوق يعرف باسم صندوق سكينر، صممه واستخدمه في دراساته التجريبية عن التعلم. كما صمم بعض الآلات والأجهزة التى تساعد على التعليم المبرمج، الذى كرس له مقالته المنشورة عام ١٩٥٨ عن "التعليم المبرمج"، حيث كان من أوائل الداعين له والمتحمسين لنشره. ولعل نجاحه فى هذه الاختراعات والتصميمات الهندسية، هو امتداد عملى لشغفه بالاختراعات والتصميمات المبتكرة منذ طفولته.

وكنتيجة لاهتمامات سكينر الأدبية؛ فقد كتب رواية بعنوان "والدن الثانى" " Walden Two" نشرتها له مؤسسة ماكيلان عام ١٩٤٨. ويصف فيها مجتمعاً طوباوياً مبنياً على أساس من نظرته فى التشريط الإجرائى. كتب "شارلز كاتانا" فى تعليقه على هذه الرواية "ولم تحظ روايته المثلى، أو اليوتوبيا" المعروفة باسم

"والدن الثانى" إلا بالقدر اليسير من الملاحظة إذا قارناها بالاهتمام المتزايد بأبحاثه التجريبية. وبعض النقاد الذين انتقدوا فيما بعد خصائص المجتمع المخطط الذى تحدث عنه فى تلك الرواية غاب عنهم ملاحظة أن الطبيعة التجريبية لذلك المجتمع لابد من تعديلها وتطويرها حتى يتم الوصول إلى بديل أفضل".

ولعل أهم فكرة توصل إليها سكينر فى بحوثه وتجاربه كما يشير "برونو Bruno": هى أن السلوك يتشكل تبعاً للنتائج التى يجنيها القائم بالسلوك نفسه. فنحن نقوم بالأعمال والأنشطة ومختلف مظاهر السلوك التى نستفيد منها، والتى تمثل ربحاً وكسباً لنا. كما نتوقف عن العمل الذى لا نحصل منه على فائدة أو ربح.

أما أهم مؤلفات سكينر وأكثرها قيمة، فيمكن أن نذكر منها علاوة على ما سبق أن ذكرناه:

"العلم والسلوك الإنسانى" ١٩٥٣، و"السلوك اللفظى" ١٩٥٧ "وشروط التعزيز" ١٩٦٨ "وما وراء الحرية والكرامة" ١٩٧١، "وحول السلوكية" ١٩٧٤. هذا وفى مراجعة عام ١٩٧٠ لكتاب "أعظم مائة شخص مهمين فى العالم اليوم" كان سكينر أحدهم.

وفى العاشر من شهر أغسطس عام ١٩٩٠ ألقى سكينر كلمة الافتتاح للمؤتمر السنوى لجمعية علم النفس الأمريكية،استغرقت حوالى خمسة عشر دقيقة أمام جمهور يقارب

ألفا وخمسمائة شخص. وقد علق "ستانلى جراهام" رئيس الجمعية بأن البعض قد ظن أن سكينر كان يقرأ الكلمة مكتوبة، لوضوحها وتماسكها وقوة منطقها وطلاقتها، إلا أنه فى الواقع كان يرتجلها. وبعد ذلك بثمانية أيام "١٨ أغسطس ١٩٩٠" مات سكينر من مضاعفات مرض فى الدم. وفى كلمة الوداع التى كتبها "ريموند فولر" عنه فى مجلة علم النفس الأمريكية عدد أكتوبر ١٩٩٠ أشار إلى أن البعض يظن أن خطاب سكينر الافتتاحى فى مؤتمر الجمعية كان آخر هدية قدمها للجمعية، إلا أن ابنته الأخصائية النفسية "جولى فرجاس" قد اتصلت به لتخبره بأن والدها ظل يعمل حتى آخر الليلة السابقة على وفاته ليستكمل مخطوطة متعلقة بموضوع كلمة الافتتاح التى ألقاها فى المؤتمر لكى تنشرها مجلة الجمعية المسماة "American Psychologist" مما جعل "فولر" يحس بالفخر لأن سكينر اختار مجلتهم لنشر عمله الأخير، وبالفعل فقد تم نشرها فى عدد نوفمبر من هذه المجلة تحت عنوان: "هل يمكن لعلم النفس أن يكون علما للعقل؟"

Can psychology Be science Of mind?

أ.د/ فرج عبد القادر طه المرجع السابق

الفصل الثانى

سكينر

ب.ف سكينر والمدرسة السلوكية B.F. Skinner and Radical Behaviorism

* تاريخ حياة سكينر

ولد "برهس فردريك سكينر "Burrhus.F. Skinner عام ١٩٠٤ فى "سسكيهانا ببنسلفانيا" بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث نشأ فى بيئة أسرية دافئة ومستقرة. كان والده يشتغل بالمحاماة، ووالدته، كما قال، "متأنقة وجميلة" ،وحاسمة بشدة وحزم فى الحق. وأثناء نشأته كان يهوى كثيراً فك وتركيب العجلات والعربات واللعب ونماذج الطائرات الصغيرة، حتى أنه حاول تصميم طائرة شراعية ولكنها فشلت فى الطيران بسبب عدم توقف المحرك.

وبعد إنهاء الدراسة الثانوية، التحق بكلية "هاميلتون Hamilton college"، "وهى مدرسة صغيرة للفنون الحرة فى مدينة نيويورك"، وهناك تفوق فى اللغة الإنجليزية والتحق بالعمل كمدرس مع أسرة حيث تفوق فى الموسيقى والفن والكتابة "وفن الحياة". كما اندمج فى أنشطة وأعمال ترتب عليها مشكلات

بالاشتراك مع زملاء الدراسة كانت نهايتها تعرضه للتأنيب من مدير الكلية.

حاول سكينر أن يدرس ليصبح كاتباً ومؤلفاً حيث قضى حوالى عامين فى مسعاه، وأثناء وجوده فى قرية "جرينونش" لمدة ستة أشهر، وفي أوروبا فى فصل الصيف، ولما لم يجد كتاباته ناجحة من الناحية العملية، التحق سكينر بجامعة "هارفارد" وابتدأ فى دراسة علم النفس. وبعد حصوله على درجة الدكتوراه عام ١٩٣١، بقى فى "هارفارد" لمدة خمس سنوات فى عمل الأبحاث. ثم حصل على درجة التدريس من جامعة "مينوسوتا". وفى عام ١٩٤٥ أصبح رئيساً لقسم علم النفس فى جامعة "إنديانا"، وفى عام ١٩٤٨ عاد إلى "هارفارد" فى وظيفة أستاذ. وتزوج عام ١٩٣٦ وله من زوجته ابنتين. وكان أول كتاب هام نشر له هو "سلوك الكائنات The behavior of orgaisms" عام ١٩٣٨. ومن أعماله التالية كتاب "Waldent two" عام ١٩٤٨، "Science and human behavior" ١٩٥٣ "Verbal behavior "عام ١٩٥٧.

"The technology of Teaching" عام ١٩٦٨.

"Contingencies of Reinforcement" ١٩٦٩.

"Beyond Freedom and Dignity" ١٩٧١.

"About behavior" ١٩٧٤.

المدرسة السلوكية Radical Behaviorism

يعتبر ب.ف سكينر خليفة ومعاصراً لـ "جون.ب. واطسون John B. Watson" منشئ علم النفس السلوكي. ففي عام ١٩١٢ بدأ واطسون كأستاذ في جامعة "هوبكينس" في عرض وجهة نظره عن دراسة الإنسان أثارت انتباه المشتغلين بعلم النفس، وأهم كتبه نشر عام ١٩١٩: "علم النفس من الناحية السلوكية"، وكان متحمساً في رؤيته بأن علم النفس يجب ألا يكون علماً للعقل، وإنما هو علم للسلوك. وأشار إلى رفضه وعدم تحمسه لعلماء النفس في فحص الشعور ووسائل الاستبصار التي كانت تستخدم في ذلك الوقت، وانتقد أيضا تعقيدات وتفسيرات التحليل النفسي للسلوك الإنساني.

وكان "واطسون" إلى حد كبير بيئي أي شديد الاعتقاد بتأثير البيئة على الإنسان، وأنه قادر على أن يتولى أمر طفل جيد الصحة ويجعل منه، مهما كانت رغبته، طبيباً، أو محامياً أو فناناً. متسولا أو لصاً. عن طريق وضعه في البيئة المناسبة. كما اعتقد واطسون أن الإنسان يتشكل "مما يتعلمه"، وتؤثر فيه الأحوال المحيطة به، ليصبح ما هو عليه. ولفهم الإنسان، يرى واطسون ويؤكد أنه على علم النفس إلقاء الضوء على الأحوال والظروف القابلة للملاحظة دون فقدان رؤية ما بالداخل والحالات غير الملحوظة من العقل.

من ناحية أخرى لابد لعلم النفس أن يلاحظ ويراعى الظـــاهر مـــن السلوك والأحوال المحيطة بالإنسان دون الاستغراق فى الأعمـــاق والأمور غير القابلة للملاحظة من العقل البشرى، على اعتبـــار أن علم النفس يجب أن يكون موضوعياً ويتجنب السقوط فى محـــاولات ومداخل ذاتية.

وبمعنى واضح أن جميع المشتغلين بعلم النفس ينتمون إلـــى المدرسة السلوكية لأنهم يهتمون بملاحظة السلوك ويصلـــون إلـــى نتائجهم من خلال ملاحظاتهم. حتى المشتغل بالتحليل النفسى فـــهو أيضا يفعل ذلك، حيث أن المريض،"هو أو هى"، يحلم "بســـلوكيات لفظية". ومن ثم، ومن خلال تلك السلوكيات يســـتطيع المحلـــل أن يستنتج وأن يستدل عما يحدث فى عقل المريض. وعلى ذلك يتمسك أصحاب النظرية السلوكية بشدة بحقـــائق ومظـــاهر الســـلوك فـــى أنفسهم. فهم يحاولون أن يرون فقـــط الحـــالات الســـلوكية القابلـــة للملاحظة ومحاولة تفسير أسبابها، والعلاقـــات المؤثـــرة بالإشـــارة أو الرجوع إلى تلك العوامل الموضوعية دون التســـليم أو الاكتفـــاء والادعاء بالدوافع الداخلية والمشاعر، أو القرارات إلخ. وهذا الفكـــر يسجل تناقضاً واضحاً مع المحلل النفســـى الـــذى، بعـــد ملاحظـــة السلوك اللفظى للمريض ينتقل إلى مرحلة التفسير لما هو لم يحـــل

بعد من عقدة أوديب، ومقاومة الأنا الأعلى، والدوافع الغريزية أو الصراعات أو القوى الفاعلة "الديناميات النفسية الداخلية".

كما أن عدداً من علماء النفس المعاصرين يعتبرون سلوكيين معتدلين يأخذون موقفاً وسطاً عندما يحاولون تفسير سلوك الإنسان ووظائفه، حيث يميلون لإدخال عمليات داخلية تحدد سلوك الفرد مثل الاتجاهات، عمليات التأمل، والدوافع، إلى جانب ما يلقونه من ضوء على ما محددات المجتمع والبيئة الطبيعية. ولم يكن ب.ف. سكينر ضمن هؤلاء. إذ أنه ورفاقه كانوا أصحاب مدرسة سلوكية راديكالية " Radical behaviorists"، يصرون بشدة على أن الأحوال البيئية هي التي تضبط وتحكم الإنسان، حيث يمكن البحث عن تلك الظروف بصورة موضوعية وشروح مفصلة. وأصحاب النظرية السلوكية لا ينظرون إلى دخيلة نفس الفرد كبيان للسلوك. كما ينكرون ضرورة فحص ما استقرت عليه الافتراضات العقلية أو الدوافع الداخلية لأغراض تفسيرية أو تحليلية، فهم يتبعون المسار السلوكي البيئي الذي بدأه "جون واطسون" مستبعدين الاستبطان العقلي الداخلي. في هذا الاتجاه أو هذا المسار أنشأوا أساليب بحثية مركبة ومتقدمة، معتمدين في ذلك على جمع كمية كبيرة من البيانات العلمية وعدد هائل من القواعد الدالة على السلوك. يمكن ملاحظتها بمختلف تفاصيلها الهامة التي تدعم فكرة

رئيسية مؤداها أن تصرفات الإنســـان يمكـــن أن تضبــط وتحـــدد بالظروف التي يمكن تناولها ومعالجتها موضوعياً.

الحتمية الراديكالية (الجذرية):

Radical Determinism

ولأن سكينر راديكالي في نظريته الســـلوكية فإنـــه أيضـــاً حتمـــي النظرة، فهو يؤمن بحتمية السلوك بصورة قاطعة، ويعترف بفكــــر فرويد الحتمي في علم النفس الغربي: لأن فرويد أكـــد أن ســـلوك الإنسان حتمي وليس عشوائي "بالصدفة" أي له صفة الحتميـــة، لأن كل شيء نفعله له أسبابه الخاصة، ومن هذا الموقف يتفق "ســـكينر" مع "فرويد". ورغم هذا الاتفاق فإنه ينتقد "فرويد" مشـــيراً إلـــى أن تفسيرات نظرية التحليل النفسي تبدو كثيراً مشوشة بســـبب إدراج أو إدخال بعض المفاهيم العقلية بين السلوك والحـــدث المسـبب لـــه. فمثلا: قد يعاقب الأب ابنه الصغير بسبب ممارسته للعـــادة الســرية مسببا للولد مشكلات فيما بعد في سلوكه الجنسي. وبالنسبة "لسـكينر" فإن العلاقة بين السبب والتأثير "النتيجة" تحتاج إلـــى الربــط بيـــن حادث العقاب والسلوك الجنسي المريض. لماذا نربط العلاقة بيـــن المشكلة الجنسية بالقلق أو الذنب؟ وما الذى نجنيه من إدخـــال تلـــك المفاهيم؟ يرى "سكينر" أن تلك أفكار مشوشـــة ومضللـــة، تحـــول الانتباه بعيدا عن السبب الحقيقي: العقاب.

وما هو أخطر من ذلك، أن تلك المفاهيم مثل الذنب والقلق قد تأخذ دورتها بأهمية بالغة وحقيقة ملموسة. وقد تستخدم لتفسير السلوك مما يترتب عليه تجاهل الظروف البيئية الحقيقية. ويرى "سكينر" أن مثل تلك المفاهيم الفرودية "خيالات تفسيرية "Explanatory" Fictions"، وأنها تستخدم لأغراض تعليلية ولكنها فى الواقع لا تفسر شيئاً.

ولم يقدم سكينر خلفية للتركيبات العقلانية عند اقترابه العلمى لعلم النفس. ولكنه اتخذ قاعدة حتمية حادة مكلفاً نفسه بحث الأسباب القابلة للملاحظة فى البيئة وتأثيرها على السلوك. ويرى سكينر أنه لا مكان للعلم فى افتراض أن سلوك الإنسان يحكمه "اختيار الفرد" كما كانت تلك العبارة تستخدم. ولكنه كان يقف ضد تلك المفاهيم التقليدية عن الإنسان ككائن حى له القدرة على تقرير مصيره وقدره. كما أن سلوك الفرد "شخصيته أو شخصيتها" لا تحدد بالأحداث الماضية أو الحاضرة فى العالم الموضوعى الذى "هو أو هى" جزء منه، ولكن، وفى المقام الأول، تحدد بالبيئة التى لها الأهمية الأولى.

الجدير بالذكر أن سكينر لم ينكر إسهام العوامل الفطرية والوراثية فى المظاهر السلوكية. فنحن نولد ومعنا صفات وراثية جينية "تناسلية" محددة. وعلى الرغم من أنه يؤكد على دور البيئة

فى حتمية تحديد تلك الصفات، مفترضاً أن "الظروف هى التى تتيح للإنسان البقاء" وهى التى تحدد ماهية الوراثة للأنواع، "بمعنى أن البيئة تقوم باختيار السلوكيات التى تسمح للنوع بالبقاء". فإذا بقيت الأحوال البيئية لفترة طويلة، فهؤلاء الأفراد، من الأنواع الذين يسلكون بطرق معينة تسمح لهم بالبقاء فى تلك البيئة، سيبقون وسيستمرون فى النوع، وبهذا المفهوم فإن الأجناس البشرية تمتلك صفات جينية معينة. ولكن يجب أن نتذكر، وبالرغم من ذلك، أن البيئة تستمر فى التحكم وفى ضبط تلك العملية.

ويحذر سكينر من ربط سلوكيات معينة" بالغرائز " لأن ذلك التفسير يميل إلى إنكار الدور المباشر للبيئة. كما يحرص على الإشارة السريعة إلى أن سبب سلوك الشخص يرجع إلى مواهب طبيعية جينية، فقد يرجع ذلك إلى أحوال خاصة تعرض لها الفرد خلال مراحل حياته "هو أو هى".

إن تأثيرات الأحداث المختلفة التى يتعرض لها الإنسان خلال حياته لها أهمية خاصة فى علم النفس السكينرى. وتؤكد تلك التأثيرات بأن معرفة العلاقة بين تلك الأحداث وبين النتائج السلوكية ستسمح بتحديد مناسب لنمط حياته. ويقرر "سكينر" بقوة بأن دور علم النفس هو فحص تلك العلاقات، حتى فى حالة وضوح وتحديد العوامل الجينية ومعرفة عمليات وظائف الجهاز العصبى بالتفصيل

"والتي يراها "سكينر" عمليات كثيرة وذات دلالات للبحث"، والتـــي لا تحتاج إلى إجراء تحليل علمي لردود فعل البيئة الخاصة بـــالفرد على سلوكه "هو أو هى". هذه النتيجة تصبح ثابتة لأنه من الممكـــن أن تتغير بيئة الفرد بصورة تامة أكثر من تكوينه الوراثـــي "علـــى الرغم من أن المعالجـــة الوراثيـــة أو التناسـلية تـــزداد توقعاتـــها واحتمالاتها"، وعلى ذلك فإن تأثير التغيرات فـــي سـلوك الإنســان تحتاج إلى دراسة العوامل البيئية المتغيرة.

وباختصار، أوضح سكينر أن التكوين الوراثـــي التناسـلي وتاريخ الشخص مسئولان عن سلوك الإنســـان، ولكـــن دراســاته ركزت على السلوك من خـــلال تـــأكيده علـــى تـــأثيرات الواقـــع "الموضوعية" والأحوال القابلة للملاحظة فى البيئة. ويعتقد "ســكينر" أن المعرفة الكاملة للتكوين الوراثي والأحوال البيئية تســـمح بتنبـؤ كامل "ومراقبة Control" سلوك الإنسان. فإذا تتبعنا منهج "سكينر" فإن معرفة تأثير الوراثة والبيئة يجب أن نتتبعها بقوة، ويجـــب فـــى هذه الحالة البعد عن المفاهيم المغرقة فى العقلانيـــة لأنـــها تعـــوق التطور الطبيعى العلمى لفهم سلوك الإنسان.

مصادر البيانات: Sources of Data

تطورت أفكار سكينر وتدعمت بالعمل التجريبى. وقد قـــاد هو ورفاقه دراسة تلى الأخرى تحت ظروف محكمة فـــي أحـــوال

معملية منضبطة. مستخدماً نماذج من الحمام فـــى المعمـــل فـــى محاولات لجمع بيانات ذات صلة بالعمليات الاشـــتراطية. كمـــا أن أسس السلوك المرتبطة بتفكير "سكينر" كان يمكن استنباطها مباشـــرة من نتائج تلك الدراسات. مع التأكيد المستمر على جمـــع البيانـــات الكمية المحكمة والدقيقة.

وما يسمى صندوق سكينر "لفظ يعنى أن سكينر نفســـه لـــم يصادق على أو يوقع على طريقة ويعتمدها ولكنه يفضل أن يســـميها جهاز لأحوال مؤثرة وفعالة"، مقدماً وسائل واحدة لنمط الملاحظـــة، والتى تعتبر جوهر وقلب النظرية السلوكية الراديكاليـــة. وتتكـــون الأداة من حجرة صغيرة حيث يعزل بداخله حيوان ما عـــن البيئـــة الخارجية ويصبح موضوعاً لأحوال بحثية تجريبية معينة يضبطـــها صاحب التجربة. كما أن هذا السلوك النموذجى فى دراسته هـــى أداة ضاغطة "تجارب الفئران أو مفتاح النقر بواسطة الحمـــام"، ولفـــظ "مفتاح" هنا يشير إلى حيلة أو أسلوب بمعنى أنه عندما يحدث ضغط كاف، يخرج وعاء الطعام، وعادة ما تسجل الاســـتجابات بطريقـــة

ميكانيكية كهربائية، وتتم مستويات الاستجابة تحت ظروف وأحوال مختلفة تقدم لنا بيانات ذات أهمية أولية[١].

فمثلا قد يهتم القائم بالتجربة بملاحظة معدل تغيرات الاستجابة عند تقديم بعض المكافآت أو، وبصورة أكثر فنية، "تعزيز" مثل تقديم طعام، مختلف، أو مؤثر/ منفر، أو مثل صدمة كهربية وملاحظة استجابة الحيوان.

عند تلك النقطة قد يسأل "ماذا يمكن أن تفعل تلك الدراسات بالنسبة لسلوك "الإنسان"؟ بعد كل ذلك فنحن لسنا منعزلين عن العالم الحقيقي، وأن معظم سلوكياتنا الهامة والتى تثير اهتمامنا لا تقدم أداة ضاغطة أو تؤدى مثل تلك الاستجابات البسيطة. والإجابة على هذا السؤال نجدها فى ملاحظات اكتشفها سكينر ورفاقه فى دراساتهم المعملية مع حيوانات أدنى ثم تطبيقها على الإنسان. ومثل

---

[١] استخدام كلمة معدلات الاستجابة كبيانات أساسية بعكس رؤية سكينر بأن ادعاءات متعددة قيلت حول الكائن الإنسانى وأيضا الحيوانات الأدنى- قامت على تردد أداء أفعال خاصة. فمثلا عندما نقول أن شخصا ما لديه عادة خاصة أو اتجاه أو أنه أو أنها "متحمس" أو مهتم بشدة، فإننا عندئذ وبصفة عامة نؤسس ونضع تلك العبارة للملاحظة بأن هذا الشخص يسلك فى أغلب الأوقات وكثيرا بطرق معينة. عندئذ يصبح من المحتمل دراسة أحوال التغيرات المؤثرة على معدل أداء السلوكيات المختلفة.

تلك التطبيقات سميت بعبارات مختلفة متضمنة "تعديل السلوك"، و"هندسة السلوك"، و"تحليل السلوك التطبيقى".

وقد تم تطبيق قواعد سكينر التجريبية بكفاءة في بعض المجالات مثل: (١) أداء الطلبة، فقد كان "سكينر" رائداً فى تطوير التدريس المبرمج، تعلم الميكانيكا، وغيرها من التجديدات فى مجال التعليم". (٢) التعامل مع الأطفال الغارقين فى الخيال والمتخلفين والمرضى العقليين. (٣) الإدارة الصناعية.

وقد يرد سؤال آخر: لماذا لا نبدأ بدراسة الإنسان بدلاً من إجراء بحوث على الحيوان مثل الفئران والحمام؟

ويجب أن نشير أن عدداً من الدراسات قد أجريت على المستوى الإنسانى، فقد تمت جهود معرفية لم تكن محصورة على استخدام حيوانات أدنى. وعلى الرغم من ذلك فإن البساطة النسبية بالنسبة للكائنات الأدنى يمكن أن يحكمها ويضبطها القائم بالتجربة إلى حد بعيد أكثر منها إذا كانت التجربة على الإنسان مما جعلها الاختيار الأساسى للمشروعات البحثية.ومع أن البعض يعترض على وضع أسس السلوك من خلال تجارب المعامل المصطنعة، خاصة إذا استخدمت الحيوانات، إلا أن هذا النقد يفقد قوته عندما تختبر صدق تلك القواعد على أرض الواقع ومواقف الحياة الحقيقية. كما أن دراسة الاستجابات البسيطة نسبياً للحيوانات الأدنى، برعاية تامة

وأحوال مضبوطة كثيراً ما تسمح بتكوين قواعد أساسية للسلوك، والتى يمكن تطبيقها واختبارها على المستوى الإنسانى فى العالم الحقيقي. وهذا ما فعله "سكينر" ورفاقه كثيراً وبنجاح عظيم.

وفى كتاب سكينر "النقد الاجتماعى" عام ١٩٧١. و"ما وراء الحرية والكرامة Beyond Freedom and Dignity"، يذهب "سكينر" بعيداً أيضاً ليقترح تغيرات عنيفة يرى أنها ضرورية ولازمة في بقاء مجتمعنا وازدهاره. ولكى توجد تلك التغيرات فى مؤسسات مجتمعنا وممارساتنا الاجتماعية تحت أحوال معتنى بها ومنضبطة، وحتى تسمح بتأثيرات يمكن قياسها، يجب وضع اختيار مهم لقواعد سكينر بصفة عامة. إلا أن تلك الإمكانية بعيدة الاحتمال.

السلوك الاستجابى: Respondent Behavior

نأتى الآن إلى ما هو أكثر تحديداً حول القواعد التى طبقها سكينر فى تحليلاته للسلوك. إنه يميز بين فئتين عامتين من السلوك: "الاستجابية Respondent"، و"الفاعلية Operant". وسوف نناقش فى هذا الفصل باختصار السلوك الأول، أما السلوك الثانى فهو ليس ذو أهمية بالنسبة لعلم النفس السكينارى وسوف نناقشه فيما بعد.

إن عبارة "استجابة" تشير إلى نمط خاص من السلوك المثار بنوع خاص من البواعث. وهو يدل علـــى نمــط انعكاســى مــن الاستجابة، وأن المثيرات تؤدى إلى السلوك. فمثلاً أى تغيـــير فـــى شدة الضوء تسبب "انعكاس Papillary"، غلق العين، واندفاع شديد للتيار الهوائى الموجه للعين يؤدى إلى "انعكاس" فتح وغلق العيـــن، كما أن الطرق على الركبة يؤدى إلى انعكاسها الحركـــى، ولمــس سطح حاد يؤدى إلى انعكاس انسحابى. ومثال آخر، مألوف لجميـــع المشتغلين بعلم النفس وبعض الناس العاديين، نجده فى تجارب إيفان بافلوف مع الكلاب. ذلك المشهور فى علم النفس الروسى ومعروف فى دراساته فى عام ١٩٠٠ عن عمليـــات الارتبـــاط الاشـــتراطى الكلاسيكى، فقد استخدم سكينر مفهوم " الاستجابة الشرطية" بدلاً من "الارتباط الشرطى" الكلاسيكى، والتى كانت شائعة الاستخدام مـــــن غير السكيناريين. وأساساً لملاحظات بافلوف، حقاً أن وضع الطعــلم فى فم الكلب يجعله يسيل لعابه "تلك الانعكاسة المؤدية إلـــى إســالة اللعاب هى استجابة سلوكية فى مفهوم سكينر". إلا أنه عندما يتكــور تقديم الطعام مع بعض المثيرات المادية الأصليـــة، مثـــل صـــوت

جرس، فإن الكلب يبدأ فى إسالة لعابه مع صدور صـــوت الجـــرس وحده وبدون تقديم طعام. وعلى ذلك تحدث الاستجابة الشرطية[٣].

وبطبيعة الحال إذا تكرر صوت الجرس عدة مرات ولكـــن بدون الارتباط بتقديم الطعام، فإن استجابة إسالة اللعاب تقل تدريجيا حتى تختفى تماما. تلك العملية تسمى "انطفاء Extinction."

تصور دراسة قام بها "جون واطســـون John Watson" و"روسالى راينز Rosalie Rayner: Journal of Experimental Psychology, Vol. 3 Feb 1920"، أن البافلوفيين أصحاب قواعد الارتباط الشرطى طبقوا نظريتهم علـــى الإنسان مثلما طبقت على الحيوان تعلمـــا. فقـــد طبقـــوا النظريـــة الشرطية على طفل عمره ١١ شهر أسمه ألبرت للخوف مـــن فـــأر أبيض وذلك بتكرار تقديم الفأر فى نفس وقت إصدار صوت عـــالى "وذلك بالطرق بشدة على قضيـــب صلـــب" فقـــد عرفـــوا مســـبقا،

---

[٣] فى المصطلح الفنى الشائع عن الشرطية التقليدية، يسمى الطعام مثير غـــير مشروط فى أنه يعتبر استجابة غير شرطية لإسالة اللعاب. إن افـــتراض أن هذا أمر فطرى أكثر منه متعلم أو مكتسب، ارتباط بين الإثارة والاســتجابة. إن الإثارة الطبيعية الأصلية، الجرس، تسمى، إثارة مشروطة لأنها فى آخر الأمر تعتبر، بذاتها الاستجابة المشروطة لسيل اللعاب. هذا الارتباط متعلـ أو مكتسب.

بالاختبار بأن الصوت المرتفع يثـــير رد فعـل الخـــوف "سـلوك استجابى" عند ألبرت. ومع مصاحبة الصوت العالى والفأر الأبيـض "حيث لم يظهر الصبى خوفا مبدئيا" فإن الفأر الأبيض فـــى النهايـة تثار لديه استجابات الخوف.

"هذا اختلاف معملى واضح بين الاستجابة الشرطية للطفل "الإنسان" واستجابة الفأر "الحيوان".

أيضا ظاهرة تسمى "تعميم تنبيهى Stimulus generalization".

فإن ألبرت لم يحقق خوفا من الفأر الأبيض، ولكنه اكتشـف خوفـا اخر بحضور مثير مشابه، مثل ظهور أرنب، أو كلـب أو بـالطو فرو.

ولهذا الكشف دلالة هو أن الخبرات المتعلمة قد تؤدى إلى استجابات انفعالية لجميع أنواع الإثارة أو التنبيـه. وقـد أوضحـت دراسـة واطسون ورواينر أنه فيما يبدو إمكان وجود مخـاوف لا عقلانيـة وانفعالات ذات جذور فى مواقف الاشتراط الاستجابى. فالطفل الذى عضه كلب، "طبيعيا" تزامن أو ازدوج الكلب مع العضة المؤلمة، قد تجعله يخاف من جميع الكلاب، وأن الشـخص الـذى يمـارس أو يختبر الألم لدى عيادة طبيب الأسنان، "طبيعيا" يحدث لديه تزامـن أو ازدواج بين عيادة الطبيب وشدة الألم، وقد يخاف عندئـذ مـن

العيادة فقط ولكن أيضا من العيادات المشابهة حتى عندما يغير "هو أو هى" طبيب الأسنان.

وما يجب أو نؤكد عليه هنا أن هذا السلوك الاستجابى يمكن أن يكون سلوكا اشتراطيا. ذلك لأن المثيرات الطبيعية أصلا، مثل، الجرس أو الفأر الأبيض، يمكن أن تثير سلوك خاص مثل "إسالة اللعاب أو المخاوف بكونها مرتبطة بالمنبهات أو المثيرات مثلا الطعام أو الصوت المرتفع" التى تثير هذا السلوك فى الحال. وفيما يلى محاولات لبيان تلخيص توضيحى لعمليات الاستجابة الاشتراطية، فالسلوك الاستجابى هو إسالة لعاب. "كلمة الجرس مسموح بها: فعلى الرغم من أن صوت الجرس قد يثير اللعاب لكونه مرتبطا بتكرار تقديم الطعام، إلا أنه لا يأتى كيفيا ممثلا الطعام. وكما أوضحنا سلفا، فإن تقديم صوت الجرس وحده مرة تلو الأخرى، دون أن يكون مرتبطا بتقديم الطعام ينتج عنه "انطفاء Extinction"، وهو المقصود به أن استجابة سيل اللعاب تقل تدريجيا فى شدتها.

١-طعام ٠٠٠٠٠٠٠٠٠سيل لعاب.

٢-طعام + جرس ٠٠٠٠٠٠٠٠ سيل لعاب.

٣-جرس ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ سيل لعاب.

وقد عرف "سكينر" هذا النمط من الشرطية أو "الاشتراط Conditioning" حيث أن المنبه الشرطى يسبق ويثير الاستجابة الاشتراطية. ومع ذلك فهو يعتقد أن معظم السلوكيات، ذات الدلالة المعقدة، ليست مجرد استجابة لانعكاس شرطى لمنبه خاص ؛ وإنما هى استجابات قصيرة ومصورة وقد ينتج عنها عواقب، كما أنه يهتم كثيرا بالكائن الحى النشيط "الإيجابى active" أكثر من الكائن الحى "السلبى passive"، مؤكدا على أهمية الاستجابة الشرطية، وخاصة الاشتراط الفعال. ويختلف "سكينر" مع "واطسون" ، الذى اهتم كثيرا بالنمط الانعكاسى، وعلاقات الاستجابة المثارة.

السلوك الإجرائى (الفعال): Operant Behavior

السلوك الإجرائى هو ذلك السلوك الذى يعمل داخل البيئة مؤديا إلى عواقب ونتائج . إنه سلوك معبر أكثر منه سلوك مثار أو مستخرج، وهو من خصائص الكائن الحى "النشط Active". ويرى "سكينر" أن دراسة الاستجابات المعبرة أو الصادرة وعواقبها هى الموضوع الأساسى لعلم النفس.

السلوك الاستجابى يكون تحت الرقابة المباشرة لسوابقها ، وينتج السلوك الإجرائى مبدئيا عن الكائن الحى فى غياب أى

منبهات مثارة يسهل التعرف عليها، وبالتالى فهى منضبطة ومراقبة من خلال فحص نتائجها. "تأثيراتها".

السلوك الاستجابى مثل طرفة العين، هزة الركبة ، سيل اللعاب واستجابات خوف معينة يمكن أن تكشف عن وجوه اختلاف مع السلوك الإجرائى مثل القراءة والكتابة ، اللعب مع آلة موسيقية، الأكل باستخدام السكين والشوكة، وقيادة السيارة. ويتضمن السلوك الفعال معظم الاستجابات ذات الدلالة التى نقوم بها فى حياتنا اليومية العادية – إنها – استجابات تعرفنا كأفراد. إن اهتمام "سكينر" يتركز حول الوصف الدقيق عن كيفية سلوكنا بطرق معينة وليس بطرق أخرى. هناك اختلافات بينة بين الأفراد فى سلوكهم "كل شخص له أو لها الشخصية المتفردة الخاصة به"، وأن قواعد الشرطية الفعالة تحاول توضيح أو تفسير تلك الاختلافات.

ما هى العواقب أو النتائج التى يقدمها السلوك التعبيرى؟ معظم النتائج الهامة فى تحليل سكينر للسلوك هو المكافأة ، أو بتعبير أكثر فنية "**التعزيز** Reinforcement"، فإذا كوفئ السلوك أو عزز فإن احتمال زيادة هذا النمط السلوكى سوف يتكرر فى نفس الظروف مستقبلا. ولتحقيق ذلك ليس لزاما تكرار نفس السلوك بالضبط ، قد يحدث سلوك مشابه يعطى نفس التأثير . نفس الطبقة أو مجموعة من السلوك، ليست الاستجابة بعينها، تقوى

وتدعم بالتعزيز. "يستخدم سكينر العبارة operant للإشـــارة إلـــى طبقة الاستجابات التى تصدر عنها نتائج معينة".

ربما تبدو أسس "التعزيز" التـــى هـــى جوهـــر الاشـــتراط الإجرائى بسيطة جدا ، على الرغم من أن تشعبها بعيـــد الوصـــول إليه ومثير "دراماتيك" . وبالضرورة، يعتـــبر "ســـكينر" أن الطفـــل حديث الولادة ذو سلوك تعبيرى، وكلما نمى الطفل يصبح "هـــو أو هى" قادرا على إصدار تنوع عريض من الاستجابات.

بعض تلك الاستجابات لـــها عواقـــب أو نتـــائج معـــززة ، وبعضها لا يعزز. فمثلا تسمح بعض الاستجابات للفرد أن يركـــب الدراجة بنجاح بينما آخر لا ينجح فى ذلك ، فالأول عـــزز نجاحـــه بينما الآخر لم يعزز. بعض الاستجابات مثـــلا: "الكـــلام والأكـــل واللبس بطرق مقبولة"، تعزز بواسطة موافقة وإعجـــاب الوالديـــن والمدرسين والزملاء وآخرين، هذا التعزيز الاجتماعى لـــه أهميـــة بالغة فى السلوك الاشتراطى، وباختصار فإن الاستجابات المعـــززة تميل إلي التكرارية ، والزيادة في حدوثها ، وتصبح لـــها جذورهـــا كاستجابات عادية وشائعة في ســـلوك الشـــخص وعاداتـــه. تلـــك الاستجابات تكون السلوك الاشتراطى.

يحدث تطوير هام عندما يتم الارتباط بيـــن اســـتجابة مـــا وتعزيز يتبعها بالمصادفة . فى مثل هذه الحالة، لا توجـــد علاقـــة

سببية وتأثير حقيقي بين الاستجابة والتعزيـــز. ويســـمى "ســكينر" الاســتجابات المشــروطة بــهذه الطريقــة "الســلوك الخرافـــى superstitious behavior" ويشير بأن السلوك الإنســـانى شــديد الخرافية[٤] "تقدم رقصات المطر من بعض جموع من الناس مثـــالا دراماتيكيا للسلوك الخرافي. وحدوث مصادفة المطر بعد ذلك يعـزز رقصا كافيا لاستمراره".

ملاحظات يومية من السلوك الخرافـــى متعـــددة: والمثـــال الشائع يمكن ملاحظته عندما نجد مجموعة مــــن الأشـــخاص فـــى انتظار المصعد الذاتي التشغيل ، أحيانا يبدأ أحدهـــم فـــى التشـــغيل مؤشرا أنه يعمل بالفعل . هذا السلوك يبدو أنه معزز، لعدة مـــرات، لفرصة وصول المصعد. حتى بعد وصول المصعد يستمر الضغـــط على الزر. ومن المحتمل كثيرا أن الشـــخص يعتقـــد أن اســـتمرار

---

[٤] تم توضيح السلوك الخرافى بوضوح فى المعمل حيث وضعت حمامة فـــى في صندوق سكينر مع تقديم الطعام كل ١٥ ثانية ، وبصرف النظر عمـــا سيفعله الطائر فى هذا الوقت. وأيا ما كان السلوك صادرا، فعندمـــا يصـــل المعزز (الطعام) سيميل لزيادة تردد السلوك. وقبل ذلك كان الطائر يـــؤدى السلوك بمعدل مرتفع، وقد وجد سكينر أن عددا من الاستجابات المتنوعـــة أصبحت مشروطة فى هذا الطريق، متضمنا الدوران فى دائرة ، وثبة تلـــو الأخرى.

الضغط على الزر فى الواقع أمر غير ضرورى وليس له تـــأثير ، وعلى الرغم من ذلك يصر على سلوكه.

كثيرا من الناس لديهم مجموعة من السلوكيات يســتخدمونها عند تشغيل سياراتهم فى الأيام الباردة، وعلى الرغم من ذلك نجـــد أن مرتين من تلك الاستجابات لها تأثير فعلى ؛ ولأن السيارة قد بـدأ تشغيلها فى الماضى "بتقديم التعزيز" بعد أداء تلك السلوكيات فـــإن الروتينية المعتادة تستمر.

يظهر الرياضيون سلوكيات خرافية، فقـــد يذهـــب لاعـــب البيسبول بالمضرب خلال اللعب ويقوم بحركة معينة ويسجل هدف، نجده يربط بين تلك الحركة وتسجيل الهدف.

هنا يكرر الحركة المعينة برغم عدم وجود علاقـــة بينـــها وبين تسجيل الهدف. والسلوكيات المتجاهلة، أو التى لا تعزز، تميـل إلى عدم تكرارها، لحاجتها إلى ما يقويها أو يدعمها . فليـــس مـــن المحتمل أن يتعلم الطفل القراءة إذا "هو أو هى" لـــم يتـم تعزيـزه بالإعجاب والتباهي والانتباه إلى محاولاتـــه فـــى القـــراءة، ومـــن المحتمل أن الطالب فى كليته قد لا يستمر فى تعليمـــه فـــى مجـــال السياسة ما لم يستمع إليه من حوله ويولونه الانتباه لأفكاره. ورجـــل الأعمال قد لا يكون سعيد الحظ فى استمراره فى أعماله المنتجة مـــا لم يذق طعم ولذة زيادة أعماله الناجحة.

وإذا لم تأتى نتائج للسلوك الاشتراطى، بتدعيم وتعزيز أيضا، فإنها تميل شيئا فشيئا إلى الإقلال من ترددها.

تلك العملية تسمى "الانطفاء الإجرائى Operant extinction".

فمثلا، الطفل الذى اتصف بالكلام الهادئ فى البيت، فإنه من خلال تعزيز الوالدين لهذا السلوك، قد يستمر فى هذا السلوك فى محاولات مبدئية داخل ملعب محلى. فإذا لم يستجب رفاقه من الأطفال لهذا السلوك "لا يوجد تعزيز" لهذا الحديث الهادئ، فيختفى هذا السلوك تدريجيا "يخمد" داخل ملعب الأطفال مع رفاقه أثناء تفاعله معهم. وربما استبدل هنا الكلام الهادئ بعكسه من الصياح والصوت العالى وحتى يلفت نظر الآخرين "تعزيز" من رفاقه.

وفى علم النفس السكينارى، تعتبر الشخصية بصفة أولية نتاج "التاريخ الشخصى للفرد من حيث التعزيزات Personal history of Reinforcement". "وكما سبق ذكره، فإن سكينر يعترف بالعوامل التناسلية Genitic Factors الوراثية ولكنه لا يؤكد على أهميتها فى تحليله للسلوك".هناك تباين بين الرجل الجدلى المهتم بالعنف الجسدى وبين رجل لطيف المعاشرة حسن الخلق لا يحب العنف. كيف تنشأ تلك الاختلافات السلوكية؟

تفترض أفكار سكينر وقواعده أن العامل الحرج هنا هو الاختلاف التاريخى للتعزيز. فالشخص الأول المشهور بالعنف ربما يكون قد

تم تشجيعه والتفاخر به فى طفولته "تعزيز إيجابى" من والديه أو رفاقه عند ممارسته سلوكاً عدوانياً، وأيضاً البيئة التى يعيش فيها. ومن المحتمل أن تكون تلك السلوكيات ناجحة وعندئذ تصبح معززة إيجابياً وموفقة وملائمة.

بالإضافة إلى أن التعزيز السلبى، "سيتم شرحه فيما بعد"، من المحتمل أداؤه لزيادة سلوكياته العدوانية. بمعنى أن العدوان قد يبعده عن عدم الارتياح أو المواقف الخطرة، كأن تصد أو تدفع شخص مزعج ومهدد مما يؤدى إلى وقف أو منع المضايقة والتهديد.

أما خبرات الشخص لطيف المعاشرة والذى لا يميل إلى العنف فإنه من المحتمل كثيراً أنه مارس وعايش خبرات لتعزيزات سعيدة وغير عدوانية، وأن بيئته الراهنة مستمر فيها تلك الصفات السلوكية. ويفترض علم نفس "سكينر" أن كلاهما: العدوانى السلوك ودمث الخلق "يحملان صفات جينية مختلفة أو متناقضة" قادرة على تنمية مجموعة من السلوكيات. وأن هناك إمكانية صدور تعزيزات مختلفة فى سلوكياتهما الفعلية لتصبح ذات صفات نموذجية لكل واحد منهما.

وكثيراً ما تغيب نقطة هامة عن المبتدئين فى قواعد الاشتراط الإجرائية هى أن التعزيزات كثيراً ما تكون دقيقة أو رقيقة، بمعنى آخر، فليس من السهل أن تجد تعزيزاً له معنى أو

دلالة لتاريخ حياة الشخص. فمثلا التوائم المتشابهة، والتى من نفس بيئة أسرية واحدة، قد تتحول إلى اختلاف تام فى السلوك عند البلوغ. وفى مثل تلك الحالات يذهب تفكيرنا بأن شيئا غامضا وغير قابل للتفسير قد حدث. ومن الواضح أن الشخصين كلاهما قد تعرض لنفس البيئة ولنفس الأحداث، فكيف إذن تحولا إلى هذا الاختلاف المبين؟ إن تفسير ذلك لا نجده فى حساب الصفات العامة فقط لتاريخ تعزيزاتهم، بل أن المعلومات التفصيلية تصبح ضرورية إذا كانت الاختلافات السلوكية مفهومة.

فإذا أمكن الحصول على تفاصيل خاصة أو معينة، فإن عددا من اللحظات فى التاريخ الشخصى لكل من التوأمين سوف تختلف أو تتباين عندما يختلف السلوك وتوابعه الصادر عن هذا التوأم أو الآخر. إنه من الصعب تصور حالة فردين، حتى لو كانا توأمين متشابهين يصدر عنهما نفس السلوكيات بالضبط ونفس العواقب أو النتائج. وعلى ذلك لا يوجد شخصان لهما نفس "الشخصية"، وبالطبع قد يكون هناك العديد من المتشابهات بسبب تاريخ التعزيزات المتشابهة إلى حد كبير، حتى وإن كانت غير كاملة التشابه.

ويرى سكينر أن هناك نوعان من التعزيز:

"تعزيز إيجابى Positive reinforcement"، و"تعزيـــزي ســلبى Negative reinforcement، وكلاهما يزيــدان مــن احتماليـــة الاستجابة. الأولى تتضمن إضافة شئ "معزز إيجابى" للموقـــف إذا تمت الاستجابة. فمثلا: قد تكون الاستجابة إيجابية التعزيز إذا كــان الناتج هو الطعام، الماء، الاتصال الجنســـــى، المـــال، أو التفـــاخر والإعجاب "عواقب". أما التعزيز السلبى فيتضمن إزاحة شيئا فمثــلا: قد تكون الاستجابة ذات تعزيز سلبى إذا كانت إزاحـــــة لــبرودة أو حرارة، أو صوت مرتفع، أو تـــهديد أو عمــل ممــل أو صـــداع. وباختصار فإن كثيرا من سلوكنا شرطيا لأنه يعطينا شيئا "فى حالــة التعزيز الإيجابى"، أو لأنه يسمح لنا بالهروب أو تجنب شـــئ "فـــى حالة التعزيز السلبى".

ولا يمكننا اعتبار أى شئ معززا إيجابيا أو معـــززا ســلبيا "مثير كريه" ما لم نلاحظ تأثيره. وقبل أن نسمى شئ معزز إيجـابى، يجب أن نحدد أن إضافاته تزيد احتمـــالات الاســتجابة، وبالنســبة للمعزز السلبى، يجب ملاحظة الإزاحة لزيادة احتمــال الاســتجابة. هذا النوع الواضح والخاص يمنع التداخل والخلط عند محاولة التنبؤ والتحكم فى السلوك.

إن التفسير الهلامى أو الساذج لقواعد سكينر قد تقودنا إلـــى ســوء الفهم. فيجب ألا نحكم فى التو واللحظة وكيفما اتفق بأن تعزيـــزات

معروفة ستكون فعالة، أو أن نفس الأمور تصلح للتعزيز فى معظم الحالات لجميع الأفراد. وكمثال لذلك، فإن الآباء أحيانا ما يكونوا غير قادرين على فهم التعامل مع أطفالهم "مزعجين وغير مستجيبين" فى سلوكهم. قد يقول بعضهم: لقد أعطينا أبناءنا أفضل الثياب، وكثيرا من المال، واستخدام سيارة الأسرة، وأرسلناهم لأفضل المدارس الخاصة، فكيف، وبعد كل ذلك، يتحولون إلى هذا السلوك؟

إن التعبير غير المباشر هنا يعنى أنه ولابد مع كل تلك "التعزيزات الإيجابية" أن الأبناء يجب أن يسلكوا وفقا لرغبة الآباء.

إن المعرفة المبهمة للشرطية الإجرائية أو الفعالة قد تجعلهم يعتقدون أن "سكينر" قد أخطأ، وأن التعزيز الإيجابى لا جدوى أو فائدة منه، أما المعرفة الأكثر والأعمق والكاملة للشرطية الإجرائية فإنها تساعد على فهم الموقف. فربما تكون الملابس، والنقود إلخ لا تؤدى إلى سلوكيات مشروطة أو مرغوبة، بمعنى أن الآباء يقدمون كل شئ للأبناء دون إمداد بالتعزيزات كنتائج لسلوكيات معينة. واحتمال آخر أن بعض تلك الأشياء على الأقل لم تكن حقا تعزيزات إيجابية. فإن أفضل الثياب أو المدارس الممتازة الخاصة ربما تكون تعزيزات مؤثرة بالنسبة للآباء ولكنها ليست بالنسبة

للأطفال. وأيضا، فإن كراهية الأطفال وعدم استجابتهم السلوكية قد تكون معززة إيجابيا وبقوة فى حالة موافقة رفاقهم.

إن المعانى الضمنية لقواعد التعزيز السلبى ذات دلالة كبيرة بالنسبة لمواقف الحياة اليومية العادية، والفهم المناسب لتلك القاعدة يمكن أن يوضح مشكلات التحكم فى السلوك. فإن سكينر بنفسه يدافع عن التعزيز الإيجابى، ويعتقد أن الشرطية تكون أفضل عندما تكسبنا أفعالنا شيئا جديدا، وتكون غير مرغوبة أو أقل رغبة لفعل أشياء عندما نهرب من شئ، كما فى حالة التعزيز السلبى.

بعض المواقف تكون محملة بتعزيزات سلبية. فمثلا بعض النظم المدرسية يكون العمل الأكاديمي كثير الملل وكئيب لدرجة أن أى سلوك يجذب الطفل لإجباره على هذا العمل يكون ذو تعزيز سلبى إلى حد كبير. نتذكر هنا تأثير التعزيز السلبى: إن السلوك الذى يزيح المعزز السلبى يميل إلى الزيادة بصورة تكرارية. وبالنسبة للتلميذ عندما ينقطع عن الفصل يتحول الطفل إلى موقف الدارس الكاره للدراسة "معزز سلبي"، عندئذ تلك السلوكيات من المتوقع زيادتها، فإن الطفل يرتبط شرطيا بأن يصدر عنه تلك السلوكيات بانتظام. موقف مشابه يوجد فى بعض الوظائف المملة، فقد يصبح العاملون فى ارتباط شرطى للهرب من هذا النوع من العمل "تعزيز سلبي"، بأن يقضوا وقتا ممتدا فى فترة الراحة. فقد يطيل العامل فى

إجازته المرضية أو قد يتغيب عن العمل، أو يصبح مستسلما. عندئذ يفتح التعزيز الإيجابى والسلبى بابا لكثير من السلوك الإنسانى.

ولتفسير المدى الواسع للسلوك الإنسانى الذى هو موضوع يحكمه تعزيز. يشير "سكينر" إلى التعزيز المشروط فمثلا: المال، والدرجات الأكاديمية، والانتباه، مواكبة مع التعزيزات الأولية مثل الطعام، والاتصال الجنسى. فالمال مرتبط بالتقدم بعدد من الضروريات "تعزيزات أولية"، والدرجات المدرسية أيضا مرتبطة بإحراز تعزيزات أولية (التمرير للدرجات تؤدى إلى الدبلوما، والتى تؤدى بالتالى إلى الوظيفة، والتى تؤدى إلى الدعم الذاتى، وبالتالى تؤدى إلى الاستقلالية، والقدرة على شراء الطعام وضرورات الحياة الأخرى، والقدرة على الارتباط بالشريك الجنسى".

أما الانتباه والاهتمام والموافقة والاستحسان والشعور بالآخرين كل تلك الأمور تصبح معززات مشروطة بسبب ارتباطها واشتراطها بتعزيزات أولية من خلال أشخاص آخرين. فمثلا الآباء الذين يمنحون أطفالهم الرعاية والاهتمام فإنهم أيضا يقدمون لهم تعزيزات أولية مثل الطعام والدفء، والعناق والمحبة وغير ذلك بالإضافة، لعلامات الانتباه والاستحسان والشعور بأعضاء الجنس الآخر التى من المحتمل ارتباطها باتصالات جنسية. والنقطة

الرئيسية هنا أن التنوع الكلى للمثيرات يمكـــن أن يحقـــق احتـــواء تعزيزات من خلال ارتباطها بالتعزيز الأولى. وتلـــــك التعزيـــزات المشروطة يمكن عندئذ أن تعمل مستقلة بضبط السلوك. إن أنـــــواع التعزيزات المشروطة التى ناقشناها هنا تسمى:

"التعزيـــزات المصممـــة Generalized reinforces": وهـــى مرتبطة بأكثر من معزز أولى واحد.

ويوجد معزز له أهمية كبيرة يؤثر على سلوك الإنسان هـــو النجاح فى تحقيق التعامل مع البيئة.

يرى سكينر أنه من الممكن أن تكون مؤثراً أو على حـــق. ويفترض أن قدرة الإنسان على أن يكون معززاً فى هـــذا الطريـــق ممكناً لامتلاكه تلك الجذور فى تاريخه التطورى. بمعنى أن جـــزءاً من تأثيرات التعزيز قد تكون غير مشروطة: وربما تكـــون القيمـــة الحية من التعامل مع البيئة بنجاح قد أدت "خلال التطور" إلى ميـــل عدد من النوع الإنسانى ليكون مثاراً "معززاً" بتلك الأنماط السلوكية المتعاقبة. وقد أعطى مثالا عن الطفل الذى يكرر هز الشخشـــيخة. فمن الواضح أن التأثير البسيط الناتج عن هذا السلوك يكون معززاً. تلك الفكرة ذات دلالة كبيرة لأنها تعنى أننا ربما ننشغل - إلى حـــد بعيد - بالسلوك ولو جزئياً، لأن ذلك يؤدى لبعض التغير فى بيئتنـــا. وبالطبع فإنه قد يحدث أيضاً تعزيزات أولية مثل: الطعام، والمـــاء،

والاتصال الجنسى وهكذا، وأحيانا يتم ذلك من خلال نجاحنا فى التعامل مع البيئة.

هناك طريق آخر حيث يتم ضبط السلوك أو محاولة التحكم فيه، وذلك من خلال "العقاب Punishment". يعتقد سكينر أن تأثير هذا الأسلوب محدوداً، وأنه وسيلة غير مرغوب فيها للتحكم فى السلوك وضبطه. إنه يعرف حالتين من العقاب كلاهما يحدثان كنتيجة للسلوك:

ففى الحالة الأول يتم ← تعزيز سلبى بعد الاستجابة، وفى الحالة الثانية يستبعد أو يزاح التعزيز الإيجابى بعد الاستجابة. الحالة الأولى يمكن تصويرها ببعض المواقف الشائعة: صفعٍ أو إهانة الطفل عندما يصيح "هو أو هى"، أو توبيخ طالب لسوء سلوكه، أو تعنيف العامل المخطئ، أو توقيع غرامة على السائق المتعدى للسرعة. وهناك أيضاً أمثلة تصور الحالة الثانية مثل: سحب رخصة القيادة من مراهق بسبب عدم احترامه لوالديه، أو حبس طفل فى حجرته بسبب سوء سلوكه أثناء تناوله الطعام وعدم مراعاة آداب المائدة، أو خصم جزء من مرتب عامل بسبب كسره أو إتلافه آلة أو معدة. أو الابتعاد عن شخص عندما يتحدث فى موضوع لا ترغب فى الحديث عنه.

إن لفظ "العقاب" يستخدم على نحو ملائم فقط عندما يكـــون التعزيز السلبى المعروف حاضراً، أو إذا كان التعزيـــز الإيجــابى المعروف مستبعداً. إنه ليس كافياً ببساطة التأكيد على أن فعلا مـــا سيؤدى بالضرورة إلى عقاب. إن النتيجة الشـــائعة للعقـــاب هـــى: "القمع Suppression"، على الأقل مؤقتاً، لنـــوع السـلوك الـــذى يسبقه، ورغم ذلك فإن كثيراً من العقاب المقصـــود لا يحقــق هــذا الهدف، فمثلاً: الطلاب المحتجزون أحياناً يستمرون فـــى الفوضـــى داخل الفصل، المجرمون يودعون السجن أحياناً لارتكابهم جرائـــم مرة ثانية، والموظفون الذين يعاقبون بسبب سوء عملهم يســـتمرون فى الأداء السيئ. إن الأفعال التى تتم فى تلك الحالات ليســـت ذات تأثير، وعلى الرغم من ذلك لا يمكن أن نعتبرها عقاباً. وفى الواقـــع أن بعض الظروف التى نظنها عادة "عقاب" قد تكون حقيقة تحصيـلى حاصل لتعزيز سلوك غير مرغوب فيه. والطالب الذى يحول إلـــى المشرف أو مكتب المدير المسئول قد يحصل على إعجـــاب رفاقـــه فى الفصل لكونه عنيف ومشاكس أو شجاع وعلى ذلك قـــد تـــزداد تلك الأنماط السلوكية الناتجة عن طرده من الفصل، والشخص الذى يودع السجن قد يجد قبولاً واستحساناً بين زملائه من السجناء بسبب سلوكه "هو أو هى" المضاد للمجتمع، وعلى ذلك فإن تلك السلوكيات قد تكون محتملة الحدوث كثيراً بعد السجن، ولكن ربما مع حـــرص

أكثر من أن يقبض عليه، والعامل الذى يصيح فى وجه رئيسه قـــد يكسب ود واهتمام رفاقه وتعاطفهم معه، خاصة هؤلاء الذين يعانون ويستاؤون من أحوال العمل، تلك الأحوال التى قد تدفع بـــهم إلـــى أخطاء أكثر فى العمل.

الحديث كثير حول رؤية سكينر عن العقاب "سوف نـــورده فيما بعد". ويجب أن نراعى كثيرا المثيرات البغيضة، محدثة زيـــادة فى احتمال نوعا من السلوك الذى يسبق إزاحته. إلى جانب العقـــاب، حيث يضاف المثير البغيض أو إزاحة تعزيز إيجابى، وتكون نتيجته النهائية على الأقل حدوث قمع مؤقت للسلوك. ذلك الأســـلوب فـــى التحكم السلوكى عادة ما يختلط لدى الأشخاص المبتدئين فـــى علـــم نفس سكينر. فمن المحتمل، وبسبب أن عبارة "تعزيز ســلبى" تبـــدو وكأنها تعنى موقف غير تعزيزى، أن تفهم على غير مـــا يقصـــده سكينر.

نحتاج الآن "للعـــودة إلـــى مناقشـــة كلمـــة "البـــاعث" أو "المثير Stimuli". نتذكر أنه فى الاستجابة الاشـــتراطية: البـــاعث يثير الاستجابة. قلنا أن تلك الحالة ليســـت مثـــل حالـــة الشـــرطية الإجرائية، طالما أن السلوك الإجرائى "معبرا emitted" أكثر منـــه "مثير Elicits". ومع ذلك، فإن السلوك الإجرائى يأتى متأثرا بمثـــير معين. فمثلا يمكن أن نعرض حمامة تجارب لموقف داخل صنـــدوق

سكينر التجريبى حيث يعزز النقر بالمنقـــار بإضـــاءة الصنـــدوق. وعندما يطفأ النور فإن النقر لا يكون نتيجة للتعزيز. وفـــى آخـــر الأمر، ستنقر الحمامة فقط عندما يضاء النور، فالضوء يعتبر "باعثـاً مميزاً Discriminative Stimilus"، ويؤدى نوعاً من التحكم فى سلوك النقر للحمامة التجريبية. إن إقامة تلك العلاقة بيـــن المثـــير والاستجابة ليست هى بذاتها فى حالة الاستجابة الشـــرطية. النقـــر مبدئياً يعتبر سلوك تعبيرى، وليس مثاراً أو نتيجة لمثيرات خاصـــة. وبعد إتمام عملية النقر بواسطة حمامة التجارب فقط ثم بتعزيز ذلـك عن طريق حضور الضوء. يعنى ذلك أن أى علاقـــة أو حضـــور لمثير خاص مع إمكانية التعزيز فى ذات الوقت، يحدث نوعاً مـــن التمييز: فمثلاً، الطفل يتعلم أن ينادى "ماما ودادى" فقط فى حضـــور والديه، بسبب حضورهم يتم الارتباط بتعزيـــز تلـك الاســتجابات اللفظية "حيث تعطى دلالة الاستحسان أو الانتباه"[٥].

(*) Induction الاستقراء أو التعميم Generalization ذات صلة بقواعد وأســس علم نفس سكينر. تشير عبارة الاستقراء إلى حقيقة أنه عندما يحدث السلوك تحت تأثير مثيرات معينة، فإنها أيضا تصبح محكومة بمثير بـــاعث آخـــر بنفس مكوناته. فإذا عززنا للاستجابة وفقا لمثيرات خاصة حـــاضرة فإننـــا سنميل أيضا للاستجابة بنفس الأسلوب (ولكن من المحتمل بأن يكون غـــير مماثلا) لنفس الباعث. وتحسب هذه القاعدة بحقيقة أنه ليـــس بـــالضرورة

وفى حياتنا اليومية العادية نمارس كثيراً من الأمور المميزة أو المختارة بصورة شرطية، ابتداءاً من الأمور التافهة نسبياً حتى تلك الأمور الجادة أو الحاسمة. فإن اختيار الموز للأكل يحكمه جزئياً اللون الأصفر للموز عندئذ يتم تناوله وله لون أصفر مميز ويصبح هذا اللون تعزيزاً "طعمه لذيذ المذاق". وعند اقترابنا من الغرباء يتحدد ذلك جزئياً من تعبيرات وجوههم ، معظمنا يعزز من مجرد التعبير "عندئذ يتم القبول" بعد الاقتراب من ابتسامة الغرباء. ولا نعزز بعد الاقتراب من عبوس الغرباء. يتم التحكم فى فتح الباب بعد سماع رنة الجرس، تلك الاستجابة تتم عندما يرن الجرس يتبعها تعزيز تم فى الماضى "لابد من وجود شخص عند الباب".

وجود اشتراط للاستجابة المناسبة لكل موقف جديد نقابله. ولأن كثيرا من المواقف لها مكوناتها الهامة، فإن سلوكنا يعمم أو يستقرئ تلك المواقف. فمثلا الشخص الذى يمكنه قيادة سيارة ما يمكنه أيضا قيادة سيارات أخرى. وأيضا الشخص الذى تم تعزيزه فى موقف اجتماعى للاستجابة بنفس الطريقة سوف يقوم باستجابات مشابهة فى مواقف اجتماعية أخرى مشابهة. ومن الواضح عندئذ أن الاستقراء أو التعميم له مزاياه. والتمييزات أيضا ضرورية. وإذا لم توجد فإن استجابات غير مناسبة قد تحدث أحيانا. كما أن تعزيز استجابات معينة وإطفاء تعزيزات أخرى مع وجود مثيرات مختلفة تأتى بسبب المميزات.

الذهاب إلى صندوق البريد يحكمه الوقت، هذا السلوك يتبع تعزيز "أن البريد هناك" ويجب أن نذهب إليه في وقت محدد. في الحالات المتقدمة يكون المثير المميز مثلا هو لون أصفر خاص "الموز"، ابتسامة أو عبوس "مع الغرباء"، رن جرس الباب في البيت"، وقت خاص أو محدد "البريد" تباعاً. يوجد صور عديدة للتمييز يمكن عرضها وكل منها تعتبر مثلا لما يمكن أن يقدمه التمييز للتأثير على سلوكنا. وقد أولى "سكينر" أهمية لملامح تحكم البيئة من خلال قاعدة التمييز وقواعد أخرى. والتأكيد هنا على أن العوامل البيئية هي التي تحدد سلوكنا أكثر من التفاعلات الداخلية.

وفيما يلي تلخيص توضيحي لما سبق:

١-السلوك الإجرائي Operant behavior يصدر ويتأثر بواسطة نتائجه المنطقية.

٢-إن معظم النتائج ذات الدلالة للسلوك الإجرائي يتم "تعزيزها Reinforcement"سواء كانت إيجابية أو سلبية، والتي تؤدي إلى تقوية السلوك.

تلك العملية "تسمى الشرطية الإجرائية Operant conditioning".

٣- السلوك الشرطي أو الاشتراطي المعزز يتضمن استجابات نموذجية في جملة سلوكنا.

٤- السلوك الخرافى أو غير العقلانى يأتى نتيجة علاقات عشوائية أو غير مقصودة بين استجابات وتعزيزات.

٥- نحن نمارس استجابات كثيرة متباينة ليس لها تعزيز أو غير معززة وتلك عندئذ تقل قوتها حيث تنتهى بالانطفاء.

٦- شخصياتنا المتفردة تنتج بصفة رئيسية من خلال تاريخنا الفردى للتعزيز.

٧- كثيرا من التعزيزات الشرطية، مثل المال يؤثر فى سلوكنا. تلك التعزيزات تكتسب تأثيرها لكونها مرتبطة بالتعزيزات الأولية، مثل الطعام... إلخ.

٨- يعتبر العقاب وسيلة للتحكم فى السلوك أو ضبطه، أو مخطط لقمعه وكبته "يعترض سكينر على استخدامه".

٩- يحدث "التمييز Discrimination" عندما يكون التعزيز ممكنا فقط فى حضور مثيرات خاصة، أو مثير خاص.

تشكيل السلوك: The Shaping of behavior

يفترض "سكينر" تشابها بين طريقة "الشرطية الإجرائية" فى تشكيل السلوك، وبين طريقة تشكيل فن النحت لقطعة من الصلصال. فالسلوك الإجرائى، مثل: طرق قضيب من الحديد لإطعام فأر فى تجربة، أو القراءة والكتابة لطالب فى الفصل الدراسى، لا تنشأ بصورة "كاملة/ جاهزة"، إنها تتشكل فى مراحل

متعاقبة. وكلمة "تشكيل Shaping" تشير إلى اختلاف أو تباين التعزيز المتقارب المتتالى أو المتعاقب، والاستجابات التى تتقارب شيئاً فشيئاً للاستجابة المرغوبة مطلوبة من أجل اكتساب التعزيز. فالطفل الذى يتعلم الكلام سيعزز أولا من أى جمع للكلمات المتقاربة وتدريجياً ينسحب التعزيز من هذا السلوك، هنا التقارب الأكثر يكون ضرورياً، وفى النهاية يكافأ فقط عندما ينطق ألفاظاً سليمة.

وينتهى التشكيل إلى كثير من السلوكيات المرغوبة، مثل تعلم الكلام والكتابة جيداً، أن يصبح الفرد ماهراً فى الرياضة، القيادة بكفاءة، وأن يؤدى عملة الوظيفى بمهارة فائقة. ويمكن أيضاً أن تؤدى إلى سلوكيات غير مرغوبة، فقد يتجاهل الآباء تساؤلات الطفل ثم بعدها يجيبونه "تعطى تعزيز" عندما يعلو صوت الطفل صارخاً. وللفت الأنظار فى مناسبات لاحقة فقد يزداد الطفل حدة فى طلباته، وطالما أن سلوكه النموذجى والمجرب أتى بما يطلبه عندئذ عليه أن يحدث الهرج والضوضاء "تعزيز غير مقصود من الوالدين".

خلال عام ١٩٦٠ حدث عنف فى الجيتو "الأقلية اليهودية" فى ساحة الجامعة. فسرت على أنها، على الأقل، نتيجة جزئية للتشكيل. فعند وصول الطلبة إلى المسئولين، كلا من السود وبعض

الأقليات ومجموعات أخرى من المحرومين: تجاهلوهم جميعاً، لكن حين ازداد عنف الطلبة فى عرض مطالبهم وجدت آذاناً صاغية.

وكانت تلك الشدة تصل أحياناً، وفى بعض الحالات، إلى مستوى العنف الجسدى ولمدى كبير من التخريب دون اعتراض. فكان لابد من الحكمة من جانب السلطة لاتخاذ الانتباه اللازم لمواجهة طلباتهم المعقولة دون استخدام العنف أكثر. هذا أفضل من تجاهل وغمض العين والأذن "دون تعزيز" حتى لا يحدث تصعيد للعنف، وتجد السلطة نفسها مضطرة للخضوع واللجوء لاستخدام سلوك حاد عدوانى ضدهم "تعزيز". تلك العملية يمكن أن تستمر، بداية من المقاومة المبدئية من السلطة، ثم مواجهة الضغط المتزايد ثم التراجع ثانية، ثم المواجهة عندما يزداد السلوك شدة حتى "تتشكل" شدة العنف وأنشطته اجتماعياً.

والتطبيق شديد الإيجابية للتشكيل يمكن أن نراه ونجده فى التعليم. فقد تولى "سكينر" برنامجاً عن التعليم، حيث يتم تفتيت الموضوع الدراسى إلى أجزاء صغيرة تتزايد فى صعوبتها شيئاً فشيئاً وتقدم المادة إلى الطالب بأجزاء سهلة ولطيفة. وبسبب ترتيب المادة فى خطوات صغيرة متتابعة، ابتداءاً من الأسهل إلى الأصعب، فإن الطالب لا يجد صعوبة ويستمر تدريجياً ليحصل على نسبة عالية من الاستجابات الصحيحة فى الإجابة على الأسئلة

"التى هى أيضا مبرمجة على الزيادة المتدرجة فى الصعوبة"، وعندئذ تعزز تصاعدياً باستجابات أكثر تعقيداً.

تقدم الكتب المدرسية المبرمجة مادتها فى خطوات صغيرة تصاعدية متطورة. كما يوجد أيضاً أدوات تعليمية مختلفة لتقديم تلك المادة المبرمجة. إذ أن بعضاً من تلك الآليات تقدم تعزيزات شرطية حيث أنها تحتوى على تبسيط للإجابة الصحيحة، على الرغم من أن هذا فى حد ذاته تعزيز قوى جداً. فمثلاً، الإجابة الصحيحة يمكن أن تعلم أو أن تميز بضوء يسطع أو صوت جرس، وبهذه الطريقة تشكل الآلات أو الآليات المصاحبة للسلوك، فى حين يبقى على الطالب الاهتمام بالتعزيز السريع لكل استجابة صحيحة. هذا النوع من التغذية الإسترجاعية للتعزيز أحياناً ما يكون مفقوداً داخل الفصول الدراسية المنتظمة، حيث ينتظر الطلبة أياماً أو أسابيع ليعرفوا درجاتهم ومستوياتهم فى الامتحان أو "المشروعات"، وبسبب تلك العوامل، بالإضافة إلى عوامل انتظام التفاعل بين الأدوات والطالب، والمعدل المرتفع لنشاط الطالب، والتصعيد إلى مستوى أصعب بعد فهم المادة، يرى سكينر أن التعليم الآلى مشابه للمعلم الخاص.

وقد أشار سكينر أيضاً إلى أن هناك أحوال معينة ذات طبيعة منفردة لها إسهام قليل فى التعليم، من الممكن استبعادها من

مناهج التعليم. فالطلبة لا يدرسون لكى يهربوا من عواقب أو نتائج معينة مثل التأنيب أو الدرجات الدنيا، وأن كل طالب يتقدم بقدر براعته ونسبة تقدمه، والتي من ثم تقلل السلوك التنافسي. بالإضافة إلى أن التعزيز الذى يؤدى بقوة وبسرعة لزيادة صغيرة فى الأداء يكون فى أحيان كثيرة أكثر تأثيراً من ذلك التعزيز طويل المدى، والذى يتم من خلال إنهاء المنهج أو الحصول على الدبلوم.

ويبدو أن امتلاك أدوات التعليم لها تأثير كبير، إلا أن هناك بعض المشكلات. إحدى تلك المشكلات هو تطوير البرامج الجيدة. فليس من السهل دائما تفتيت موضوعات اللغة الإنجليزية والتاريخ والعلوم أو ما شابه إلى معانى صغيرة أو وحدات متوالية. فهذا العمل يتطلب قدر كبير من مجهود خلاق، وبمجرد إتمامه ستكون الفوائد متعددة. ويرى "سكينر" أننا حقاً لا نعلم القدرات الكاملة والتامة للإنسانية، لأن البيئة لم تقم أو تنشأ على أساس دافع "تحصيل الإنسان لطاقاته وحدوده". وربما يكون التحقق التام من الإمكانيات المقدمة من آليات التعليم قد تدفعنا إلى تقدم أبعد من ذلك الهدف فى التحصيل التام للإنسان. وأيضاً فإن المدرسين يستفيدون من آليات التعليم ليكون لديهم متسعاً من الوقت للإحاطة بخلق

وابتكار أنشطة أبعد من تلك الأعمال البسيطة مثل أن يكون "مدرس أو مدير صارم Drill master".

استمرار السلوك: جداول التعزيز
Maintaining Behavior: Schedules of Reinforcement

تقدم التعزيزات أكثر من مجرد تشكيل السلوك، فهى أيضا تبقى على السلوك القائم. فالمصادفات أو العشوائيات أو الاحتمالات الجارية للتعزيز يجب دراستها فى حال إذا كانت تعقيدات الإنسان وأنشطته الحالية يجب فهمها. وفى عبارة أخرى، نحن نحتاج إلى معرفة الأحوال السائدة التى تحدث نتيجتها التعزيزات. ولكن تحديد تلك الأحوال بالتفصيل الكامل كما هو موجود فى العالم الواقعى نجده يختلف إلى حد بعيد فى معظم الحالات، ولكن حتى بالنظرة الخاطفة لتلك التعزيزات ومعرفة كيف ومتى تحدث كثيرا ما تصل بنا إلى دلالات تحدد السلوك.

بعض السلوكيات تعزز فى كل وقت عندئذ تكون معبرة أو صادرة، وهذه تسمى "تعزيز مستمر Continuous"

Reinforcement. إن السلوكيات المعززة بصفة مستمرة هى تلك التى تعمل فى البيئة المادية أو الطبيعية، فإن دفع أو جذب الباب يأتى بنتيجة ثابتة فتحاً أو غلقاً، كما أن فتح صنبور المياه يأتى بنتيجة ثابتة هى انسياب الماء. تلك أمثلة بسيطة لحالات تؤدى إلى نتائج معينة "تعزيزات" فى كل وقت "استجابات خاصة" تحدث السلوكيات. كما أن استمرار التعزيزات قد يحقق أنشطة مادية أو طبيعية أكثر تعقيداً مثلاً: قد تؤدى استجابات معينة إلى نجاح التزلج على الجليد، أو ركوب الدراجة، أو الأكل، أو الكتابة، أو السباحة وهكذا، وعندئذ نستمر فى الإصدار أو التعبير عن السلوكيات المناسبة لتلك الإنجازات.

وإذا كانت العلاقة بين التعزيز والاستجابة تتعرض للتوقف فجأة، هذا التوقف وبعد فترة طويلة من التعزيز المستمر، قد يؤدى إلى إزعاج، أو ضيق. ويرى سكينر أن "بيت المرايا house of Mirrors" فى ساحة التسلية مثالاً للتغير المتتالى للسلوك. فالناس غير معتادين على نوع من انعكاس أشكالهم كما يرونها على أسطح تلك المرايا. فعندما يحدث أن يروا ما يختلف عن توقعاتهم ربما حدث "موقف هزلى" وسافر لهم. ومثال آخر عن تأثيرات تغيير موقف تعزيز مستمر: زوجة تعانق زوجها عندما يعود من عمله إلى البيت ولمدة سنوات ولكن وفجأة فى يوم ما، لم

تقم بهذا التعزيز. فإن زوجها من المحتمل أن يقول مثلاً ما الخطـــأ؟ هل أنت بخير أم مرهقة؟ مثال آخر: موظفة اعتـــادت مـــن جميـــع زملاؤها ورئيسها امتداح عملها بصفة مستمرة. إذا حدث ولم تجـــد هذا المدح ستدهش وتسأل عن السبب، بينما لو لم يمدحها زملائــــها ورئيسها منذ البداية وبصورة مستمرة، لما اندهشت.

"والدون جوان " الذى يفشل فى غواية فتاة جديدة، قد يدهش ويصدم، لأنه اعتاد تعزيز شخصيته باستجابة جميع الفتيات له.

إن السلوكيات التى تحدث بصفة متتابعة ومستمرة التعزيـــز تخمـــد وتنطفئ بسرعة عند عدم إمكانية التعزيز. ولا يتم الإخماد فى وقـت طويل إذا حدث السلوك بتتابع زمنى للتعزيز حيث لا تعـــزز كـــل استجابة. إن عبارة "جدول زمنى Schedule" أو تتـــابع التعزيـــز تشير إلى نمط خاص لحدوث التعزيز. فإذا قل حدوث التعزيز فـــى كل مرة سوف يصدر نمطاً من السلوك أو يعمل جدولاً أو إضافـــة متقطعـــة مـــن "التعزيـــز a schedule of intermittent reinforcement"، والسلوك الذى يكتسب من تلك الإضافة عـــادة ما يكون أكثر مقاومة للانطفاء عن ذلك الســـلوك المكتســـب مـــن التعزيز المستمر.

إن "المحب العظيم" السالف الذكر من المحتمل تحرره من محـلولات إغواء فتاته بأكثر سرعة عن ذلك الشخص الذى لـــه تــاريخ مــن النجاحات مختلطة بالفشل.

والحمامة التى عزز سلوكها فى النقر بصفة مســـتمرة قــد تنقر هنا وهناك من ٥٠ إلى ١٠٠ مرة بعد انقطاع التعزيز. ومـــع ذلك فإن من ٤٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ نقرة قد تحدث فى فترة الانطفـاء. ويمكن توقع نتائج مشابهة بالنظر إلى انطفاء السلوك الإنسانى فـــى الحياة اليومية العادية.

إذا مارس الطفل حدة مزاج بعد نوبة غضب كما قد اكتسبها وذلك لشد انتباه والديه إليه "تعزيز مستمر"، وإذا لـــم تكــن هنـــاك مشكلة جسمية لديه فمن المحتمل أن نوبة الغضب تقف نسبيا بمجرد تجاهل والديه له "انطفاء". ومع ذلك إذا اكتسب الغضـــــب بجـدول متقطع، أى إذا استقبل الطفل انتباه الآخرين أحيانا وأحيانا أخــرى لا ينتبه إليه أحد فسوف يكون من الصعب التمييز. يحدث أحيانا سلوك إصرارى كبير نتيجة جداول التعزيز المتقطعة.

معظم السلوك الإنسانى يكتســـب عـــن طريــق التعزيـــز المتقطع.وهذا حقيقى بصفة عامة للآخرين. نحن نادرا ما نجد الثقــة التامة فى تعاملنا مع الآخرين. حتى أفضل الأصدقاء ليســوا دائمــا يتعاملون معنا بإخلاص مع سلوكنا الصدوق، ولكنا نستمر معـــــهم.

وأمثلة أخرى عن تأثير التعزيز المتقطع فمثلاً: الرياضيون أحياناً يستمرون في سلوكياتهم حتى لو فشلوا أحياناً كثيرة، وأيضاً الكتاب أحياناً يستمرون في الكتابة حتى لو نشر لهم مرة واحدة، والشخص النهم يصر كثيراً على التهام الطعام على الرغم من خيبة أمله في وجباته الكثيرة. وباختصار فإن السلوكيات البشرية تكتسب في كثير من الحالات بواسطة التعزيزات المتقطعة أو التي تحدث فقط بالصدفة.

يوجد نمطان عظيمان للتعزيز الجدولي المتتابع: "زمني فاصل Interval schedules"، و"زمني نسبي Ratio schedules"، فالزمني الفاصل قائم على مرور الوقت، مثلاً عندما تستقبل الحمامة الطعام داخل صندوق سكينر منذ أول نقرة، الاستجابة تتم بعد مرور فترة معينة من الوقت. إن برهة الوقت هذه قد تكون ثابتة أو مستديمة أو قد تختلف بعض الشيء. فإذا لم تتغير الفترة الزمنية للاستجابة، مثلاً: إذا كانت دائماً فترة دقيقة واحدة، عندئذ يسمى النظام الجدولي المتتابع "فترة ثابتة " Fixed Interval" (FI)- في الجدول التعزيزي. أما إذا تغيرت الفترة مثلاً: أحياناً قد تتغير ٥٠ ثانية، وأحياناً ٧٠ ثانية، وهكذا، بمتوسط زمني لدقيقة واحدة، عندئذ يسمى هذا الجدول جدول زمني متغير أو فترة التوقف المتغيرة Variable- Interval(VI)" في الجدول التعزيزي. وإذا كانت

الفترات قصيرة سيكون هناك معدلاً مرتفعاً نسبياً للاستجابة، غير ما نجده من نمط الاستجابات إذا كانت الفترات طويلة.

الشخص الذى يتناول وجبته اليومية الساعة العاشرة قبل الظهر، وذلك لأن رجل البريد شديد الانتظام فى تسليم البريد، فإن سلوك هذا الشخص معزز بصفة دائمة عند الساعة العاشرة صباحاً، فهو يعمل وفقاً لجدول زمنى "فترة" ثابتة. قارن سلوك هذا الشخص مع شخص آخر يعمل فى جدول زمنى متغير فيما يتعلق بوقت تسلم بريده، دعنا نتصور أن رجل البريد يأتى فى المتوسط الساعة العاشرة والنصف وهكذا. "قارن بين الفترات المتغيرة (VI) كنموذج للاستخدام فى الدراسات المعملية، فإن متوسط الفترة فى هذا المثال تعتبر طويلة وأن مدى التغير محدد تماماً". فمن المحتمل أن يراجع الشخص "مضرب المثل" صندوق بريده عندما يرى أن الساعة التاسعة والنصف ثم يستمر فى هذا السلوك حتى يعزز أخيراً، حتى يحضر رجل البريد. ويخضع جدول الفترة المتغيرة بمعدل تردد أكثر للاستجابة من جدول الفترة الثابت FI.

فالشخص الذى افترضناه فى مثال الجدول "متغير الفترة" من المحتمل أن يذهب إلى صندوق البريد بصفة منتظمة إلى أن يحصل على بريده، بينما الشخص الآخر سيذهب مرة واحدة.

إن بعض السلوكيات التى أشرنا إليها باعتبارها حالة "قلـــق" مثلاً: استمرارية مراجعة صندوق البريد، أو تكرارية النظر خـــارج النافذة ليرى عما إذا كان أحد أفراد الأسرة قادمـــاً أو ذاهبـاً إلـــى الموقد بصورة متتالية، أو ليرى إن كان البراد يغلى بالمـــاء، يـأتى ذلك نتيجة جداول الفترة المتغيرة.

فى الدراسات المعملية المحكمة ظهرت، وبطريقـــة مثـيرة وبعناية، التأثيرات المختلفة للفترة الثابتة والفترة المتغيرة المعـــززة جدولياً. إنه أمر نموذجي أن تجد أن السلوك يعزز عنـــد الفـترات الثابتة ولا يحدث ذلك بانتظام. هناك ميـــلا اتجـاه معـدلات أقـل للاستجابة السريعة بعد كل تعزيز، ولأن الاستجابات لن تعزز مـرة ثانية بعد حدوث التعزيز مباشرة فإن التوقف المؤقـــت للاسـتجابة يتبعه زيادة متدرجة فى معدل الاستجابة التى تزداد بســرعة كلمـا قرب وقت التعزيز. هذا النمط من التوقف المؤقت للاستجابة يتبعـــه زيادة فى معدل الاستجابة من الممكن إزالتها بجدول فترة التوقـــف المتغير. وعلى هذا الجدول تبقى إمكانية التعزيـــز فـــى أى وقـت منخفضة وثابتة. ولأن التعزيز يحدث أحياناً بعـــد حـدوث تعزيـز سابق مباشرة، فإن الكائن يستمر لفترات ثابتة للتوقف أو الاختفـــاء. وقد لاحظ سكينر أن الحمامة التى تسلك وفقا لجـدول (VI) فـترة التوقف المتغيرة بمتوسط فترات من ٥ دقائق، مع الطعام كمعـــزز،

قد أدت أكثر من ١٥ ساعة بمعدل استجابتين أو ثلاث استجابات كل ثانية، والتوقف ليس أكثر من ١٥ إلى ٢٠ ثانية خلال الفترة الكلية من الوقف. وبالتالى، كلما زاد حدوث التعزيز العشوائى كلما زاد بالمثل معدل ثبات الاستجابة، كما تدل هذه التجربة.

وفى الأنواع النسبية لجدول التعزيز المتقطع، من المهم الأخذ فى الاعتبار "معدل أو نسبة الاستجابات المعززة فى مقابل الاستجابات غير المعززة". يتطلب جدول النسبة الثابتة (FR) عددا من الاستجابات الخاصة والثابتة لكل تعزيز. أما جدول النسبة المتغيرة (VR) فإنه يتطلب عدداً متنوعاً من الاستجابات لكل تعزيز، مع نسبة تغير حول بعض المتوسطات العددية. فمثلا عند معدل عمل أو حركة فى جدول النسبة الثابتة قد تضطر للضغط على صندوق "سكينر" ٢٠ مرة فى كل وجبة طعام. فإذا كان الفأر يتحرك أو يعمل فى جدول النسبة المتغيرة، فإن متوسط عدد الضغط على الزر قد يصل إلى ٢٠ مرة، ومع العدد المطلوب قد يكون أحياناً مرة واحدة وأحياناً ٤٠، ١٥، ٢٥ وهكذا.

قد يساعدنا الجدول التالى فى فهم الأنواع الأربع الأساسية لجداول التعزيز المتقطع.

جدول التعزيز المتقطع

الفترة (وقت)		المعدل أو النسبة (عدد)	
Fixed ثابتة (FI)	Variable متغيرة (VI)	Fixed ثابتة (FR)	Variable متغيرة (VR)

أما الاختلاف الهام بين الجداول بالفترة وبين الجداول بالنسبة، هى أنه فى الحالة الأولى لا يعتمد التعزيز على كمية السلوك، ولكن فى الحالة الثانية فإن التعزيز يعتمد على كمية السلوك.

أما المثال التقليدى لجدول النسبة الثابتة فهو مثل عمل بالقطعة فى مصنع. على العمال إنتاج عدد معين من "القطع" من أجل تعزيزهم لابد أن يدفع لهم أجرهم. ويعطى "سكينر" أيضاً أمثلة، مثال الطالب الذى عليه أن يتم مشروعه من أجل الحصول على الدرجة العلمية، والبائع الذى يعمل بالعمولة. فإذا كان عدد الاستجابات المطلوبة من أجل التعزيز ليست كبيرة، فإن معدل الاستجابة المرتفع عادة ما يتم الحصول عليه من جدول النسبة الثابتة.

مثال: العمل المضنى باجتهاد يؤدى إلى أجر عالى، لكن فى نفس الوقت الإجهاد المصاحب للعمل المضنى المتواصل يؤدى أحياناً إلى نتيجة عكسية.

وبالنسبة للجداول ذات المعدل أو "النسبة" الثابت (F.R) والتى تعمل لفترات طويلة، وخاصة عندما تكون تلك المعدلات مرتفعة، فإن تأثيرها يشبه ما يحدث في جداول الفترة الثابتة في حدوثها. بمعنى أنه قد توجد فترة توقف فى الاستجابة بعد التعزيز مباشرة. ومع ذلك وعلى عكس جداول الفترة الثابتة، بمجرد الاستجابة في جدول النسبة الثابتة (FR)، فإن معدل الاستجابة يميل إلى الزيادة فى الحال، لكن مع زيادة معدل الاستجابة الملحوظة في جداول (FI) تكون الفترة الثابتة غير متطابقة أو مماثلة لجداول النسبة الثابتة "FR ".

وعندما تكون مجموعة من الاستجابات مطلوبة للتعزيز التالى فإنها تتجاوزها بعض الشىء، لأن الاستجابة أحيانا تتوقف تماماً لفترة طويلة من الوقت، ويشير "سكينر" هنا فى تعريف تلك الحالة بأنها فقد الإرادة. وكمثال على ذلك الشخص الذى يعمل بجهد شديد ليحصل على درجة علمية وبعدئذ يصبح غير قادر على أن يبدأ مشوار صعب آخر ليحصل على وظيفة جيدة. إن جدول التعزيز قد أجهد هذا الشخص "Strained". وقد افترضت الدراسات المعملية على الحمام أن هذا الجهد ليس تعباً أو إجهادا جسمياً ولكن يمكن اعتباره فشلاً للاستمرار فى الأداء والذى يتصل بجدول معدل ثابت مرتفع جداً.

مثل هذه الحالة من التوقف المؤقت بعد التعزيز فى جـــدول الفترة الثابتة يمكن إهمالها أو إزالتها بجدول الفترة المتغــيرة (VI)، وأن التوقعات المؤقتة مع جدول المعدل الثابت يمكن التخلى عنـــــها مع جدول المعدل المتغير (VR). وبالضرورة فإن جدول المعـــدل المتغير تكون احتمالاته ثابتة من حيث التعزيز لكل استجابة.

وأحيانا تكون الاستجابات المتتالية معززة، وأحيانا أخرى قد يحـــدث عددا من الاستجابات قبل حدوث التعزيز، وبالتالى تكـــون النتيجـــة عالية ومساندة لمعدل الاستجابة. ويشير سكينر أن حمـــام التجربـــة يستجيب بمعدل خمس مرات كل ثانية ويحتفظ بهذا المعـــدل لعـــدة ساعات.

ويعتبر المثال التقليدى للسلوك الإنسانى الناتج بمعدل عـــال من جدول المعدل المتغير (VR) أمر غير مضمون النتائج. فعجلـــة الروليت في القمار، وســـباق الخيـــل، وماكينـــات القمـــار Slot machines وغيرها تقدم تعزيزا بمعدل متغـــير النـــاتج عـــن أى مراهنة، فهو أمر غير قابل للتنبؤ. ويفترض ســـكينر أن "المقـــامر المدمن" يعطى تجسيدا لمثل هذا الجدول.

ويوجد كثير جدا من الأمثلة السلوكية المعززة عن طريـــق المعدل المتغير: البدء فى معرفة الغرباء، الصيد وصيـــد الســـمك، الذهاب إلى السينما، الطعام فى الخارج، لعب الجولف، الذهاب إلـــى

الحفلات، كتابة الخطابات، الطهى، محاولة إصلاح أجـــهزة تالفـــة بكفاءة قليلة، مشاهدة الـــ TV، وهكذا. تلـــك الســلوكيات تصبـــح معززة أحيانا وأحيانا أخرى غير معززة. فنحن ننشغل فـــى كثـير منها أحيانا، مرة تلو الأخرى، عاما بعد عام، حيث توضح إلـــى أى مدى نحن محكومون بهذا النمط من جدول التعزيز. ومـــع ذلـك، وحتى لا نغالى فى التبسيط، يجب الإشارة إلى أن السلوكيات ســالفة الذكر قد تفسر بالقواعد أو الأسس أكثر من تفسيرها عـــن طريـــق تعزيز الجدول المتغير. فمثلا، الذهـــاب إلـــى الســينما ومشــاهدة الـــ"TV" قد يمكن تحقيقه بجدول المعدل المتغير، وقد يـــؤدى إلـــى هروب سلوكى بالنسبة للشخص الذى يواجه أحوالا منفردة وبغيضــة فى حياته اليومية "هو أو هى".

يمكن تلخيص الأنماط الأساسية للجداول وسمات الاستجابة الرئيسية المرتبطة بكل منها كما يلى:-

"جداول الفترة Interval Schedules": المعدل الكلى للاســـتجابة عادة منخفض، وذلك عندما يقـــارن بجـــداول النســـبة Ratio a Schedules. وكلما طالت الفترة الفاصلة كلما قل معدل الاســتجابة الكلية. وإذا ثبتت الفترات الفاصلة Fixed، يحدث توقف مؤقت بعد التعزيز مباشرة، وتحدث بعدها زيادة تدريجية فى معدل الاســتجابة، وعندئذ يزداد التعجيل كفترة وقت للاقتراب من التعزيزات التاليـــة.

وإذا كانت الفترات الفاصلة متغيرة Variable، فإن فترة التوقــف تزول ويحدث استجابة متواصلة.

جداول النسبة (المعدل): Ratio Schedules

بصفة عامة فإن معدل الاستجابة عاليا "ما لم تكــن النســبة عالية جدا" وإذا كانت النسبة "ثابتة Fixed" تحــدث فــترة توقــف مؤقت مباشرة بعد التعزيز وبعدئذ يحدث تســريع مفــاجئ لمعــدل استجابة مرتفع. ومع معدلات نسبية مرتفعة جدا فإن فترة التوقـــف بعد التعزيز قد تطول. ويميل جدول "النسبة المتغـــيرة Variable Ratio إلى التخلص من فترة التوقف المؤقتة لما بعــد التعزيــز، ويحدث هذا بصفة عامة بمعدل مرتفع لاستجابة دائمة.

تلك المناقشة لجداول التعزيز يمكن أن تستمر وتستمر. ويمكن أن ندخل فى تفاصيل وتعقيدات. والجداول الأساسية الأربعــة تم عرضها فى كتاب جداول التعزيز عام ١٩٥٧

C.B. Faster and Skinner "Schedules of the Reinforcement."

وتم عرض ١٦ درجة مختلفة من جداول التعزيز، ومنها عدد مــن الترتيبات الفردية. وعلى الرغم من أن ضيق حيز الكتــاب الحــالى يمنعنا من الدخول فى مناقشة تفصيلية عن تلك الجــداول المعقــدة

المختلفة، فإنه يمكن عرض ملخص لبعض الأمثلة. فمثلا في الجدول المتعدد يحدث التعزيز طبقا لجدولين مستقلين أو أكثر، والتى يمكن أن تتبادل عشوائيا. يغير المثير إشارات تغير بدورها في الجداول، وتلك المثيرات تستمر فى تأثيرها مادام الجدول الخاص بها يعمل، والحياة بصفة عامة جدول متعدد. نحن نواجه بمواقف مثيرة ومختلفة، في العمل والفصل الدراسى، والجماعات، ومع مختلف الأشخاص. وهكذا، من كل الذين يحتاجون أنواعا مختلفة من السلوك من أجل التعزيز. والجدول المتزامن A Concurrent Schedule يتضمن جدولين أو أكثر لكن مستقلين في نفس الوقت، ويمكننا الحصول على تعزيز محدد من أى من تلك الجداول إذا ما صدر السلوك المناسب له.

في حياتنا اليومية العادية تعمل عادة جداول متزامنة. ونحن يمكن أن نؤدى موضوعين أو أكثر، لعب أو دراسة، نذهب هنا أو هناك، أن نرى صديقا أو آخر، ونحن أيضا قد نناوب بين الجداول. وفى "الجدول المتسلسل Chained Schedule"، نجد أن السلوك مع وجود مثير قد يؤدى إلى مثير تالى، والسلوك من خلال وجوده مع المثير الثانى قد يؤدى إلى مثير ثالث وهكذا. إلى أن يكون السلوك في وجود المثير "الزمانى" ينتج عنه، على الأقل في بعض الأوقات، تعزيز أولى. المثير فى تلك السلسلة يخدم كتعزيز شرطى

ومثير مميز. وتبدأ السلسلة مع حضور مثير مميز، وينتج عن المثير استجابة مناسبة وفى حضور هذا المثير يحدث معزز شرطى، والذى يخدم أيضا كمثير مميز لاستجابة تالية، وهكذا. وإذا وجهنا سلسلة الاستجابات للطعام داخل مطعم فقد نجد الآتى: فى حضور المثير المميز "وقت الطعام" فنحن نبحث عن المطعم: واجدين تعزيزات المطعم باحثين عنه، وتسلك أيضا كمثير مميز للدخول، والدخول يصبح معززا بوجود المناضد، والتى تعتبر أيضا مثير مميز للجلوس، والجلوس يعزز بظهور الخادم الذى يصبح مثيرا مميزا لتلقى طلب الطعام، والأمر بطلب الطعام يعزز بحضور الطعام ورؤيته، والذى يصبح مثيرا مميزا لتناول الطعام. وتناول الطعام يؤدى إلى تعزيز أولى وحدوث سلسلة من الاستجابات متضمنة الذهاب إلى المطعم. ولا يتكرر التسلسل بالتأكيد إذا لم نحصل على الطعام.

ومع التبسيط الزائد، لأن جميع مراحل السلوك والحافز فى التسلسل لم يدخل فى الحسبان، هذا المثال يصور لنا الدور الهام فى "التسلسل" فى حياتنا، وأن معظم السلوك المؤثر يحدث فى تسلسل رتيب.

وقد أوضح سكينر أن الحمام التجريبى يمكن أن يتدرب على الأداء بطرق متنوعة خلال معالجة أو تناول الجداول. ومنذ

نشرت "جداول التعزيز Schedules of Reinforcement"، أوضحت مجموعة الدراسات أن السلوك الإنسانى قابلا لأحوال خاصة من التعزيز. ولأن الوقت لم يأتي بعد، عندما يمكن شرح جميع السلوك الإنسانى تفصيلا، للإشارة إلى جداول التعزيز، فإن فاستر وسكينر أوضحا تماما لنا برنامج منظم حيث يمكن من خلاله تفسير تنوع كبير من السلوكيات.

كما أنه يمكن النظر حولنا لنرى أن سلوكنا وسلوك رفاقنا من البشر تتأثر بطريقة مفاجئة ومثيرة "دراماتيكية" بالتعزيزات التى تحدث حولنا. وأيضا فإن الجداول المختلفة يمكن أن نشاهدها فى فعلنا. وفى تبسيط زائد يمكن أن نوضح على ذلك بأمثلة منها: القيادة المنيعة، والسلوك شديد الإصرار على المنافسة الصناعية لرجال الأعمال كنتيجة لجدول التعزيز النسبى. حيث ينبغى "له أو لها" إحراز معدل مرتفع من هذا التعزيز من أجل القفز السريع للتسلق التنفيذى عن طريق التشجيع والتعزيز. وكلما كانت الأعمال التنفيذية شاقة وعنيفة كلما أصبح التعزيز أسرع "له أو لها" (مزيحا لجميع العوامل البيئية التى ننظر إليها باعتبارها "سوء حظ".

وبالطبع ولكى نوضح، وبالرغم من أن الإنتاجية العالية تأتى وفقا لجداول معينة من التعزيز، إلا أن ذلك لا يعنى أن تلك الجداول مرغوبا فى معناها العام. فمثلا، سوء تلك الأنماط من

الجداول قد يؤدى إلى أن يرهق الإجـــراء "العـــاملين" أنفســـهم أو يتحولون إلى شخصيات جامدة. والصفة الأولى قد تحـــدث عندمـــا تصدر السلوكيات من شخص يقوم بعمل بمفرده معظم الوقـــت، لأن ذلك السلوك هو المصدر الرئيسى للتعزيز.

سلوك آخر مثل: الاستمتاع بهواية، التحدث عن الأحداث الجاريـــة، أو ممارسة مهارات رياضية، "بما يقال عنه أن له شخصية كاملـــة"، قد تصدر أقل وأقل تكرارا كلما زادت السلوكيات الأخرى. وإذا لـــم تصدر تلك السلوكيات الأخرى، فلا توجد فرصة لها لكـــى تعـــزز، عندئذ سوف لا تقوى.

تقريبا يكون الشخص ذو كميـــة ســـلوكية محـــددة بســـبب احتمالات حدوث تعزيز فعال سابق فى حياته أو حياتها.

ومع أن الأمثلة السابقة تضمنت سلوك العمل، فإن جـــداول التعزيز تؤثر أيضا بشكل ملحوظ فى أنشطتنا الأخرى. وبالنظر إلـــى النشاط الجنسى، إذا كان الشريك الجنسى تتعامل معه فـــى جـــدول الفترة الثابتة، فإن سلوكك من المحتمل أن يكون مختلفا تماما عنـــه لو كان الجدول ذو نسبة متغيرة. وبمجرد تأســـيس جـــدول الفـــترة الثابتة مثلا: "نمط ممارسة العملية الجنسية مرة كل أسبوع فى ليلـــة الأحد"، فإن الاقتراب الجنسي للشريك من المحتمل أن يحدث فقـــط ليلة الأحد. وبين الأحدين إذا كان هناك اقتراب أو رغبـــة ســـتكون

قليلة. وبالعكس، دعنا نفترض أن جدول النسبة المتغيرة فـــى علـــم مستمر. وما دام التعزيز "العملية الجنســـية" يحـــدث بصفـــة غـــير منتظمة، وكل اقتراب للشريك فيه بعـــض احتمـــالات النجـــاح أو القبول، فإن محاولات مغرية ستكون تقريبا ثابتة ومتكررة.

ومع معظم القواعد السيكولوجية فإن تطبيق جداول التعزيـــز يمكن أن يساء تفسيرها واستخدامها إذا عوملت بإهمال. إن الســـلوك الإنساني معقد ومعرض لتأثيرات عديدة، إلا أن الدراســـة المتأنيـــة للموقف مع الانتباه المركز على حدوث التعزيزات يمكن أن ينـــير الطريق ويفيد.

ضبط النفس والإبداع: Self. Control and Creativity

سؤال بالغ الأهمية عن علم النفس السكينرى هو:

س- هل للفرد قدرة على إحكام أو ضبط سلوكه أو سلوكها؟

عند مناقشة جداول التعزيز، يبدو أن ضبط السلوك متـــأثر بواسطة احتمالات بيئية أكثر منه جهد الإنسان بنفسه "هو أو هـــى" هل الفرد قليل الحيلة وضحية للتغيرات فى البيئة؟

يعتقد سكينر أن إحكام "أو ضبط النفس" يمكن تفسيره مـــن خلال الإطار المرجعي للسلوك الراديكالي. فى ضبط النفس يكـــون الشخص هادفا لجعل سلوكه منضبطا، هذا هـــو الطريـــق الوحيـــد المختلف عن الخلق أو الإبداع. وأحيانا يكـــون هـــذا الســـلوك ذو

تكرارية بغيضة. الإسراف فى تناول الخمر، حدة المزاج، الكسل، السرقة، القيادة بسرعة شديدة، الإسراف فى الطعام إلخ. تلك الاستجابات قد يكون سبق العقاب عليها، وقد يكون هناك تهديد بالعقاب إذا حدثت. إن السلوك "ضبط النفس" الذى يقلل احتمالية مثل تلك الاستجابات العقابية سوف يعزز.

ومن الأمثلة المتنوعة على اختلاف وسائل ضبط النفس: (١) الانشغال ببعض السلوكيات لكبح عادات جسمية، مثل وضع الأيدى داخل الجيب لمنع قرض الأظافر، (٢) إبعاد نفسك عن موقف حيث يمكن حدوث سلوك معين، مثلا السير بعيدا عن شخص يعتبر مثيرا لحدة مزاجك. (٣) الإزاحة "أو البعد عن الإغراء مثلا الإلقاء بصندوق الدخان "السجائر" بعيدا عنك لأنه مثير للتدخين. (٤) أن تمكث بعيدا عن مواقف من الممكن أن تكون مثيرة للجذب إلى سلوك غير مرغوب- فمثلا تجنب احتفالات أو جماعات أو أصدقاء بعينهم من أجل تجنب شرب الخمر. (٥) أن تفعل شيئا آخر، بذلك تجعل الآخر مستحيل، بأن تشغل نفسك فى سلوك قد يؤدى إلى العقاب. من ذلك نجد أن أى من تلك السلوكيات الضابطة للنفس يمكن أن تعزز إذا قللت إمكانية العقاب. وأيضا قد يمكن تعزيزها بطرق أخرى. فالشخص الذى يقلع عن التدخين لا يعزز بتجنبه الكراهية الممكنة لاستمرار هذا السلوك فحسب، مرض

القلب، سرطان الرئة، إلخ، ولكن أيضا يعزز من الآخرين الذين يثنون عليه ويحبذون تصرفه وأيضا قدرته الزائدة لأداء الأنشطة الجسدية المتنوعة.

وبالطبع أحيانا يفشل ضبط النفس، ويستمر الشخص في التدخين وأن يتناول الخمر، أو يتجنب العمل إلخ. وعند حدوث ذلك فمن المعتاد أن نصف هذا الشخص بالضعف أو أنه ضعيف السمات أو الإرادة. إلا أن السلوكي الراديكالي لا يقبل تلك التفسيرات الخيالية. فالبيئة تحلل بعناية هذا السلوك لمعرفة لماذا الرجوع إلى هذا السلوك غير المرغوب فيه، فليس من المستحب أن نجد الإجابة داخل الشخص.

فإذا كان الشخص مستمرا فى ممارسة سلوكيات غير مرغوب فيها، فإنها تحدث من تعزيزات إيجابية أو سلبية. عادة ما يكون السلوك الإنسانى له أنواع من التسلسل أو التكرار، وليس من السهل أن نحدد أيا منها أكثر تأثيرا على السلوك المنضبط أو المحكم.

أحيانا يحدث التعزيز الفورى لسلوكيات ذات نتائج بغيضة على المدى البعيد. ولنأخذ مثلا إدمان الخمر، فإن التغيرات السريعة الناتجة عن شرب الخمر قد تعزز إيجابيا، وأن التعزيزات السلبية قد تحدث أيضا، فقد يهرب الشخص من نفور "مواجهة الحقيقة".

وعلى ذلك، أحيانا يكون شرب الخمر ذو تأثير شـــديد بمخرجــات تعزيزه السريع.

فإذا نتج عن ذلك عواقب بغيضة بصورة كافيــــة، مــرض عضوى، فقدان المال إلخ، عندئذ قد يمكن لهذا الشخص أن يوقـــف السلوك الذى أشرنا إليه بعبارة "ضبط النفس". وباســـتمرار ضبــط النفس سيعتمد على عواقب التعزيز للتخلى عـــن شــرب الخمــر، بالإضافة إلى كراهية العواقب التى تنمو لديه، مثلاً: إذا كـــان مــن الصعب مواجهة الحقيقة، فقد يبدأ الفرد فى تناول الخمر مرة ثانيـــة. ويجب ملاحظة أن التأكيد الكلى فى تلك المناقشة هو على العوامــل البيئية، وليس على قـــوة الإرادة أو افتراضـــات أخـــرى "القـــوى الداخلية".

يعتبر النهم فى تناول الطعام مشكلة ســلوكية شـــائعة وذات صلة بمناقشة ضبط النفس. ويمكن اتخاذ عدد من الخطوات لضبــط تناول الطعام. لا تنسى، أن التأثير الفورى للأكل يعـــزز وأن تلــك هى المشكلة الغالبة المسيطرة.

(١)استخدام ما يسجل نقص الوزن اليومى أو الأسبوعى قد يقـــدم تعزيزاً سريعاً لفقد الوزن القليل- ويمكن معرفة النتـــائج التـــى من الصعب معرفتها دون قياس الشعور.

(٢)اللوم أو التأنيب الشديد للذات، أو اتخاذ صديق دائم التأنيب، قد يؤدى إلى عواقب بغيضة ومنفردة وعلى العكس، فإن مدح الذات أو مدح الأصدقاء، يمكن أن تؤدى إلى تعزيز إيجابى بأن يقلل الفرد من طعامه.

(٣) والطعام بوجبة متوازنة تقلل من فرصة معاناة الحرمان والتى يمكن أن تؤدى إلى فقدان "ضبط النفس".

(٤) كما أن تجنب المثير الذى قد يدفع إلى الأكل يجعل من السهل "مقاومة الإغراء". هذا المعنى يتضمن كل شيء بدءاً من البعد عن المطاعم الجيدة وطاولة الفطائر والمعجنات عند مخازن البقالة لوضع الأطعمة الدسمة خارج الثلاجة إلى تجنب الأنشطة الاجتماعية حيث يشجع فيها على تناول الطعام.

(٥) القيام بأعمال أخرى هامة، خاصة عندما تكون الرغبة فى تناول الطعام قوية: المشى، الذهاب إلى السينما، دعوة صديق، شذب حشائش الحديقة إلخ. تلك الأنشطة تمنع تناول الطعام، وأيضا قد تقدم تعزيزات بديلة. هذه هى الاقتراحات الخمس مع ضرورة تغيير البيئة فذلك لا يأتى بالنصيحة بعبارة "كن قوياً". فإذا كانت النتيجة إنقاص الوزن، فإن سلوك إقلال الطعام يؤدى غالبا إلى تعزيزات إيجابية مرتبطة بكون الفرد رشيقاً ونحيلاً

مثلاً. وكلما كان التقبل الاجتماعى كبيراً للفـــرد، كلمـــا كـــان الانتباه من الآخرين له عظيماً، وكذلك قدراته العالية.

ويجب القول وعلى نحو واضح، بأن هنـــاك شـــك ضئيـــل لموقف سكينر من ضبط النفس، حيث يعتقد بأن ذلك يعتمـــد غالبـــاً على متغيرات البيئة وتاريخ الفرد التعزيزى، وليس على "مســـئولية الشخص". فقد افترض سكينر بأنه ليس من الضرورى التأكيد علـــى وجود أى قوى داخلية. حتى عند ظهور قرار "حاسم للنفـس Self-determination " فى أى عمل، ذلك لأن ضبط النفس الحقيقى ما يزال يقع على عاتق الأحوال الاجتماعية والخبرات السابقة والحاليـة للشخص، حتى عندما يبدل الفرد بيئته، تصبح البيئة الجديـــدة هـــى المحددة لسلوك الفرد.

ماذا يحدث عندما يتعرض شخص ما لحل مشكلة جديـــدة، يرسم صورة فريدة، يخترع ماكينة معقدة إلخ؟

تلك الأنواع السلوكية ترتبط "بالعبقرية"، ويمنـــح الشـــخص على استبصاره "هو أو هى" أو موهبته التقدير والمكافأة.

ومع ذلك إذا كان تاريخ الشـــخص التعزيـــزى وموهبتـــه الطبيعية الوراثية قد وضعت كلية فى الاعتبار، وإذا كـــان تعزيـــز الشخص قريباً وملامساً يمكن وصف ذلك تفصيلاً، وقد يكون أقـــل غموضاً حول الأفعال الخلاقة أو الإبداعية.

والأشخاص المبدعون لا يبدعون من فـــراغ، كثـــيراً مـــا يمتلكون ذخيرة كبيرة مــــن الســـلوكيات الناتجـــة عـــن تاريخـــهم التعزيزى.

فالمثيرات فى المواقف التى يصور منها الإبداع عـــادة مـــا تحمل بعض التشابه، على الرغم من غموض مثير ســـابق مرتبـــط بالتعزيز. وفي وجود مثل هذا المثير فإنه مــــن المحتمـــل حـــدوث استجابات متنوعة، وتلك الاستجابات تكون مختلفة التعزيز. لحيـــن تشكيل سلوكيات موحدة يعتقد سكينر أن "التحـــول الأساســـى" فـــى السلوك يحدث أحياناً من أحداث غير مقصودة، عشوائية، مصادفـــة لأحوال بيئية غير عادية. فمثلا، الفنان أو العامل الـــذى لا يمتلـــك معداته وأدواته العادية، أو المواد التى يحتاجها عمله، قد يصدر عنه سلوك غير مألوف، وإذا نجح هذا السلوك تم تعزيزه. قد يقال عـــن هذا الشخص أنه مبدع وخلاق. وتقريباً بنفس الطريقة يتـــم اختيـــار التحول الأساسى الجينى "التناسلى" بسبب قيمته الحيوية.

والتحول الأساسى فى السلوك يتم انتخابـــه بســـبب تتـــابع تعزيزه.

العمليات الشعورية: conscious Processes

لا يتجاهل سكينر الظواهر التى يشار إليها بلفظ "المشــاعر" "الأفكار" "المعرفة" إلخ. وسوء الإدراك فيما يخص فــهم النظريــة السلوكية الراديكالية يكمن فى أن تلك "الحالات الشعورية" لم تــأخذ الانتباه اللازم. وقد دل سكينر على أن تلك الأحداث الخاصة، والتى لا يمكن ملاحظتها، يمكن اعتبارهــا كموضــوع لنفــس القواعــد الضرورية كأحداث عامة. وذلــك بســبب أن الشــعور والتفكــير والمعرفة وهكذا... إلخ. تجرى "داخل جلد الإنسان" ولا تعنى أنــها ذات طبيعة خاصة أو أنها يجب التعامل معها بطريقة خاصة.

هل يعلم أى أحد منا، "ما يجــرى بداخلــه" إذا لــم تعمــل احتمالات التعزيز؟ يجيب سكينر بــالنفى. وبالتــأكيد هنــاك مثــير داخلى: Interceptive Stimuli يظهر مــن جــهازنا الــهضمى والجهاز التنفسى والأجهزة الدورية، يظـــهر تقبــل "ذاتــى مثــير Proprioceptive Stimuli" من مواقف وحركات أجسادنا. تلــك المنبهات تعتبر خاصة، بمعنى أن الفرد هو فقــط الــذى يعايشــها ويجدها، ولكن الناس "قالها ســكينر بعبــارة المجتمــع" يحــاولون مساعدتنا فى فهمها.

ونحن نستجيب للمثير الداخلى بطرق خاصة لأن الآخريــن حاولوا تفسيرها لنا، وقد عززنا بالانتباه، والتأكيد وهكذا لتمثل هــذا

المثير أو المثيرات لطرق متناسقة مـــع تفســيرات الآخريــن. وإذا لاحظنا الطفل الذى يتلقى اهتماماً واقتراحات "كونه مريض" فى كـل وقت، أو أنها تشير أو تظهر أقل علامة لعدم الارتياح، هذا الموقـف من المحتمل أن يجعل الطفل "هو أو هى" يعطى إشـــارة أو علامـــة لمثير خاص كدلالات على مرضه، وقد يصبـــح مريضــاً "بــالوهم Hypochondriac". مثير آخر مشابه خاص لا تبدو لـــــه دلالـــة لشخص آخر لا يتلقى اهتماماً لأقل شكوى أو أية تغيرات جســـمية صغيرة.

نقطة أخرى هامة عرضها سكينر هـــى أن معرفتنـــا عـــن أنفسنا قد تكون محدودة تماماً. فنحن نميـــل إلـــى أن نمـيز بدقـــة المثيرات الخارجية أكثر مما نميز مثيراتنـــا الداخليـــة. وأنـــه مـــن الصعوبة بمكان أن نصف للطبيب المعالج الطبيعة المعملية للمـرض أو الألم. إن لفظ "مجتمع Community" ذو صلة مباشرة بــالمثير الخارجى ويمكن أن يساعدنا للتميز الجيد فى تطبيـــق التعزيــزات بطريقة متسقة، وذلك فى غير حالة المثير الداخلى.

نحن نتعلم، مثلاً، أن نسمى الاختلافات الطفيفة بين الألوان، ولكن كيف يمكننا أن نتعلم تسمية الأنماط المختلفة مـــن الحـــب أو الغضب أو الارتباك أو الضعف؟ أشار سكينر أنه من الأســـهل أن تعلم الطفل الفرق بين المثير الأحمر والبرتقالى، أكثر من أن تعلمـــه

الفرق بين نوع من المثير الخاص اسمه "حياء أو عدم الثقة بالنفس" أو منبه آخر اسمه الارتباك أو الضعف. ولماذا تختلط الأمور عند كثير من الناس حين معرفة أفكارهم ومشاعرهم؟ لماذا معرفة الذات يصعب الوصول إليها؟!

ويؤكد سكينر على أنه من المضلل ومن غير الملائم أن ينظر للحالات الشعورية كمسببات للسلوك. فمثلا، أحياناً ينسب السلوك إلى المشاعر، عندما نقول "هو لم يذهب إلى العمل لأنه شعر بعدم التشجيع"، أو "قمت بعمل شاق اليوم لأنى أشعر بتحسن". وفى تحليل سكينر "كلتا الحالتين: المشاعر والسلوك العلنى أو الصريح" تعتبر نتيجة لأحوال بيئية، وأن المشاعر لا تسبب السلوك. كما أن الافتقار إلى التعزيز فى حياتنا قد يسبب الشعور بالاكتئاب أو عدم التشجيع، وقد يتسبب أيضاً فى أن نبقى فى بيوتنا بعيداً عن العمل أو المدرسة. فهذا هو نتيجة الافتقار إلى التعزيز والسببى، وهو العامل المؤثر على المشاعر والفعل أو الحركة. وقد يجعلنا التعزيز الإيجابى ... نشعر بالتحسن ويجعلنا نعمل بجد وحيوية، وفى هذه الحالة يصبح التعزيز الإيجابى هو المحدد لكل من المشاعر الجيدة والعمل بجهد وجدية. وطبقا لمفاهيم سكينر تعتبر "المشاعر" والحالات الذهنية" نتائج ملازمة ومكملة للعوامل البيئية ملامسة وملتصقة بالتعزيز.

الدوافع والعواطف Drives And Emotions

من المفترض عادة أن السلوك ينتج عن بعض القوى التـــى تعمل داخل الفرد. دعنا نفرض لفظ الدافع "Drive". يقول النـــاس: الأكل بسبب دافع الجوع، وممارسة الجنس بســـبب دافـــع الرغبـــة الجنسية، ولكى تتقدم فى عملك لابد أن يكون بسبب دافع النجـــاح، وهكذا. إلا أن سكينر يعتقد أن هذا ليـــس الـــرأى الأمثـــل لتفسـير السلوك. وأن استخدام مفهوم الدافع بهذا الأسلوب يبعد الانتباه عـــن الأسباب الحقيقية للسلوك الإنسانى، التى يمكن أن نجدها فى البيئـــة. ويفضل سكينر استخدام عبارة الدافع ببساطة للإشارة إلى تـــأثيرات العوامل البيئية التى يمكن أن توفر إمكانية تغيـــير الســـلوك (مثـــال جداول أحوال الحرمان أو الإشباع والتعزيزات المتنوعة). وللتعبـير عن رأى سكينر فى هذا الصدد: The most important causes of behavior are environmental and it only confuses matter to talk about inner discuss.

يقول : "إن الأسباب الأكثر أهمية للسلوك بيئته، وأنه مـــر خلط الأمور الحديث عن الدوافع الداخلية". وقد عبر سكينر بصفـــة خاصة أنه لا يجب اعتبار الدوافع:

(١) مثيرات أو منبهات.

(٢) حالات فسيولوجية "وظائف عضوية". (٣) حالات نفسية.

(٤) حالات بسيطة أو قوية مثلاً: إنه مـــن الخطـــأ الحديـــث عـــن "المغامرة". إنها دافع قوى ولكى تغامر بمعدل مرتفع مـــــن ســـلوك المغامرة قد يكون ذلك نتيجة لجدول تعزيز المتغير السلبى.

وإذا أخذت نصيحة "سكينر" مأخذ الجد، فإن طريقة نظرتنـــا للسلوك الإنسانى سوف تتغير إلى العكس "دراميتاكيـــاً". إنـــه مـــن السهل تماماً الاعتقاد بأن السلوك ينتج عن قوى داخلية، ولكن مـــن الصعب أن نقبل أن ندخل أنفسنا فى تعقيدات النظر إلى البيئات التى يتداخل فيها الناس من أجل محاولة تحديد أياً من العوامل فى تلـــك البيئات يؤثر فى السلوك. كما أن هذا الاتجاه الأخير قد يقودنا إلـــى استنتاج أنه لكى نحصل على تغيرات ذات دلالة فى السلوك، فإنـــه من الضرورى أن نغير The status quo الوضع الراهن، أكـــثر من مراعاة تغيرات بيئة المدارس، والمصانع، والسجون والـــزواج والعائلات إلخ، وقد نفضل أحياناً الحديث عن الطلبـــة والمعلميـــن الذين ليس لديهم دافع، والعمال الكســـالى والســـجناء المتمرديـــن، والزوجات والأزواج عديمى المسئولية، والآبـــاء والأمـــهات غـــير المبالين، والأطفال الأشقياء عديمى الاحترام- كمـــا لـــو أن تلـــك المشكلات كانت نابعة أو مولودة من حالات "انحرافية" داخلية.

دعنا ننظر الآن وباختصار إلى العواطف. هل أنكر ســـكينر أننا نتأثر بمشاعرنا العاطفية أو الانفعالية؟ ألسنا نندفع فى غضـــب

أحياناً ضد الآخرين؟ ألسنا أحياناً نتجنب مواقف عندما نخاف؟ ألسنا نتسحب بسبب حالة اكتئاب؟ إن إجابة السلوك الراديكالى لمثل تلك الأسئلة تؤكد مرة ثانية الإشارة إلى أن الحالات الداخلية حقيقة لا تفسر أى شىء. وأن سكينر بنفسه يتحدث أحياناً عن العواطف "الانفعالات"، وكأنه عندما يفعل ذلك يشير إلى نمط من الاستجابات وليس إلى دوافع داخلية افتراضية للسلوك، فهو يستخدم العواطف والدوافع بنفس الطرق. تعتبر بعض العواطف "معتدلة mild" لأن سلوكيات بسيطة فقط فى مستوى منخفض من القوة "كالتى فى التسلية، أو الإزعاج، أو الارتباك، أو عدم الصبر". وقد تتضمن انفعالات أخرى مدى واسعاً من السلوكيات مثل المتعة، الغضب، الخوف، الحب.

إن المشكلة فى التحليل العلمى للعواطف هو تحديد الأحوال القابلة "للتناول أو المعالجة man pulable conditions"، والتى تحدث فى سلوكيات مثل تجاهل عمل شخص، كون الإنسان عدوانيا تجاه الآخرين، البكاء، العناق والتقبيل بالإضافة إلى استجابات أكثر انعكاساً مثل معدل نبض عال. فإذا قلنا أن شخص ما يتجاهل عمله بسبب "القلق" فإن هذا العدوان يحدث بسبب الغضب.

هذا الصياح يحدث من التعاسة، هذا العناق والتقبيل نتيجة للحب، أو أن ارتفاع معدل النبض ينتج من الخوف. نحن لا نتعامل

مع محددات البيئة الأولية، ومازال علينا إجابة الأسئلة عن ماهية الأسباب التى تؤدى إلى القلق، والغضب، والتعاسة، والحب، أو الخوف. وللإجابة علي تلك الأسئلة إجابة مناسبة علينا مرة أخرى أن نتحول إلى تواريخ التعزيز وتحليل المثيرات المؤثرة على السلوك.

هناك بعض الأمثلة. (١) الشخص الذى يعانى من "القلق" ويتجنب العمل قد تصبح ردود فعله عواقب بغض وكره للعمل "هو أو هى" (٢) الشخص "الغاضب" الذى يكره شخص ما قد يكون سبق تعزيزه لمثل هذا السلوك. والاستجابات السابقة المشابهة قد يكون وراءها موضوعات صادرة عن تهديد من الآخرين. الشخص الذى يكره قد يكون لديه صفات مشابهة لآخرين هو يكرههم "للاستقراء دوره هنا". (٣) الشخص "التعيس" قد يبكى لأن هذا النمط من السلوك تم تعزيزه فى الماضى من خلال الاعتذار العاطفى، الانتباه... إلخ من أفراد آخرين معينين.

(٤) الشخص المحب "In love" ويبدى سلوكيات صريحة متنوعة مثل العناق والتقبيل قد يكون سبق له تبادل العواطف فى مواقف تعزيز به مع شخص آخر، "هو أو هى" معززين بالحب والوصال، وتعبيرات الاستحسان، والعلاقة الجنسية إلخ. (٥) عن "الخوف" – ارتفاع معدل النبض عند الشخص قد يكون تفسيراً كنتيجة لحالة

استجابية. وربما يكون الموقف الحالى الذى تتسارع فيه "هو أو هى" ضربات القلب مشابهاً لموقف آخر كان "هو أو هى" عوقب بعنف. والنقطة الرئيسية لتلك الأمثلة هى أن السلوك بصفة عامة والتى ترتبط بعواطف داخلية يمكن تحليلها بلغة "طوارئ التعزيز Contingencies of Reinforcement"، "المثير المميز discriminative stimuli" وأحوال بيئية أخرى.

ومن سابق القول، أن سكينر لا ينكر حدوث العواطف. وأنه يحاول وصف تفاصيل العواطف بمعانى ولغة سلوكية. دعنا ننظر إلى موقف افتراضى متصل بالعواطف. يبدأ شخص ما فجأة فى مواجهتنا بصياح مرتفع، قد "نروع ونخاف" وتسرع ضربات قلوبنا، وقد "تتقلص عضلاتنا". وقد تحدث ردود فعل فسيولوجية أخرى "وظائف الأعضاء". وقد تضع تفسيراً لتلك المثيرات الداخلية بعبارة "الخوف "، بسبب ارتباط شرطى سابق للفظ شعبى شائع. وقد نستجيب أيضاً للموقف بالتحرك بعيداً وبسرعة، لأن تلك الاستجابة قد عززت سلبياً فى الماضى. بمعنى أن الحركة بعيداً نتجت عن نهاية لمثير كريه أو بغيض.

ومن المهم أن نذكر أن شخص ما، وبسبب شروط مختلفة، يسمى باعث خاص مثل "الغضب" ويستجيب للموقف بالعدوان ضد الشخص الذى قام "بالصياح Shouting". فى هذا النمط التحليلى،

يعبر عن "الخوف" و"الغضب" باعتبارهما ألفاظاً مباشـــرة للسـبب والتأثير، أكثر من كونهما تأكيداً لوجــود حالــة داخليــة لبعـض الفرضيات، ويتضمن التفسير المثير، والاســتجابات والعواقـب أو النتائج. ومن الواضح أيضاً أن العاطفــة قـد تتضمــن كــلاً مــن الاستجابات الانعكاسية، مثل سرعة ضربات القلــب، والسـلوكيات الإجرائية مثل التحرك بعيدا.

الضبط أو التحكم فى الكراهية والعقاب Aversive Control And Punishment

بعض الموضوعات المذكورة فى هذا الفصل تــم تناولــها، ومع ذلك فهى ذات صلة هامة بسيكولوجية سكينر، والتى من المـهم تكرارها والتوسع فيها إلى حد ما.

"ضبط أو التحكم فى الكراهية" طريقة شائعة لحــث النــاس على السلوك بطرق مرغوباً فيها. ترتب الأحوال لكى يفعل الأفــراد ما هو متوقعاً منهم للهرب من، أو لتجنب عواقب ونتائج الكراهيــة، أو الموضوعات البغيضـــة. الحكومـــات والكنــائس، والمــدارس والمصانع وغيرها من المؤسسات الاجتماعية غالباً ما يســتخدمون تلك الطريقة للتحكم وضبط سلوك المواطنين، والأعضاء والتلاميـذ والعمال على التوالى. ويتم تشجيع السلوك المتوقع بــالتخويف مــن

عقوبة السجن مثلاً، أو الحرمان من الجماعة، أو الفشل، أو عدم التوظف على التوالى.

ويتحكم الأفراد ببعضهم البعض من خلال مقاييس أو معايير البغض والكراهية. فقد يؤثر الزوج فى زوجته لتصبح خاضعة وتابعة بالتحكم فى أحوالها الاقتصادية، فإذا لم تفعل أو تسلك كما يريد يرفض إعطائها النقود. وإذا لم يكن لها مصدرا مستقلا للإمداد المادى فقد يكون لهذا الأمر مدعاة ومعنى مؤثرا للضبط والتحكم فيها. ومثل هذا الضبط يعمل غالباً بغموض شديد وبطرق غير كلامية مباشرة، كلا الزوجين محكومان أو منضبطان بما يحدث، ولكن الموقف الفعلى لن يحدث ويتم بوضوح صريح. ويتصف ضبط الكراهية أيضاً بعلاقات الوالدين مع الطفل، فقد يسلك الأطفال بطريقة "مناسبة" للحصول على المسموحات، أو خوفا من سلب بعض الامتيازات، أو لوقف إزعاج الوالدين لهم. وعلى العكس، فقد يتنازل الوالدين أحياناً، لطلبات الطفل لوقف الصياح، أو العبوس، أو مص الأصابع، أو سلوك آخر كريه لهما. وفى تلك الحالة يصبح الطفل هو الذى يستخدم ضبط السلوك المكروه.

ويعارض سكينر استخدام ضبط الكراهية فى العلاقات الإنسانية أو لأغراض ومواقف اجتماعية، ويعتقد أن التعزيزات الإيجابية تعتبر وسائل أساسية شديدة التأثير لضبط السلوك أساسا

بسبب أن نتائجها يمكن توقعها، وأنها أقل احتمالا لتوليد أو إخـــراج سلوكيات غير مرغوباً فيها. وكمثال لذلك:

- التأثير القليل لضبط الكراهية، الطلاب الذين تكون ردود أفعالهم تجاه تهديد المدرسين لهم "فى مخطط تطوير التدريس" بطردهـم من المدرسة، الفصل التام، ارتكاب أفعال التخريب المتعمـــد أو اللامبالاة، وعدم الانتبـــاه. ويفـــترض ســكينر أن مثــل تلــك السلوكيات هى نتائج حتمية لضبط الكراهية.

والعقاب أمر سيئ عند سكينر. وقد كان ضد استخدامه لعـدة سنوات. فى حين أن القصد مـــن ضبـــط الكراهيـــة هـــو تحســين السلوكيات المتوقعة أو المرغوب فيها. والمقصود بالعقاب هو كبـت السلوك غير المطلوب. وفى قصته الصادرة عـــام ١٩٤٨، "والــدن الثانى Walden two" أكد سكينر بشدة أن العقاب شيطان، واسـتمر فى هذا الاتجاه من التفكير فى كتاباته اللاحقة، وهو يطالب ويدعـــو بأن العقاب، مع حضور مثير بغيض بعد استجابة، أو إزاحة تعزيــز إيجابى بعد الاستجابة، ليس تعزيزاً إيجابياً، فهو لا يضعـــف الميــل التام للاستجابة على الرغم من الكبت المؤقت لسلوك معين. أما عــن ضبط الكراهية، فإن العقاب كثيراً ما يأتى بنتـــائج غـــير مرغــوب

فيها[٧]. (١) مواقف مشابهة حيث تم العقاب وقد كان من الممكن تحقيقه، فى حالة إبعاد الطلاب عن جميع المواقف، التعليمية. (٢) عقاب شخص لسلوكه السيئ من الممكن أن يكبت السلوك "فقط" فى حضور القائم بالعقاب. (٣) إذا تم العقاب فى الحال، قد يؤدى إلى صراع بين الميل إلى صدور الاستجابة أو الميل إلى كبحها هذا النوع من الصراع يمكن ملاحظته لدى سلوك شخص "غير حاسم ومتردد" أو غير "واثق من نفسه". (٤) وإذا لم يكن هناك بديلاً ممكناً عن السلوك العقابى، قد يصبح الشخص "غير مسئول" ومنسحباً.

فإذا كان الغضب وسيلة ضعيفة، فما هى الطرق التى يمكن استخدامها للتخلص من السلوك غير المرغوب فيه؟

(١)إن الظروف التى ينتج عنها سلوكيات غير مطلوبة، يمكن تعديلها. فمن الممكن الإقلال من الغش فى الامتحان بإعطاء التلميذ كتاب مفتوح أو يأخذ الامتحان معه إلى البيت، وتغيير التأكيد على نظام الدرجات، أو تنظيم وترتيب الموقف بحيث

---

[٧] العقاب الشديد قد يكبت السلوك بصفة دائمة، ولكنه أيضا قد يسبب ردود فعل ذات انفعالات شديدة وحادة واستجابات خطيرة تعوق استمرار التعليم. وحيثما يستخدم العقاب توجد فرصة لخلق انفعالات منتجة.

يصبح من المستحيل الغش. مشكلة سلوكية أخرى، السرقة، من الممكن أن تقل كثيراً إذا قدم النظام الاقتصادى ما يكفـــى كـل فرد، وأيضاً يمكن الإقلال من العنف عـــادة بـــإقلال عنـــاصر "الإحباط" فى البيئة. تلك الأنواع من الأمثلة يمكن اســتطرادها. (٢) أحياناً يتم تجاهل السلوك غير المطلوب وعندئذ ينطفـــئ أو يخمد. وإذا كان التعزيز مثل: لفت الانتبـــاه لا يحـــدث، يميـل السلوك إلى النقصان في تردده. والمشكلة الكـــبرى للانطفـــاء سالف الذكر أنه يكون أحياناً عملية ممتدة. ومشكلة أخـــرى أن العاطفة الجياشة قد تنتج عندما يكبح التعزيز، وعادة ما ينتـــج عنها الغضب أو "الإحباط". ويمكن أن تكون تلك الاســـتجابات بغيضة جداً، وأحياناً يكون من الصعب استمرار تجاهل مثـــل هذا السلوك. (٣) السلوك المتضارب يمكن أن يكون مشـروطاً. فمثلاً: إذا كان الطفل شديد العدوانية ودائم الإلحاح على الطلـب من الآخرين، قد يتغير عن طريق تجاهل "إطفاء" هذا الســـلوك العدوانى ولفت الانتباه والاستحسان "تعزيز إيجـــابى" للســلوك الأكثر هدوءاً وتعاوناً. إن استخدام هذه الوسيلة قد يأتى بنتـــائج أسرع من استعمال وسيلة الإطفاء.

وإذا كان فى الإمكان ضبط الكراهية والعقاب بوسائل بديلة، فلماذا لا نستخدم تلك البدائل كثيراً؟ من المحتمل أنها أحياناً تكـــون

صعبة التحقيق أو تحتاج إلى صبر. أما الطريق السهل والسريع لضبط سلوك الآخرين هو استخدام التهديد أو العقاب، والقوة هي التي تتطلب استخدام تلك الطرق، وعلى المدى الطويل تعود المشكلة مرة أخرى.

السلوك المشكلة: الأسباب والعلاج Problem behavior : Causes And Remedies

افترض "سكينر" أن تفسيرات الأمراض العصابية والأمراض العقلية وغيرها من المشكلات السلوكية نجدها أحياناً في عوامل البيئة كمثل التاريخ الفريد أو الماضى الخاص للتعزيز، أو الحرمان الحاد أو الإشباع، أو ضبط الكره الشديد والعقاب القاسي. ومن المحتمل أن تكون قواعد وأسس التفسير بالنسبة لسلوك الإنسان العادى والإنسان غير الطبيعى هى نفسها، ما عدا أنه في الحالة الأخيرة تكون عوامل تأثيرات البيئة أكثر إثارة "دراماتيكية". إن إثارة المشكلات أو السلوك الخطير والتي تعكس الأمراض العقلية من الممكن أن تكون مكتسبة أو "متعلمة may to be learned ويقدم هذا السلوك شديد الانفعالية، والذى يوصف أيضا "بالمخاوف المرضية Phobias"، صورة نموذجية، حيث يحدث تغيير مثير "دراماتيكى" فى السلوك يمكن ملاحظته، فعندما يواجه الشخص المريض بالفوبيا مواقف معينة، أو عند حدوث مثير داخلى

خاصة عندما يفكر "هو أو هى" فى موقف خاص يحدث أن ينتج سرعة فى ضربات القلب، عرق، شحوب واستجابات لانعكاسات مشروطة يمكن ظهورها، بالإضافة إلى سلوكيات مثل الهروب أو تجنب الاستجابات.

والسؤال هنا: "لماذا يؤدى الشخص ردود الأفعال تلك"؟ ولكى نقول أن "هو أو هى" مريض بالمخاوف، أو "هو أو هى" يعانى من صراع عاطفى، أو "هو أو هى" لديه خوف لاشعورى قد تبعدنا تلك الردود عن الطريق الصحيح للإجابات وإمكانية وضع افتراضات واقتراحات للعلاج. ويرى سكينر أنه من المفيد اعتبار تلك السلوكيات "استجابات متعلمة as learned"، أو مكتسبة كنتيجة للعقاب عن بعض السلوك السابق فى موقف معين، وعندئذ يمكن تغييرها مباشرة، دون محاولة لتحليل "مشكلة الانفعال الداخلى". ووفقاً لتلك الرؤية، فإن المشكلة تكون فى السلوك، وليس فى الشخص.

وقد يسأل شخص ما "حسنا"، ماذا عن الأفكار المفزعة ومشاعر الخوف التى يشعر بها المريض؟ أليست تلك المشاعر بداخله "هو أو هى"؟ وكيف التعامل معها؟ يجب أن نتذكر أن "سكينر" لم يفرق بين الطبيعة الأساسية للأحداث "تحت الجلد" وبين الأحداث الخارجية فى البيئة.

ومهما يكن، فإنه يحدث فى عالم المثـــيرات، الاســتجابات والعواقب أو النتائج. فأفكار الفـــرد ومشـــاعره تعتـــبر اســتجابات مشروطة ومتأثرة بالباعث أو المنبه أو "المثـير Stimuli" مثلمــا تكون الاستجابات الصريحة. بعض الأحـــوال تؤثـــر علـــى كـــلا الاستجابات الصريحة والخفية أو المقنعة، وقد ينتج العقاب وضبـــط الكراهية داخل السلوكيات العاطفية، وتتضمن هذه عاطفياً اســتجابات يمكن ملاحظتها مثل: الهروب الصريح وسلوكيات البعد أو التجنب، بالإضافة إلى تلك الاستجابات التى يعايشها الفـــرد مباشـــرة مثـــل: "المشاعر" والأفكار الخاصة.

وحقيقة أن بعض الأحداث "عامة Public" وبعضها الآخـر "خاص Private" ولكن ليس بـــالضرورة أن تصبـــح موضـــوع خلاف- فتفسير كلاهما واحد.

وكما تم الإشارة إليه آنفاً فإن المشكلة الكبرى للسلوك يمكـن أن تكون بتوجيه ضبط زائد للكراهية أو للعقاب. وللهرب من ذلـــك قد ينسحب الأفراد جسدياً أو يبتعدون، وقـــد يفعلـــوا ذلـــك خـــلال سلوكيات ليس من السهل ملاحظتها، مثل الهلوسة وأحـــلام اليقظـــة دون أن ينتبه إليهم أحد إلخ. وقد يحدث عنف مضاد للعدوان ضـــد القوى الضابطة، إذا لم يكن هناك فرصة لهذه الاســـتجابة، عندئـــذ يكون البديل سلبى حاد كطريق لتجنب ضبط الكراهية.

ولأنه يوجد تنوع من المثيرات عندما يكون الشخص موضوعاً لضبط الكراهية أو العقاب، فإن تلك المثيرات "من خلال استجابة مشروطة" قد تظهر ردود فعل انفعالية للخوف والقلق والاكتئاب والغضب إلخ، والتى سبق ظهورها فى الموقف الأصلى. تلك العملية تحسب لكثير من ردود أفعالنا غير المنطقية. فإذا عوقب الطفل بعنف فى المدرسة لعدم المذاكرة، تظهر استجابات انفعالية مختلفة في وجود منبه أو مثير المدرسة "أى الوجود فى المدرسة". نفس تلك الاستجابات- الخوف- القلق إلخ- قد تحدث عندئذ طالما الطفل فى المدرسة أو عندما يحاول "هو أو هى" الدراسة أو المذاكرة. وإذا لم تحدث شروط أخرى، وإذا لم تنطفئ ردود الفعل الانفعالية، فقد يهرب الطفل تماماً من المدرسة وربما يتجنب المواقف التعليمية بقية حياته أو حياتها. ومن الواضح، أن هذا الأمر يمكن أن يكون له تأثيرات بعيدة المدى على الشخص. والكثير من العقاب الضعيف قد يؤدى إلى تأثيرات أكبر، مثل الخوف الشديد، القلق، أو ردود فعل أخرى قد تحدث حتى يمكن وصف الفرد بأنه "شديد العصابية" أو "مريض عقلى". وبالطبع من النادر حدوث هذه الأمور في حياة الفرد مرة واحدة ذات تأثيرات دراماتيكية. ومع ذلك، علينا أن نفكر حول التأثيرات الممكنة من تكرار العقاب تلو العقاب ومحاولات ضبط الكراهية إذا حدث عاماً بعد عام.

قد تنتج المشكلات السلوكية من عوامل أخرى غير تلك المتصلة بضبط الكراهية أو العقاب. فقد يمكن تشكيلها وحدوثها من خلال تعزيز طارئ أو غير متوقع بنفس الطريقة لسلوكيات أخرى. فليست كل التعزيزات تستقبل من سلوكيات منقولة. فمثلا، في البيت المزدحم أو موقف المدرسة فإن الوالد أو المدرس قد يكون مشغولا جداً بحيث لا ينتبه للطفل ذو السلوك الجيد. هذا التجاهل قد لا يكون له أهمية إذا كان الطفل حصل على تعزيز لسلوكه الجيد بطرق أخرى، مثلاً استحسان وانتباه من زميل أو من خلال أنشطة يقوم بها بمفرده. ومع ذلك دعنا نفترض أن تلك التعزيزات لا توجد، مثلا إذا عزز الطالب من قراءته وكتاباته ورسمه وحل الرياضيات وأنشطة أخرى يمكن أن يقوم بها بمفرده "هو أو هي" لابد أولاً أنه تعلم فعل ذلك. تلك الأنشطة ليست معززة من أنفسهم مالم يتم الوصول إلى مستوى مهني أو مالم يتم تقدم دراسي، "بمعنى أن الطالب لابد أنه عالج أو تأثر بكفاءة من بيئته."

وإذ تعرض الطفل للتجاهل عندما يسلك "هو أو هي" سلوكا جيداً ولم يحصل على التعزيز عن هذا السلوك بطرق أخرى سيكون هناك ميل لنشوء مجموعة من السلوكيات للفوز بالتعزيز. أحياناً تنال السلوكيات المثيرة المختلفة الانتباه: مثل الصياح، الشكوى، الصراخ، الضرب، البطء، الكسل التخريب المتعمد

وهكذا. قد تتشكل تلك السلوكيات وتكتسب عندهم من خلال الانتباه الذى حصلوا عليه، حتى لو كان هذا الانتباه يتضمن تأنيباً قاسياً وتهديداً، "أى نوع من الانتباه يكون أحياناً أفضل من عدم الانتباه". والأطفال الذين يسلكون بالطرق، سالفة الذكر، يوصفون أحياناً بأنهم يعانون من "خلل عقلى". وعندما يحدث إنكار لوجود التعزيز المفاجئ يظهر "التفسير الخيالى Explanatory Fiction".

وقد يتطلب السلوك الخطير والمزعج للفرد أو للمجتمع العلاج. ومن ثم يقترح سكينر فى هذا الصدد أن العلاج يجب أن يتناول السلوك دون وجود افتراضات المرض العقلى الداخلى. واعتماداً على حالة خاصة، فإن العلاج قد يتضمن تعزيز سلوكيات ضبط النفس "التحكم الذاتى". الشخص فاقد التحكم تماماً يعتبر مريضاً عقلياً، ونشوء كمية من السلوك الأكثر تأثيراً أو إطفاء السلوك غير المطلوب "ولتفصيل أكثر أنظر الفصل ٢٤ فى Science and human Behavior" العلم والسلوك الإنسانى لتلخيص وإيضاح عدد من التطبيقات لأفكار سكينر العلاجية ومواقف أخرى، وأيضاً "Kenneth Good all's Shapers at work"

علماء النفس والمتخصصون الآخرون الذين قاموا بتطبيق قواعد سكينر فى علاج السلوكيات "عادة يسمون المعدلون للسلوك

"Behavior modifiers"، وإجراءاتهم تسمى "وسائل التعديل السلوكى". وهم يركزون بصفة خاصة على السلوكيات التى تتطلب التغيير. بعكس عدد من المعالجين النفسيين، فهم لم يحاولوا تغيير شيئاً داخل الشخص، مثل "الأنا الضعيف" أو "مفهوم الذات المشوه" وهم يعتقدون أن نجاح العلاج يقع على وجود ومعالجة أو تناول الأحوال التى تصدر عنها المشكلة السلوكية، وتستخدم طرقهم فى تزايد مطرد على تنوع واسع للمواقف. إن القواعد الأساسية لتلك الطرق يمكن تعليمها أو تلقينها بسرعة للآباء والمدرسين، والمرافقين فى المستشفى وغيرهم. إن الخطوة الأولى فى برنامج التعديل السلوكى هى أن توصف بدقة السلوكيات المعنية، حتى يكون هناك تقييم موضوعى وعيانى لماذا نحتاج إلى التغيير. وبعدها تتم محاولات لاستبدال تلك السلوكيات بالمعالجة البيئية المباشرة وترصد التغيرات السلوكية بدقة لتحدد نجاح تلك المعالجات البيئية.

قد تساعد بعض الأمثلة على توضيح تطبيقات وسائل التعديل السلوكى. الطفل الذى يسلك بالانسحاب، وطرق مضادة المجتمع، يمكن نشأته وتربيته إذا تم تجاهل مثل تلك السلوكيات "أطفئت" بينما يقدم له الانتباه "التعزيز" لأقل أفعال اجتماعية. مرة أخرى، فإن زيادة القابلية الاجتماعية قد يكون مطلوباً للحصول على

الانتباه. هذا "تشكيل" لعملية سبق مناقشتها. وأحياناً يمكن التعامل مع العدوانية الصريحة بتجاهل نوبات الغضب وسلوكيات أخرى مدمرة، إذا لم تكن بالغة الشدة بحيث لا يتعرض الطفل أو الآخرين للأذى، مع إعطاء الانتباه والاستحسان للسلوك غير العدوانى والمتعاون. وفى مصحات الأمراض العقلية، أحياناً يتغير سلوك المرضى العقليين الشاذ عند تتبع تلك الأفعال التى تؤدى إلى تعزيز، عندما لا تكون نتيجة انتباه الممرضات وهكذا، وعندما تؤدى سلوكيات عادية بديلة التعزيز المطلوب. يتم التعامل عادة مع الأطفال ذوى الخيالات، والذين لا يتكلمون وفصامى التخشب "كتاتوينك" والبالغين من البكم بكفاءة بوسائل التشكيل، أولاً: أى انتباه يوجه إلى المدرس يعزز، ثم يصدر أى صوت، ثم يقترب شيئاً فشيئاً إلى الكلمات، ثم يستجيب للأسئلة، وهكذا إلى أن يبادر بالحديث.

والنظام المستخدم لتغيير السلوك فى مختلف الجلسات، بما فيها المستشفيات العقلية، المدارس والبيت بالنسبة لجناح الأحداث، هو "النموذج الاقتصادى Token economy"، "والعلامات Tokens"، والتى قد تكون فى شكل ماركات البوكر والقمار إلخ، التى تعتبر تعزيزات إيجابية، بمجرد كسبها يمكن استبدالها بالطعام، وامتيازات أو أى تعزيزات أساسية أخرى. ولكسب تلك العلامات

على الأفراد أداء بعض السلوك قد يتعيـــن علـــى المريـــض فـــى المستشفى العقلى إلى تنظيف حجرته أو حجرتها، الطالب عليـــه أن يكمل واجباته المدرسية، والحدث عليه أن يمتنـــع عـــن المشـــاجرة ويلتحق في الفصل بانتظام. وبالرغم من تعميم الســـلوك الإيجـــابى "وراء نظام Token economy"، فإنه ليس مؤكداً وبصفة دائمـــة، أنها إمكانية مرغوباً فيها.

وفى بعض الحالات تكون حصيلة السلوكيات نفسها معـــززة للشخص، وعندئذ يمكن لنظام "النموذج Token" أن يتلاشى، وقـــد يعزز المريض بكثير مما يدور حوله، وقد يعزز الطالب بما يتعلمـــه "هو أو هى"، ويمكن للحدث أن يعزز بالصداقة والإنجازات.

يمكن تطبيق قواعد "سكينر" أيضاً بالنسبة لمشكلات الســـلوك الشخصى فى الحياة اليومية العادية. فمعظمنا يود أن يحسن نفســـه، بطريقة أو أخرى. فمثلاً، قد نشعر أنه من الأفضل أن نكـــون فـــى حالة طيبة وسعداء مع الآخرين. وللوصول لهذا التعديل الســـلوكى، يمكن أن نحتفظ بسجل أسبوعى لعدد من الأوقات قمنا فيها بأعمـــال طيبة مبهجة للآخرين، وببساطة فإن رؤية تلك البيانـــات المسجلة أحياناً تكون كافية لتغيير السلوك، هذا التسجيل يضع الخط الأساسى أو نقطة البدء التى يمكن أن نقارن بها سلوكيات ســـابقة متكـــررة. عندئذ يمكن أن نضع هدفاً لزيادة طفيفة لعـــدد العلامـــات المسببة

للسعادة والسرور، ويجب أن يكون هذا الهدف معقولا بالقدر الكافى ليسمح لنا بالنجاح "تعزيز". وللمساعدة فى الحصول على هذا الهدف يمكن إدخال بعض أنشطة المتعة الممكنة والتى نؤديها بانتظام مثل زيادة فى تناول فنجان من القهوة، الذهاب إلى السينما، لعب الجولف أو أى شئ آخر يمكن عمله كقول شئ جميل لشخص آخر. وفى كلمات أخرى، فإن التعزيز الإيجابى يتم فى حدوثه بعد صدور السلوك المرغوب فيه. وبمجرد الوصول إلى الهدف الأساسى، عندئذ يمكن إقامة هدف جديد محدثاً تردد استجابى مرتفع.

وأحياناً، يساعد نظام آخر مشابه "النموذج الاقتصادى"، وكل تعليق فيه سرور يعتبر نقطة، وعدد معين من النقاط يكتسب قبل أن نسمح لأنفسنا بالتعزيز بالانشغال بالأنشطة الممتعة. وعدد النقاط المطلوبة يمكن زيادتها تدريجياً.

والمظهر الهام "تحسن الذات" إنه أحياناً يمكن تحقيقه بنتائج تعزيزه، فمثلاً بعض الناس يفضلون ردود فعل أفضل أو أكثر لطفاً "أكثر تعزيزاً" عندما نكون أكثر سروراً ولطفاً معهم، وعادة ما تحتوى العلاقات الشخصية الطيبة تفاعلات داخلية معززة تبادلياً.

قدم "سكينر" تحليلاً مشوقاً عن: لماذا يتأثر بعض المعالجين النفسيين التقليديين فى تعاملهم مع مشكلات سلوكية معينة:

هم يستخدمون وسيلة المستمع غير المعـــاقب: non punishing audience". فى مواقف علاجية مفتوحـــة وغــير نقديـــة، يلجـأ المرضى إلى التعبير عن السلوكيات المكبوتة فى مواقـــف أخـــرى بسبب العقاب أو التهديد بالعقاب، متناسين خبرات قد تستدعى، وقـــد يظهر العدوان مما يؤدى إلى حــــدوث ســلوكيات غــير منطقيـــة. وتختفى بعض نتائج وتأثيرات العقاب عندما تحدث سلوكيات عقابيـة سابقة أمام أو فى حضور المعالج غـــير المعـــاقب. وفـــى كلمـــات أخرى، تقل ردود الفعل الانفعالية النابعة من تلك السلوكيات.

ويقل شعور المريض بــــالذنب، والإثــم ... إلــخ وتقــل احتمالات التفكير فى الهرب أو سلوكيات الابتعاد والتجنب.

ملحوظة أخيرة يجب إضافتها، أن "سكينر" لم ينكر إمكانيــة أن بعض الضرر الجسدى أو الاضطراب يمكـــن أن يــؤدى إلـــى مشكلات سلوكية. وهو يؤكد أهمية المحددات البيئية ويشعر أن تلــك العوامل يجب أن تحلل بعناية حتـــى نتجنــب الوصــول الســريع لقرارات ونتائج غير ناضجة عن أسباب أخرى.

مقدمة الفصل الثالث

روجرز(١٩٠٢) Rogers,Carl Ransom

د. عبد القادر طه

ولد "كارل روجرز" في عام ١٩٠٢ فى "أوك بارك فى إلينوى" بالولايات المتحدة الأمريكية لأسرة شديدة الإيمان بالبروتستانتية. وقد حصل على درجة البكالوريوس من جامعة ويسكونسن فى عام ١٩٢٤، ثم تحول لدراسة علم النفس الإكلينيكى بجامعة كولومبيا حيث حصل منها على درجة الماجستير فى عام ١٩٢٨ ودرجة الدكتوراه عام ١٩٣١. بدأ حياته المهنية أخصائياً نفسياً بقسم دراسات الطفولة "كموجه إكلينيكى للأطفال المشكلين" فى روشستر بنيويورك، ثم أصبح مديراً لهذا القسم من عام ١٩٣٠ حتى ١٩٣٨، حيث استفاد كثيراً من جمع المادة العلمية لكتابه "العلاج الإكلينيكى للطفل المشكل" الذى صدر عام ١٩٣٩"، ثم أصبح مديراً لمركز روشستر للتوجيه فى عام ١٩٣٩.

وفى عام ١٩٤٠ عين أستاذاً لعلم النفس الإكلينيكى بجامعة ولاية أوهايو حيث بقى بها حتى عام ١٩٤٥، ومن عام ١٩٤٥ انتقل إلى جامعة شيكاغو كأستاذ لعلم النفس وعضو مجلس الجامعة، حيث ظل إلى عام ١٩٥٧، ومن عام ١٩٥٧ انتقل إلى جامعة ويسكونسن كأستاذ لعلم النفس والطب النفسي حتى عام

١٩٦٣، ثم اختير بعد ذلك زميلا بالمؤسسة الغربية للعلوم السلوكية في لاجولا بكاليفورنيا، وزميلا كذلك بمركز دراسات الشخص بلاجولا أيضاً. ومن الجدير بالذكر أن روجرز كان رئيساً أسبق لجمعية علم النفس الأمريكية (APA).

لقد كان روجرز في بداية السنوات العشر الأولى من مزاولته عمله الإكلينيكي متأثراً إلى حد كبير بمدرسة التحليل النفسي واتجاهات علمائها خاصة "تيودور رايخ وأوتورانك"، من المدرسة الجديدة في التحليل النفسي.

لكنه تحول بعد ذلك مكوناً له اتجاهاً خاصاً في العلاج النفسي خاصة، هو العلاج المتمركز حول العميل، أو ما يعرف أحياناً بالعلاج غير الموجه. راجع: العلاج المتمركز حول العميل، والعلاج غير الموجه. كما أنه يعتبر مشاركاً أساسياً مع "إبراهام مازلو"، راجع: مازلو، في بلورة الجانب النفسي الإنساني كاتجاه جديد في علم النفس.

وتقوم أفكار روجرز وقناعاته الأساسية في العلاج النفسي خاصة، وفي سيكلوجية الإنسان عامة على أن الحافز أو "الدافع" الأكثر تأصلاً في الإنسان والأقوى تأثيراً على شخصيته هو حافز إلى تحقيق ذاته وتقويتها، وصيانتها وتنميتها، ولذا فهو يرى أن الفرد عندما يعطى الفرصة المناسبة، وتتهيأ له الظروف السوية فإن

شخصيته سوف تنمو باطراد وبشكل إيجابى وصحى تتسم بالتوافق والنضج من تلقاء ذاتها، وكأن بها قوة أو طاقة ذاتية تدفعها نحو هذا المسار الصحى الإيجابى التلقائى. ومن هنا نلمس الدرجة العالية من التفاؤل فى نظرة روجرز للإنسان. وهو فى هذا يلتقى إلى حد كبير مع مازلو. كما أن روجرز يعتقد أن كثيراً من اتجاهات الفرد وقيمه ليست ناتجة عن خبراته الذاتية المباشرة بقدر ما هي نتيجة امتصاص من ذوى التأثير الكبير عليه ممن يحيطونه ويحتك بهم كالآباء والمدرسين والزملاء يعطيها الفرد مضامين رمزية ويستدمجها فى ذاته. وهكذا، فإن كثيراً من الأفراد تصاب شخصياتهم بالتصدع، ويحسون بالتعاسة، ويصبحون غير قادرين على التحقيق الكامل الناضج الموافق لإمكاناتهم، فيحسون التعاسة ويطلبون المساعدة من المعالج.

وعملية العلاج غير الموجه، أو العلاج المتمركز حول العميل التى ابتدعها روجرز تمكن الفرد من اكتشاف صراعاته الذاتية وأحاسيسه وأفكاره الخاصة وبالذات ما يتعلق منها باعتباره لذاته وتقييمه لها، عندما نهيئ للفرد الظروف المناسبة والمشجعة على ذلك، بجعله يتحدث بحرية مطلقة وبتلقائية كاملة عن نفسه وخبراته ومشاعره وصراعاته ... مع مقابلة كل ذلك من جانب المعالج الذى يواجه العميل، المريض أو صاحب المشكلة، بكل تقبلى

وود وتسامح، من غير أن يوجه له نقداً، مع مساعدته وتشجيعه على إعادة الثقة فى نفسه وفى قدراته حتى ينشط لديه ويقوى حافز إلى تحقيق ذاته وتنميتها وتحقيق صحتها وسلامتها. ولعل الشفاء التلقائى الذى يحدث لنا جميعاً من بعض أمراضنا أو مشكلاتنا مرجعه إلى هذا الحافز الذى يركز عليه روجرز فى طريقته العلاجية. ونظراً لأن روجرز يؤكد على الطاقات الذاتية لمن يعالجه، وعلى رغبته الذاتية فى الشفاء والنمو والصحة والتوافق، فلقد أطلق على طريقته تسمية العلاج المتمركز "حول العميل ."Client- Centered Therapy

أما أهم مؤلفات روجرز وأكثرها قيمة فمنها:

"الإرشاد والعلاج النفسى" ١٩٤٢، و"التعامل مع التوترات الاجتماعية" ١٩٤٨، و"العلاج المتمركز حول العميل" ١٩٥١، و"نحو صيرورة الشخص On Becoming a Person" ١٩٦١ و"طريق إلى الكينونة A Way of Being" ١٩٨٠.

عن موسوعة علم النفس والتحليل النفسي

أ.د فرج عبد القادر طه

الفصل الثالث

روجرز .... Rogers

الفصل الثالث

روجرز ....Rogers

دائماً ينظر إلى رؤية روجرز للإنسان على أنها "نظرية شخصية" أى راجعة لتفسير العالم النفسى روجرز. نظرية ظاهراتية أى تدرس الواقع كما هو، أو بمعنى آخر "نظرية واقعية". كل تسمية من هذه التسميات تؤكد أحد مظاهر تفكيره. فتعبير "الظاهراتية الإنسانية"، برغم استخدامه كثيراً، إلا أنه ملائم جداً كتعبير يلخص موقف روجرز من الإنسان.

فمن رأى أستاذ معروف لعلم النفس "إبراهام ماسلو"، فإن علم نفس "النزعة الإنسانية Humanist" لهو "القوة الثالثة" في مدارس علم النفس الأمريكي. المدرستان الأخريان هما: التحليل النفسى كمدرسة، وعلم نفس السلوك. روجرز إذن يمكن اعتباره جزءاً من هذه المدرسة الثالثة ومثل عالم النفس ماسلو هو يرى الإنسان ككائن لديه نزعة طبيعية نحو "الواقعية" أى التعامل مع مفردات حياته الواقعية كما هى، برغم عدم تطابق مفاهيم ماسلو وروجرز بالنسبة لتعبير "واقعية"، فهى برغم ذلك تتضمن نمو وتحقيق القدرات الأساسية لدى الإنسان. فالإنسان ينظر إليه أساساً ككائن ينزع للنمو والتطور نحو الأفضل، معنى باختبار "وجودية" ليكتمل تحقيقه لذاته.

ويفترض روجرز أن الطبيعة الإنسانية الأساسية إيجابية فى الواقع، وأنه ليس هناك شيء سلبى أو شرير بالفطرة داخل الإنسان، وأن الإنسان إن لم ندخله فى تركيبات اجتماعية فى شكل "قوالب" يصوغها المجتمع بقيمه وأعرافه، وإذا قبلناه كما هو لوجدناه كائناً "طيباً" ينمو نحو تقدم نفسه وتقدم مجتمعه.

بالنسبة لروجرز فالكائنات البشرية تحتاج إلى وترغب فى تحقيق ذاتها والتقرب لتحقيق الذات مع الآخر.

أى باختصار، جملة وتفصيلا، نظريته هى نظرة "إنسانية" للكائنات البشرية. كيف يتوائم ذلك مع "الظاهراتية" أو "الواقعية"، فالظاهراتية تؤكد أهمية تجارب الإنسان الآنية الواعى بها كالواقع الذى يعيشه. ويذهب روجرز إلى أن معرفة الإنسان بإدراكه لهذا الواقع أمر ضرورى لفهم وتفسير السلوك البشرى. وهو يقترح بأن كل منا يسلك فى حياته وفق إدراكه الذاتى والشخصى لنفسه والعالم المحيط به، أى أن الواقع من منظور شخصى ذاتى، أياً كان هذا الواقع، ليس هو المقرر والمحدد لطبيعة سلوكنا، لكن الأهم هو مفهومنا نحن نحو هذا الواقع. بعض الناس يختبر صدق هذا المفهوم بوضع هذا المفهوم على المحك مع مجموعة كبيرة من مصادر المعرفة، مثل ما يمكن تحصيله وإدراكه عن طريق كافة الحواس، وآراء الأناس المحيطين بنا، ونتيجة الدراسات العلمية

بينما نجد أناساً آخرين أقل اهتماماً بهذا التنوع في مصادر معرفة الواقع وإدراكه، ويكتفون فقط بمنظورهم الشخصي وتفسيرهم الذاتي للأشياء.

لكن الواقع أنه ليس هناك طريق واحد مؤكد لبلوغ "الواقع الحقيقي" الذي بمقتضاه نعيش نحن. روجرز يعتقد أن الانفتاح والاستجابة لكل ما يمكن تجميعه من صور المعرفة لما يحيط بنا سوف يحفظ للفرد اتجاهه السليم نحو النمو وتحقيق الذات (actualization) أي الحياة في الواقع الفعلي.

فيجب على المرء أن ينفتح ويتجاوب مع خبراته ومدركاته الناجمة عن تجارب داخلية، مثل الأحاسيس، المشاعر، الأفكار،..إلخ، بنفس مستوى تجاوبه مع البيئة الخارجية المادية. فالكائنات البشرية، وفق روجرز، لا يدركون في الحقيقة كل إمكانياتهم الكاملة؛ فهم في حالة "صيرورة ونزوع نحو اكتمال الوجود"، ومن ثم ليس من الملائم في الوقت الحالي إقرار معايير "مطلقة" لنسبية التحقق الواقعي الذي يمكن الوصول إليه. فكل شيء ممكن يجب القيام به لنضمن جو يستطيع فيه الكائنات البشرية تنمية أنفسهم كأفراد وكمجتمعات، لكن المحصلة النهائية البعيدة المدى لهذا التطور البشري يتعدى نطاق الوعي الحالي لمعرفة الإنسان الآنية لواقعه "الحالي".

كان روجرز، سواء فى أبحاثه أو خبراته فى العلاج، يتخذ زاوية اقتراب "ظاهراتية" لفهم السلوك الإنسانى. كان دائماً يحاول أن يحل أو يصل إلى ما ينحى صعوبة فهم الواقع من خلال أعين الآخر، لقد كانت مجهوداته لفهم كيف أن المرء يكون مفهومه لذاته على قدر كبير من الأهمية، تلك الافتراضات التى يكونها الإنسان عن من "هو وما هو" وعن طبيعة علاقته بالآخرين.

بعض الأمثلة قد توضح أهمية فهم الفرد للواقع عند محاولته فهم سلوكه الشخصى. فقد يدرك الفرد مثلاً أن كلباً ضخماً قادماً فى اتجاهه، كشىء مثير للخوف، بينما يكون إدراك شخص آخر لنفس هذا الحدث، "اتجاه الكلب نحوه" كشىء غير مخيف، بل ربما كلب ودود يريد التقرب إليه. واضح أن استجابة كلا الفردين لقدوم الكلب مختلفة. نفس الشىء يمكن قوله عن ثلاثة أفراد كل منهم سيغير وظيفته: واحد سيرى هذا التغيير كتحدى لقدراته، الآخر سيدركه كتهديد لأسلوب معيشته، الآخر سيعتبره مجرد حدث مثير للضيق لا أكثر. من ثم فالطريقة التى يرى كل منا بها الحقيقة هو أمر فى غاية الأهمية، فالأفراد الذين ينظرون إلى أنفسهم كأناس ليست لهم قيمة كبيرة، والذين لا يثقون فى قدرتهم على اتخاذ القرار سنجدهم يسلكون بطريقة مختلفة عن أولئك الذين يحتفظون بتقدير عال لذواتهم ويؤمنون بقدراتهم فى اتخاذ القرار المتعلق بأمور حياتهم.

باختصار، نظرية "روجرز" فى فهم الشخصية هى أساساً "نظرية شخصية ظاهراتية" تتبئ باحترام "روجرز" للكائنات البشرية كأفراد لديهم فى أساس طبيعتهم نفسها نزعة ينشد بها كل فرد النمو وتحقيق الذات، ويجب فهم هذه النزعة فى ضوء مفهوم كل فرد للواقع كما يدركه. "وروجرز" يعتقد أننا لو حررنا الإنسان من المؤثرات المفسدة للمجتمع والمقيدة للإنسان، لكان جديراً بهذا الإنسان أن يوظف قدراته الشخصية والتفاعلية مع الآخرين، وأن يتفادى تشويه الحقيقة التى تمنعه من تحقيق نمواً أفضل وتحقيقاً أفضل للذات أو الـ Actualisation.

الحتمية (الجبرية) والحرية

Determinism plus freedom

إن قضية "الجبرية" أى أن الإنسان مجبر على شئ ما أو سلوك ما أو واقع ما، ومن ثم فالسلوك محتم وفق عدة عوامل خارجية ليست نابعة من داخل الإنسان، وبالتالى ليس بمقدوره التحكم فيها.

هذا المفهوم إذا وضعناه مقابل أو مناقض لمفهوم حرية الإنسان فى الاختيار، مبدأ "الحرية" بمعنى أن الفرد يسلك وفق اختياره الشخصى النابع من إرادته هو، هذا التقابل بين المفهومين نجده مركزى فى طريقة تفكير روجرز. فهو يتخذ لنفسه موقفاً

فكرياً وسطاً يجمع بين المفهومين. فمن ناحية يقرر أن الحتمية هـي حجر الزاوية "للعلم"، وأنه كعالم يمكن أن يقبل أن السـلوك حتمـي بطبيعته. وهو يعتقد أن كم المعرفة التى لها قيمـة يمكـن جمعـها بدراسة الهدف، العوامل المحددة التى تؤثر فى السلوك البشـوى، إلا أنه يستمر فى مقولة أن هذه المعلومات تستثمر بطريقة فعالة فقـط عندما نضيف إليها كم المعلومات المستفادة من مصادر أخـرى أى التى نكشف بها عن الخبرة الذاتية الشخصية للفرد نفسه ومن فـهم هذا الفرد للآخرين. بكلمات أخرى فإن البحث العلمي الموضوعـي "القائم على افتراضات حتمية" له مكان فى دراسة البشر، إلا أن هذه الطريقة محدودة لأنها تستبعد الخبرات الإنسانية الذاتية، أى مجمـل الأحاسيس الداخلية والأفكار والمشاعر والذكريات ... إلخ. ولفـهم هذه الخبرة بشكل أكمل على كل فرد أن يقيم نفسـه، وأن يحـاول الوصول إلى فهم مؤكد، أى الوصول إلى معرفة حقيقـة الظواهـر المحيطة به ولتجارب الآخرين.

إن روجرز كعالم، يقر بفائدة مبدأ الحتمية. لكن كمعالج فهو يتخذ موقفاً مختلف، فقد اختبر بنفسه مدى فائدة إدراكـه للسـلوك البشرى، فى علاقات العلاج، كممارسة الفرد لحرية الاختيار التـي تقوم على انفتاح الإنسان وتجاوبه مع مجمل التجارب ككـل. وهـو يقترح من تقدم العلاج أن الفرد يكتسب أكثر فـأكثر القـدرة علـى

اتخاذ قراراته، ويسلك بالتالي وفق هذه القرارات. فهو يعتقد أن مرضاه يتجهون نحو الحرية عندما يصبحون في موقف أقل كمدافعين عن أنفسهم أو أقل تشوشاً في تجاوبهم مع تجاربهم الداخلية وبيئتهم الاجتماعية والمادية. فالأفراد الذين يفتقرون للتوافق مع الآخرين في المجتمع هم أقل حرية، سلوكهم مجمداً في قوالب. وهم في الغالب غير قادرين على الاختيار الحر ويشعرون مرارا أنهم في دائرة النواهي المحيطة بهم والمقيدة لسلوكهم، وهذا مرده أنهم يفكرون أو يشوهون خبراتهم الداخلية، ونفس الشيء بالنسبة لظروفهم البيئية.

يؤمن روجرز، أن الفرد عندما يعمل قدراته بطريقة سليمة، فهو في نفس الوقت يشعر بحرية كبيرة، نفس هذا الفرد يسلك كما لو كان حراً. أي يمكن القول أنه يختار أن يسلك بطريقة لها فاعلية ومؤثرة متوافقة مع ما يواجهه من مثيرات خارجية وداخلية موجودة بالفعل، إلا أنه من وجهة نظر أخرى، يمكن القول أن سلوكه محتم أيضاً بكل العوامل الموجودة، إذ أن بعض أنماط السلوك ستكون مرضية ومشبعة أكثر من أنماط أخرى. ويبدو أن روجرز يقصد "إن في نفس الوقت الذي يختار فيه الفرد سلوكه فإن هذا السلوك محتم بالعوامل والظروف الموجودة في الواقع بالفعل، إن الشخص المتفتح والمتجاوب على وعي كامل بما يشعر به داخل

نفسه وهو واع أيضاً بالعوامل الخارجية الموجودة والمحيطة به. فهو فرد حر، لكنه يتخذ نوعاً من السلوك وفق ما هو موجود من مثيرات متاحة. فهناك أنواع من السلوك أكثر فاعلية وفق كلا المفاهيم الشخصية والموضوعية. وفى هذه الحالة فليس هناك حقيقة، ثمة تناقض بين الإرادة الحرة للإنسان وبين حتمية سلوكه، فى الواقع الاثنان يحدثان فى نفس الوقت معاً.

إن بدأ لكم أن هذه المناقشات الفلسفية مجهدة، اتبعوا ما تمليه عليكم قلوبكم.

روجرز نفسه يعترف بأنه وقع فى حيرة إزاء التناقض القائم بين الحرية والحتمية.

أحد أهم أفكاره فى هذا الخصوص هو فائدة توضيح وجود كل من الافتراضين لتفسير السلوك فالحتمية تخدم وظيفة حيوية فى التحليل العلمى، والنزعة نحو الحرية لها أهميتها للسلوك الفردى والجمعى "كمثال فى العلاقات العلاجية مع المرضى".

مصادر المعلومات: Sources of Data

تطورت أفكار روجرز أساسا فى نطاق العلاقة العلاجية "بين المعالج والمريض النفسى" كمركز للاهتمام والعناية. يجب هنا أن نشير إلى نوعية العلاج الذى اتبعه روجرز. يستخدم روجرز تعبير "العميل" بدلا من المريض لتؤكد جانب الإسهام الإيجابى

والفعال للمريض فى مسيرة العلاج، ولتنفى صفة المرض عن الإنسان الذى يطلب العون النفسى، وإنه من ثم ليس كائناً يخضعه المعالج لتجاربه النفسية أو العلمية.

إن تركيز الضوء على العلاقة بين المعالج وعميله يتم ليؤكد أن العميل يبذل مجهوداً بالفعل للتخلص من اضطراباته/ معاناته، وأنه يبحث عن سبل ووسائل مرضية ولها دلالتها لكى يعيش بصورة مرضية وسليمة وسوية. ويعتقد روجرز بالفعل أن الإنسان لديه القدرة على أن يضع يده بالضبط على ما يجعله غير سعيد فى حياته وأنه يستطيع أن يساهم فى إحداث التغييرات اللازمة للتخلص من أسباب عدم رضاه. قد تكون هذه القدرة لدى المريض خفية وغير ظاهرة، بسبب بعض المؤثرات السلبية من الوالدين أو المجتمع المحيط بالإنسان، فى هذه الحالة تستطيع العلاقة بين المعالج/ والعميل أن تجند اتجاهات العميل الداخلية غير الظاهرة لتساعده على الفهم والنمو، والتقدم فى حالته. يستطيع المعالج أن ينشئ علاقة حميمة ودافئة يستطيع من خلالها المريض العميل أن يعبر عن نفسه بوضوح وعدم تقيد وبحرية، طريقة الاقتراب من العميل تعتبر نسبياً غير موجهة لتصرفاته، فليس من مهام المعالج أن يسدى النصح أو أن يقوم حياة المريض إلى الطريق الصحيح. الأحرى به أن يقدم القبول والفهم وأحيانا

التوضيح أثناء عملية كفاح المريض ومعاناته ليصبح أكثر وعياً بنوازعه الداخلية وتجاربه غير المدركة، والمؤثرات البيئية/ الاجتماعية المؤثرة في سلوكه. العميل هنا ليس كائن سلبي بتاتاً.

بعض هذه الأفكار والوعي بمدى تفردها تبلورت أمام روجرز في سنة ١٩٤٠ واستمر حينئذ في ملاحظة ومحاولة تأكيد مصاعب المريض العميل، ومدى تقدمه نحو حياة غير مرضية سوية، وخلال هذه العملية كان يكون وينمي افتراضاته النظرية والعملية في علم النفس.

هناك تأثير متبادل بين النظرية وسبل العلاج، إذ ظل ينشئ افتراضات من واقع تجارب المرضى وبالتالي يحاول أن يضع هذه الافتراضات النظرية على المحك "يجربها" مع الحالات التي ترد للعيادة النفسية. بعد ذلك ما كان يصل إليه من دلائل أثناء علاجه للحالات كانت تدعم أراءه عن الطبيعة الأصيلة للنفس البشرية، وعن الطرق التي تؤدي إلى الصدام مع أو تدعيم نوازع هذه النفس البشرية. وفي السنين الأخيرة انغمس روجرز أكثر في العلاج الجماعي، ومن خلال طرق المقابلة بين المرضى والمعالج استطاع أن يدرس العلاقات القوية والحميمة بين الأفراد في الجموع العلاجية.

وروجرز أيضاً له اهتماماته بسبل التدريس والتربية في مدارس الولايات المتحدة، وهو يعتقد بالتالى أن أفكاره وتجاربه العيادية لها قيمتها، وأن تجاربه المستمرة المنفتحة على الناس لها أهميتها في هذا المجال التعليمي. إلا أن روجرز لم يكن راضياً تماماً بقرارته ذات الصبغة الشخصية / غير الموضوعية فيما يخص صدق وصحة افتراضاته العلمية. فحاول مع نفر من زملائه أن يدعم مختلف تلك الافتراضات التي تعني بنزعة الفرد نحو النمو وتحقيق ذاته، بأن أخذوا يدرسون، وبصورة موضوعية، تماما التغيرات بعد وخلال جلسات العلاج المعتمد بصورة مركزة على المريض. مثلاً قاموا بعدة تسجيلات لجلسات متتالية أثناء العملية العلاجية النفسية، بموافقة المريض بالطبع، عن طريق تحليل تلك الجلسات تأكد وجود تغيرات منتظمة ونمطية "متماثلة في الطابع" في ظروف تكون العلاقات الحميمة والتبادل للاهتمام الإنساني بين المعالج ومرضاه. مثلاً:

١) بدأت تختفي تدريجياً عبارات "أنا أعاني من مشكلة". "أنا مهموم". "أنا أشعر بالدونية". من مفردات المريض وأحاديثه في التسجيلات.

٢) الاستبصار الذاتي والوعي بالنفس وقبول الفرد لنفسه، بدأت تعبيراتها تظهر. وأيضاً تعبيرات تنم عن قبول المريض

للآخرين، وبدأ ذكر خطط يضعها المريض لنفسه، وأهدافاً يريد تحقيقها، وقرارات استطاع أن يتخذها. تزيد هذه التعبيرات بالتدريج كلما تقدم "روجرز" فى جلسات العلاج.

وليس هناك بالطبع إجماع، بأن كل مريض حتماً سيمر بهذه التطورات، لكن روجرز كان مقتنعاً بعدد من تحسنت حالاتهم بهذا النمط وهذا التطور الإيجابى.

وهناك طريقة تم تطبيقها بنجاح فى دراسة التغيرات التى تطرأ على المريض فى مفهومه عن نفسه أثناء مسار العلاج هى طريقة (Q – sort). ففي بداية جلسات العلاج من الطبيعى أن يكون هناك فروقاً كبيرة فى تقدير كل مريض لنفسه، وفهمه للصورة المثالية عن نفسه. هذا الفارق بين تلك الصورة المثالية، وحقيقته الواقعية، يمكن اقتباسها بالـ (Q – sort) (أى طريقة – Q أو أسلوب Q فى القياس) التى تمدنا بقياس موضوعى أو معيارى موضوعى لتجارب واختبارات المريض الشخصية الخاصة به. مثلاً تطلب من المريض "أو العميل كما يسميه روجرز" أن يختار أو ينتقي مائة كارت مكتوب عليها عبارات مثل "أنا كسول" أو "أنا أشعر بالذنب" أو "أنا عادة أشعر بالسعادة" أو "أنا أعبر عن نفسى بصراحة"...

هذه العبارات المطبوعة توضع بطريقة تبدأ بـ "عبـــارات ممثلة لى تماماً" وتتدرج إلى أن تنتهى بنوعية "لا تمثلنـــى أو تعــبر عنى على الإطلاق". الأسلوب العادى والنمطى أن العميل ســيختار ما بين ٩ إلى ١١ كارت، والكروت الوسطى على المنضــدة تمثــل عادة الكروت التى بها عبارات "محـــايدة" أى لا تشــبه ولا تؤكــد شخصية المريض/ العميل... كسول ... نشيط... إلخ مثلاً، ويتـــم تذكرة المريض بأن عبارات من كل نوع موجودة بالفعل داخل كــل كومة من الكروت. وهذا لضمان التفرقة بين الكروت بحيث يكــون اختيار المريض للكارت المعبر عن حالته أكثر فاعليــة ... عندمــا يختار المريض لكارت معين على أساس أنه معبر عن واقعه، ثــم بعد ذلك على أساس تصوير صورته المثالية عن نفســه: شــجاع.. نشيط... إلخ. فإن التفاعل بين واقعهم الحقيقى وما يصبو كل واحــد منهم لأن يكون "صورته المثالية عن نفسه" يمكن فى هـــذه الحالــة قياسها بصورة حسابية أو كمية "بمقارنة الكروت" بإتبــاع الطريقــة التى تسمى "تقابلية" أى مقابلة أو مقارنة مضمون الكـــارت المعــبر عن واقع المريض بالكارت المفروض أن يمثل "صورته المثاليــة". هذه الطريقة، كما أوضحنا سلفا، يمكن تطبيقها قبل أو أثناء أو بعــد جلسة العلاج لتوضيح الفرق بين تقدير الفرد لنفسه، وبين تصــوره المثالى لشخصيته وقدراته. ما أوضحته هذه الدراسة، هو ما يؤيــد

ما ذهب إليه روجرز، أن الفرق بين التصورين يضيق كلما استمر العلاج وبدأ التحسن فى حالة العميل "المريض". فمع التقدم فى العلاج على مر الجلسات المتتابعة، يصبح العميل أقل مثالية، وأكثر وعياً بحالته وواقعه الفعلى. أيضاً، نلاحظ تحسن حالة المريض ونقصان إحساسه بالضيق وعدم التوافق. وحتى برغم عدم الوصول إلى هذه النتائج "دائماً" فى حالة كل عميل/ مريض، فإن ما توصل إليه روجرز بهذا الأسلوب ليدعم افتراضات روجرز فيما يتعلق بالظروف والأوضاع المؤدية إلى التغيرات الإيجابية المحسنة فى تصور المريض عن نفسه. فهو بالتدريج يبدأ فى الوثوق فى قدرته على الفهم والتعامل مع تجاربه البشرية سواء مشاعره الداخلية أو تعاملاته الخارجية مع العالم المحيط به، هذا إذا تم خلق "الجو" العلاجى الملائم. معنى هذا الجو الإحساس بدفء العلاقة والقبول من أناس يشعر المريض أنهم مهمين بالنسبة له، مثل موقف المعالج فى هذا الموقف العلاجى الذى يكون المريض فيه هو موضع الاهتمام، وهو ما كان يفتقر إليه المريض فى السابق.

وهنا يجب ملاحظة أن روجرز كان سباقاً إلى الإقرار بأن طريقة تفكيره يرجع جذورها إلى خلفيته الثقافية المجتمعية، والتى ترجع إلى إحاطته بتقاليد وأعراف يهودية مسيحية منذ نشأته، إلى

جانب خبراته هو الذاتية وعمله العلاجـــى. كمـــا أن أبحاثـــه فـــى الدراسات النفسية لها نفس التأثير فى هذا السياق.

وهو يأمل مع ذلك، برغم خصوصية أفكاره، أن تكون هـــذه الأفكار عامة وعالمية الطابع. هدفه هو تطوير مفاهيم أساسية تفسـر الطريق التى يعمل بها الأفراد ويوظف قدراته التى يمكن تعميمـــها على البشر جميعاً. هذا برغم إقراره أن هـــذا الأمـــر فـــى غايـــة الصعوبة، أى الوصول إلى أفكار لها صفة الشمولية والعالمية والتى يمكن أن تنطبق على أى فرد فى أى مجتمع.

وفى محاولة منه لتوضيح افتراضاتـــه عـــن الخصـــائص الفطرية الإنسانية، شعر أنه يعرض هذه الافتراضـــات لأن تكـــون تحت المحك وعرضة للنقد والتمحيص.

إن كل ما عرضناه هنا هو مجرد أمثلة لمحاولات البحـــث النفسى للوصول إلى دلائل موضوعية علمية تمثل عدة افتراضـــات عرضها روجرز، لكن يمكن عرض اجتهادات أخرى بعضها مؤيـــد لافتراضات روجرز، والبعض الآخر على العكس يقـــدم معلومـــات تعارض هذه الافتراضات. المهم فى الأمر أن أراءه عـــن الإنســـان تبقى مهمة وتستحق العناية، وقابلة للبقاء والاستمرار.

نناقش بعد ذلك عدة مفاهيم ومبادئ طورها روجرز لشـرح نمو الشخصية، وبناؤها، مما يشكل نظريته لفهم الشخصية. وقد تـم بالفعل عرض بعض هذه المفاهيم.

النزعة نحو "الحقيقة" أو الواقعية Actualization

فى رأى روجرز أن ما هو كائن بالفعل أو حقيقى وواقعـى هو الأساس الوحيد لفهم الطبيعة البشرية الإنسانية. فـهو يعتقـد أن الكائن البشرى بطبيعته الفطرية يـنزع لأن يكـون، وأن يحتفـظ بوجوده، وأن ينمى هذا الوجود، وهو ما يعنيه النمو وتحقيق الـذات التى استخدمناها سابقاً، والتى تشير إلى مظاهر الكينونة أو واقعيـة الكائن البشرى، وبصفة عامة يمكن اعتبارها كمعادل لهذا المصطلح "الواقعية أو الكينونة الفعلية Actualization".

ومع ذلك فإن هذا المصطلح يتضمن بالمثل الحفـاظ علـى الكائن البشرى.

فى رأى روجرز أن الكائن يولد لكى ينمو بشـكل إيجـابى ومثمر لكى يحقق ذاته. نحن بطبيعتنا مفطورين أساساً على النشـاط والتقدم نحو صورة أكثر تطوراً، ولو واتتنا ظروف مواتية سـنتجه نحو تنمية وتعظيم قدراتنا لكى تبلغ حدها الأقصى. خصائص هـذا النمو تختلف من إنسان إلى إنسان، أى أنه ليس بالضرورة أن كـل كائن سيتبع نفس النمط عندما تكون الظروف مواتية له لكى يحقـق

ذاته. فمثلاً نجد فرداً ينمو نحو الحياة الأسرية وتربية الأطفال محاولا الرقى بقدراته فى هذا المجال، بينما نجد شخصاً آخر كل همه تطوير كفاءته المهنية والوظيفية فى عمله أو حرفته، وأن يدخل فى علاقات تطوير مع الزمن لكن خارج نطاق الزواج. يفترض روجرز أنه ليس هناك ضرورة لافتراض دوافع مختلفة لكل نمط من هذين السلوكين. يكفى الاستمرار مع دراسة الظروف التى حقق كل من هذين النمطين نفسه من خلالها، مع ما قد يتضمنه ذلك من سلوك معين.

إن التحققية أو الطبيعية برغم أنها تختلف من شخص إلى آخر، يمكن مع ذلك وجود سمة عامة لها، ومن أهم صفات هذه السمة هى المرونة بدلا من التصلب، والانفتاح على العالم بدلا من اتخاذ موقف دفاعى تجاهه، والدافعية الذاتية، بمعنى التحرر المتزايد من سيطرة العوامل الخارجية على الإنسان بدلا من التبعية.

إن روجرز يضع مفهوم التوظيف الكامل لطاقات وطبيعة الإنسان بدلا من تحليل كل سلوك منفرد، كل على حدة، كشىء منفصل. فمفهومه لتحقيق الإنسان لطبيعته مفهوم ينظر إلى الكائن البشرى ككائن شامل متكامل غير مجزأ، وهذه النزعة هى المصدر الرئيسى لطاقة الإنسان فى حياته. والتى تجمع طاقته نحو البقاء والتقدم والتحسن، وهى تشمل، إلى ما سبق أن ذكرناه، مجالات مثل

الحصول على الماء والهواء والطعام وكافة احتياجات الإنسان، مع تباين وظائف أعضاء الإنسان، وفاعليته المتزايدة لاستخدام الآلات وغيرها مما توفره الحضارة من وسائل، وإشباع ذاته من خلال إعادة إنتاج الأشياء، أو إعادة صياغتها.

فالكائن البشرى الذى يتمتع بصحة جيدة هو نتاج محاولته لإثبات "طبيعته Actualization" إذا وجدت الظروف التى تؤدى إلى هذه النتيجة من نمو الإنسان نحو تحقيق واقعه الطبيعى. أهم هذه الظروف وجود بيئة تسمح للآخر بتقبله خاصة عندما يكون هذا الآخر مهما بالنسبة للإنسانى.

النفس ومدى تحقيقها لطبيعتها

Self and Self- Actualization

إن نزوع النفس إلى تحقيق طبيعتها وذاتها لهو أمر هام فى علم نفس روجرز، لدرجة أن نظريته يشار إليها أحيانا نظرية "تحقيق النفس لطبيعتها". فالنفس هى نتاج لمظاهر متعددة لخبرات الفرد فى الحياة.

فالطفل المولود حديثا هو كائن كل تجاربه الداخلية، والتى يشار إليها بتعبير آخر بالمجال الظاهرى أو العالم غير الموضوعي، هو نسبيا جماع أحاسيس ومدركات لا تفرق بين مفردات العالم الخارجى، والتى تكون فى النهاية حقيقة أو طبيعة

المولود. ثم أثناء محاولة الكائن لتحقيق طبيعته من خـــلال عمليـــة مستمرة من الحفاظ على وجوده وتطوير قدراته الفطريـــة، يحـــدث التفاعل المتبادل بين هذا الكائن الوليد والعالم المحيـــط مـــن أنـــاس "كالأم أو الأب". أثناء حدوث هذا فإن جزءا من تجربة الطفل ككائن حى، تبدأ فى التعرف على "الذات" وإدراك "مفهوم الذات". بعـــض أحاسيسه ومدركاته تصبح لها خاصية "أنا" "شخصى" أو "ذاتـــى" أو متعلقة "بى" أو" بشخصى" أو "بذاتى". هذه تجارب أو خبرات "ذاتية"

ويذهب روجرز إلى أن هناك نزعة للذات بأن تكـــون فـــى حالة سيولة وعدم جمود وتغير تشمل "النفس" كلها، لكـــن فـــى أى مرحلة من مراحل التطور سنجد أن لها خاصيات متفـــردة يمكن على الأقل قياسها "موضوعيا"، مثل أسلوب قيـــاس الـــ"()-sort" الذى أشرنا إليه. والنفس كما يعرضها روجرز هنا فهى جزء من التجربة البشرية الكلية للكائن البشرى. فقد يكـــون الشـــخص غير واعى كليا وتماما فى أى وقت من الأوقات بكل تجاربه الإنســانية التى تشكل أو لها علاقة بـــ "ذاته"، لكن هذا الوعى يبقى مع ذلـــك ممكنا ونحن أحيانا نجد صعوبة لذكر شىء فى مصطلحات بسيطة دون أن تفقد هذه المصطلحات جزء هام من معناها.

ومع ذلك فهى بالتالى محاولة لإعادة صياغة ما ذكرناه فى الفقرتين السابقتين مع إضافة نقاط أخرى لسهولة الشرح والتوضيح

الطفل عند ولادته لا يكون واعيا "بذاته" ككيـــان متفـــرد، إلا أنـــه، وبصفة عامة يحس. مع نمو الطفل ومع تعامل الوالدين والأشــخاص المهمين بالنسبة له يبدأ إدراك الطفل أن هناك أشياء "خاصة به" ثــم نجده يستخدم عبارات أو إشارات بمعنى "أنا أريد" أو "أنا أشــعر ب" مثل "أعطنى هذا" أو أن " هذا بتاعى أو ملكى" أو "دعنى أفعل كذا".

هذه المفاهيم الذاتية أو إدراك الطفل الفطرى لذاته هى قابلة للتغـــير فأحيانا يشعر الطفل "بالسعادة"، وأحيانا يشعر "بعدم الأمان"، وأحيانــا يشعر "بالعدوانية" نحو الآخر. وهكذا بعض الأشخاص قد يســتمرون فى الإحساس بهذه المشاعر أو المدركات أو الأحاسيس، أو الأفكار، أو الذكريات، ويدخلون مثل هذه الخبرات داخل ذواتهم أو إدراكـــهم لأنفسهم. آخرين لا يقدرون إلا على تكوين مفاهيم جامدة عن "مـــن هم" أو "ماذا هم". يعتقد روجرز بأن الإنسان قادر علـــــى تكويـــن، بشكل إيجابى، أو بناء خبرات كلية تحقق له ذاته، لكن لكى يتم لـــــه ذلك فهو بحاجة للصراحة والوضوح والانفتاح على تجاربه. هذا قــد يشجعه أو لا يشجعه عليه الآخرون "مثل الوالدين أثناء الطفولـــة، أو رفقاء تجربة الزواج، أو المقربين منه كأصدقائه فى فترة البلـــوغ"، فلو أن الآخرين قد تقبلوا مختلـــف التجـــارب الداخليـــة الإنســـانية للشخص، فإن مفهوم هذا الشخص عن نفسه سيكون مفهوما "غنيـــا"، إذ لن يكون عليه إعادة تشكيل هذا المفهوم ليلائم معايير الآخريـــن

"وهو ما سنعالجه فيما بعد". مع تطور الذات أو فهم الكائن لذاته فإن نزعة الإنسان لتحقيق نفسه ستصبح بالفعل واقعا يتمثل فيه ذلك الجزء من الشخصية البازغة أو المتكونة لهذا الكائن، يسمى روجرز هذا "النزعة لأن يكون الفرد خليقا بتحقيق طبيعته بصورة واقعية"، هذه النزعة أو الإرادة يمكن اعتبارها النبتة الأساسية لوجود الإنسان فى الحياة. النمو هو نتاج تطور الكائن نحو البقاء وتحقيق ذاته بشكل أفضل.

قبل الاستطراد، هناك تلخيص سريع لما عرضناه، فروجرز ذو نزعة "إنسانية" بمعنى أنه يؤمن بأن الإنسان "طيب" بالفطرة، وأنه ينمو نحو النمو والتطور. ثم أن روجرز يؤمن بالطبيعة، وهى وجهة نظر تحترم "طبيعة الإنسان" وتحقيقه لذاته فى الواقع، أو بمعنى أوضح أنه من المهم أن نعى مفهوم الشخص لذاته ولواقع مفردات الحياة التى يعيش فيها، أو كيف يفهمها ويدركها إذا كان لنا بالفعل رغبة حقيقية لفهم سلوكه، وروجرز يعتقد أن "الجبرية" كوجهة نظر تلائم عالم النفس الذى يريد أن يربط السبب بالنتيجة فى سلوك الفرد، لكن الأهم، وبشكل أساسى فى ظروف أخرى، أن نعتبر الإنسان كائن له "حريته"، وقد تتبع روجرز دراسته للإنسان سواء من ناحية علمية موضوعية، أو من ناحية علاجية كحالات فى العيادة، لها علاقات شخصية بعيدة عن

الموضوعية قد تكـــون بيـــن الشـــخص والمعـــالج، أو الشـــخص والمحيطين به فى مجتمعه.

يرى روجرز أن الافتراض الأساسى فى علم النفس، والذى يرى أن الكائن الحى هو مركز كل الخبرات والتجارب، هو تعبـــير فنى علمى أكثر منه تعبير عن الكائن الـــذى لـــه وجـــود بشـــرى، human Bein له نزعة نحو تحقيق ذاته Actualization كأساس متفرد لكل دوافعه الإنسانية. هذه النزعة نحـــو "الطبيعيـــة" تخـــدم غرض بقاء الكائن وتطوره نحو الأفضل فى تجاربه وقدراتـــه، أى أنها تشجعه وتدفعه إلى أن يكون بطبيعته الإنسانية المتخلقـــة فـــى الواقع. ومن نتائج هذه النزعة نحو النمو وتطوير واستغلال قدراتـــه يمكن الوصول إلى تكوين مفهوم عن الذات لـــدى الكـــائن. بعـــض جوانب النزعة نحو تحقيق الذات فى الواقع تنمو نحو استغلالها مـــن قبل الكائن الإنسانى فى تحقيق مفهوم الذات وهذا هو مـــا يصطلـــح روجرز على تسميته بنزعة الكائن البشرى نحو الطبيعيـــة الذاتيـــة Self- Actualization tendency.

عملية تقييم العنصر البشرى لنفسه

إن هذا المفهوم يمكن اعتباره كمكمل لنزعة "تحقيق الكـــائن لنفسه فى الواقع". إنه يصف عملية مصاحبة لتلك النزعة وتســـاعد

فى شرح، بتفصيل أكثر، الاتجاه الإيجابى للكائن البشرى نحو النمو والتطور.

فى رأى روجرز أن عملية التقييم العضوى عند الأطفال لهى عملية كفؤ تتم على أساس قوى. قيم الطفل واضحة جدا: ما يرغب فيه وما يكرهه أمر واضح تماما. فالتجارب التى تحافظ على العنصر البشرى وتنميه هى المفضلة لديه، والعكس صحيح. كما أن القيم الإيجابية المفضلة مرتبطة عادة بإحساس الدفء والأمان والتدليل والاحتضان، إلى جانب ما تقدمه هذه التجارب فى تنمية الطفل من تعرف على جسمه، وتعلم للمشى، والقدرة على اللعب بلعب جديدة، أوضح روجرز أن الأطفال يظهرون حب استطلاع لا حد له. أما الشعور بالألم أو الأصوات المقلقة العالية، أو الأشياء ذات المذاق المر كالدواء، فهى تعتبر قيما سلبية بالنسبة للطفل وتجارب مؤلمة لا يرغبها.

يبدأ الكائن فى الحياة بمعرفة ما يحبه وما يكرهه، وما هو طيب أو غير طيب بالنسبة لنا. فى مرحلة الطفولة هذا التقييم وهذه التفرقة تتم بصورة مضطردة ومرنة، حيث تعمل بسلاسة. المعيار المطبق هنا بالنسبة للطفل فى التقييم الإيجابى أو السلبى للأشياء، هو وفق ما إذا كان هذا الشىء يحافظ على نموه ويطوره أو

العكس، فهى عملية تقييم، تتم، فى هذه المرحلة، بتلقائية وطبيعية دون حكم مسبق أو تفكير مفصل.

يعتقد روجرز أننا فى الحقيقة سوف نكون فى حالة نفسية أفضل لو رجعنا إلى هذا الأسلوب البسيط فى التقييم، أى لو تمت عملية تقييمنا للأشياء والخبرات بسلاسة وبطبيعية ومرونة، دون تفكير وتعقيد كثير. عملية التقييم هذه تحدث داخل الإنسان نفسه وهى مرتبطة بصورة حميمة مع تجاربه السارة أو غير المرغوب فيها، وبمدى فهمه لهذه التجربة أو تلك، أو شعوره بالحيرة والضيق اتجاهها. لكن ماذا يحدث لهذا الدليل الفطرى الداخلى داخل الإنسان الحى؟!

يعتقد روجرز أننا مع إدراك مرحلة البلوغ فإن الكثير منا ينفصل عن تلك العملية السلسة الطبيعية. فنحن ننمو نحو عدم المرونة وعدم التأكد من قيمنا وعدم الإحساس بالراحة، ونبدأ تجارب الحياة فى صورة دفاعية ضد تجارب بدأنا نشك فى صحتها وتبدأ مراحل القلق والتوتر المرتبطة بالبلوغ، فيتوقف العمل السليم والصحيح لعملية التقييم السابقة لمعايير كنا نسلم بها فى سلاسة ومرونة وكادت تفضى بنا إلى نوع من تحقيق طبيعتنا فى الواقع. والآن دعونا نناقش هذا الأمر فى الفقرات القادمة بشكل أكمل.

التقدير الإيجابى غير المشروط

عندما تتطور النفس، يبغى الشخص الحب والقبول من الآخر، أى تكون فى حاجة لكى نحصل على التقدير الإيجابى من الآخرين، ويذهب "روجرز" إلى أن هذه الحاجة "لأن يقدرنا الآخرون" هى حاجة فطرية طبيعية، وبسبب هذه الحاجة تنشأ أهمية كبيرة للآخرين فى حياة الطفل "مثل الوالدين"، وأيضا فى حياة البالغ لأنهم منح أو منع للحب أو القبول. وقد يتفوق تأثيرهم على تأثير تقييم الشخص لنفسه، أى أنه يشعر أنه مقبول ومحبوب من رد فعل الآخرين نحوه، أكثر من تقييمه هو لنفسه كمحبوب أو مقبول. ومن ثم نجد الطفل أحيانا يجبر نفسه على سلوك يرضى الوالدين والآخرين الذين يشعر بأهميتهم لديه، على حساب أحاسيسه هو الشخصية وما يرغب فيه. أى أن الطفل بالتدريج، يكون أقل رغبة للنظر فى داخله لإشباعها ويتجه بالتدريج إلى كونه كائنا اجتماعيا يبغى التقدير الإيجابى من المجتمع. ومنذ التنشئة الأولى عندما نتعلم أن نقيم أنفسنا كما يرانا الآخرون، سنجد أن هذا التفاعل المتبادل بين تقييم الشخص لنفسه وقيم مجتمعه بنسب متفاوتة، يختلف عن الأسلوب القديم غير المرن الذى يعتمد على تقييم الشخص لذاته فقط دون أى اعتبار للآخر. ويشير "روجرز" إلى عدة قيم مكتسبة يتعلمها المرء من حياته المنزلية، أو مجتمعه المدرسى، أو من

مجتمع الكنيسة، أو في تعامله مع الإدارات الحكومية وموظفيها...إلخ. هذه القيم قد تختلف مع قيم الإنسان الناجمة عن خبراته الذاتية ومشاعره الداخلية، لكن الكائن البشرى يضحى ويقبل هذه القيم الناتجة عن تفاعله مع المحيطين به ليظفر بـ"قبول" الآخرين له، وهو شئ هام. مثلا: ممارسة الجنس دون ضابط قيمة سلبية مكروهة.

الامتثال لتعاليم السلطة: الأب، الواعظ، المدرس، أو الحاكم أمر طيب، أو اكتساب المال لكى ينفق المرء على نفسه قيمة إيجابية، إضاعة الوقت فى تعلم عشوائى غير منهجى قيمة سلبية، ثم أيضا الإيمان بمبادئ الشيوعية أمر سيئ للغاية "من وجهة نظر الرأسمالية".

ويمكن ضرب أمثلة كثيرة أخرى تؤدى نفس المعنى، كعدم لياقة احتضان الرجال لبعضهم عند اللقاء، أو عدم قبول الاستقلال الزائد للنساء كأصحاب القرار الأخير فى شئون حياتنا...إلخ.

فالنقطة الهامة هنا أن تقييم الإنسان لذاته وتقديره لها، واحترامه لنفسه وقيمته، يحددها فى النهاية هذه القيم التى يفضلها المجتمع. وكما يشير روجرز يصبح الإنسان هو نفسه الكائن الاجتماعى المهم الذى يجب مراعاة قيمه، أو بكلام آخر، يصبح هو "الآخر" الذى يسعى الإنسان إلى ترضيته وطلب القبول منه. هنا

تقدير الإنسان لنفسه يتضمن تلقائيا البعد عن الممارسات والأفكار والتصرفات التى يتعارف "الآخر" على عدم إيجابيتها أو مشروعيتها. وبالتالي فالممارسات التى يجب أن يمارسها الكائن كنوع من تحقيق ذاته فى العالم الواقعى ككائن حى، يجب الامتناع عنها إذا كان "الآخر" قد تعارف على سلبيتها وكراهيتها وعدم ثبوتها. القيم المفروضة سيكون لها الغلبة على نزعة الكائن الفطرية نحو البقاء والتطور فى مقابل حصوله على تقدير الآخر، أو المجتمع المحيط بهذا الكائن. المهم هو الحصول على "التقدير الإيجابى" من الآخر للفرد بحيث يقود هذا أحيانا إلى انفصال بين تجارب الشخص الذاتية ورغباته، سواء الجنس أو الحب أو خلافه، عن سلوكه الاجتماعى النابع من تقييمه الجديد "لذاته" لكن هذه المرة تقييم الذات سيكون من خلال "المجتمع"، وليس من خلال الرغبات والنوازع الشخصية، وهو أمر يبدو أكثر وضوحا فى علاقة الفتاة وسلوكها بحرية مطلقة وغير مقيدة مع الآخرين. هذا الموقف يعتبره روجرز "غير صحى" "وغير طبيعى أو تلقائى" مثل العلاقات الجنسية غير المقيدة.

لكن هل يجب أن يتم هذا الانفصال بين تجارب الشخص المعتمدة على نوازع داخلية شخصية وبين ما يقوم به من سلوك غايته إرضاء المجتمع؟ هل هذه العملية ضرورية ويجب أن تتم؟

فى رأى روجرز أنها ليست حتمية. ذلك أننا فى عالم يفرض فيه المجتمع نواهى ومحاذير وأنماط محببة وإيجابية ومتنوعة من السلوك، ومن ثم سيصبح من غير المألوف الهروب من هذا التأثير المقيد وغير المرغوب فيه، والذى تفرضه أعراف المجتمع وقيمه الاجتماعية. ومع ذلك فهناك افتراض أن الكائن البشرى من الممكن أن يظل على رغبته فى الاحتفاظ بنزعته الطبيعية لتحقيق ذاته فى الواقع وفق رغباته ومعطياته هو، كى يتحقق له ذلك فهو بحاجة إلى تقدير غير مشروط لذاته وشخصه – Unconditional Self Regard وهو أهم مبادئ "روجرز" فى علم النفس.

هذا التقدير غير المشروط وغير المقيد للنفس يحتفظ به الكائن عندما يؤمن أن أفكاره وأحاسيسه ومشاعره وتجاربه لها نفس القيمة الإيجابية التى ستجلب له تقدير وقبول "الآخر". فالكائن بإمكانه منح نفسه هذا التقدير لذاته، وذلك عندما يقوم بتقييم التجارب الحياتية للمحيطين به والذى يهمه أمرهم بنفس مستوى تقييمه لتجاربه الحياتية هو نفسه. بمعنى آخر عندما لا توجد شروط مفروضة على الإنسان لكى يقيم نفسه. يقترح روجرز تعبيرات "القبول" و"مكافأة الذات" كتعميم مساو لتعبيرات "تقدير إيجابى غير مشروط" فعندما نقبل "الآخر" ونكافئه بتقديرنا له فهذا الشخص يتم تقييمه بشكل حر غير مقيد، بقيم خارجية أخرى مفروضة علينا،

فالإنسان فى هذه الحالة ليس فى حاجة لكى ينبذ أو ينكر أية مشاعر أو قيم ذاتية لكى يحظى بالقبول الإيجابى من "الآخر" لكن هذا التقييم للذات غير المشروط لا يجب اتخاذه بصورة مطلقة، كمفهوم نقبله كله أو نرفضه كله. فيكاد يكون من المستحيل أن يقيم الفرد نفسه أن أو يقيم "الآخر" تقييما غير مشروط بصورة تامة وكاملة. فهذا يحدث فى التفاعل الإنسانى بين الكائن ومحيطه البشرى، بدرجة أو بأخرى، لكن من الممكن أن يزيد.

ولكى نزيل أى لبس، فيجب أن نشير أنه حتى فى حالة قبول "الآخر" ومكافأته بالاعتراف بإيجابية تقييمه لذاته، فليس هذا إقرارا منا أن"جميع" تصرفاته لها هذه المكانة.

واتساقا مع هذا الخطر من التفكير والمنطق يمكن تفسير عدم قبول الوالدين لبعض تصرفات أطفالهم، كإلقاء الطعام على الأرض، أو الدق على الحائط بشاكوش وإفساده، أو ضرب الطفل أخيه الأصغر وإيذاؤه، أو أن يكون "قليل الأدب" مع أحد الجيران، أو أن يجذب ذيل كلب. وفى نفس الوقت الذى لا نقبل فيه هذه السلوكيات الخاصة، نشعر الطفل ولد أو بنت بأننا ما زلنا نقبله ونحبهم.

إن هذا التقدير الإيجابى الحر غير المشروط من الوالدين، من الواضح أنه صعب تحقيقه فى أوقات معينة، عندما يكون

الوالدين أنفسهم مرهقين أو مضغوطين فى العمل. فليس من السهل دائماً قبول سلوك يضايقنا ويؤذى شعورنا، ففى هذه الحالة قد يغضب الوالد و"يهدد" بسحب حبه وتقديره لابنه أو ابنته. لكننا هنا يجب أن ننتبه على ألا يجرفنا الغضب إلى التأثير السيئ الذى قد يصيب الطفل بإحساس "أنه" مكروه على طول الخط، فمن الممكن أن نكافئ "الآخر" بتقدير إيجابى حتى فى لحظات غضبنا منه.

فى كتابات "روجرز" الأولى، كان تأكيده على كيفية الاقتراب من الآخرين، ونحن فى حالة مزاجية عادية خاصة من قبل المعالج. لأنه هو أكثر اقتراباً من قوله إنه "داخل نطاق وإطار علاقة قبول الآخر" يمكن التنفيس بعدة انفعالات متبادلة بصورة مثمرة حتى لو تضمنت هذه الانفعالات الغضب أو إظهار الضيق. فالأب، أو المدرس، أو الصديق، يمكنه التعبير بإظهار الحب والقبول للابن أو التلميذ أو الصديق، بأن هذا الإحساس غير قابل للتغير برغم غضبنا وضيقنا. ومن المهم فى هذا الإطار أن يظل "الاحترام" بين الطرفين قائم، احترام أفكاره ومشاعره. لو حدث هذا وتوفر استمراره، فإن التعبير عن المشاعر الخاصة للطفل لكى يبقى على طبيعته يمكن أن يستمر لكن مع حذف أو استبعاد بعض هذه المشاعر لكى يتواءم مع المحيطين به.

إن الكف عن بعض التصرفات والمشاعر قد يكون مرغوبا أكثر عندما يختار الفرد أن يفعل ذلك داخل إطار تجاربه الكلية، التي قد تحتوى على تصرفات ما قد تؤذى أو تضايق إنساناً آخر. ومع نضج الكائن، ومع تقدمه فى التجارب الحياتية، يصبح فى قدرته أكثر فأكثر اختيار ما يضايق أو لا يضايق "الآخر" فى نطاق أوسع أو مجال أكبر متدفق من التجارب المتنوعة، كما يتضمن ما قد ينجم عن سلوكنا الذى نقيمه نحن لأنفسنا من أثر "اجتماعى"، أى أن رغبتنا فى ممارسة خبراتنا القائمة على إرضاء ذواتنا بصورة طبيعية مشبعة، تتم داخل إطار التأثير الكلى لمجمل سلوكنا على الآخرين.

وكما سيتضح عند مناقشة سبل وتقنيات العلاج المتمركز على المريض العميل كمركز للاهتمام، فإن التقييم الإيجابى الحر غير المشروط أمر هام فى العلاقة العلاجية. فإن أساس العلاقة هنا هو التواصل بين شخص المعالج وشخص المتردد لطلب العلاج. ويجب على المريض "أو طالب المعونة النفسية" أن يشعر أنه محل احترام المعالج بغض النظر عن إحساس الشخص "المعالج" اتجاه تصرفات وشخصية طالب المعونة. يجب قبول المرضى كما هم دون إبداء ضيق أو تحفظ نحو بعض سلوكياتهم. يمكن عندئذ إسقاط وسائلهم الدفاعية النفسية، وإنكارهم لتجارب ذاتية تلك التى

لا يشعرون أنهم هم من قاموا بها نتيجة إظهارهم السابق لـــها ومـــا تركه من أثر تقدير مشروط ومقيد بقيم معينة من قبل الآخرين. وقـد أظهرت تجارب "روجرز" العلاجية في العيادة النفســية ودراســاته مدى التغيير الذى يحدث خلال عملية العلاج المرتكز على المريض ليتأكد بذلك إيجابيته وتأثير التقييم الحر غير المشروط علـــى حالــة المريض إيجابياً بما يكفل تحسنه.

الانسجام والتوافق من عدمه Congruence

إن الـــ" Congruence" هو نوع من الاتساق والتنـــاغم، والـــ "In congruence" هو عكسه أى عدم الاتساق وعدم التناغم. وقد توصل مفهوم الاتساق وعدم الاتساق لدى روجرز من خـــلال تجاربه في العلاج بالعيادة النفسية، إذ لاحظ مدى الجهد الذى يبذلـــه المريض لكى يعدل من "فهمه لذاتــه Self – Concepts"، لكـــى يصبح أكثر اتساقاً مع التجارب والخبرات الطبيعية للكـــائن الفـــرد الطبيعى، أو بعبارة أخرى الكائن أو المريـــض يبتعـــد عـــن عـــدم التوافق مع الآخرين "إلى هذا التوافق" مضحياً بذاتيته مـــن ناحيـــة المشاعر والتقييم الشخصى غير الموضوعـــى وغـــير المرضـــى بالنسبة له للمواضيع المحيطة به. ويشير "روجرز" إلى أن تعبـيرات "أصيل" و"متكامل" ..و "ومتوائم" هى المرادف المقابل لهذا الشـخص

"المتسق Congruent"، وأن الهدف الأساسى فى العلاج المرتكــز على المريض هو الوصول إلى تلك الحالة من "الاتساق"، لكن كيـف يمكن للمرء أن يصل إلى هذا الاتساق فى الخبرات الشـــخصية؟! لقد أجاب بالفعل "روجرز" على هذا السؤال جزئياً ولكن من خـــلال تطرقه لأمر هام. أوضح "روجرز" فى السابق أن فصل الذات عـــن النزعات الفطرية الطبيعية وما يصاحبها من تقييم غير موضوعـــى أو ذاتى لهى عملية "التغريب" الأساسية بين الإنسان وفطرته.

هذا "التغريب" الأساسى يبدأ عندما يمارس الإنسان التقديـــر الإيجابى المشروط فإن الحاجة إلى هذا التقدير الذى قد يدفع الفـــرد لتنمية وتطوير الظروف التى تمكنه من الوصول إلى القبول والحب والدفء من أناس يعتبرهم مهمين له، والـــذى لا يحصـــل علـــى تقديرهم إلا بشروط. فالكائن يرى نفســه ويقدرهـــا عندمـــا يســلك بصورة "ملائمة" للآخر. ويقل تقدير الكائن لنفسه لو تضاءل تقديـــر "الآخر" له، بغض النظر عن التقييم الذاتى للكائن لنفسه.

فالكائن بسبب هذه الرغبة فى الحصول على الـــ "الاعتبـــار" و"القيمة" يبدأ مع الأيام فى اختبار مفهوم تقديره لذاته مـــن خـــلال تقدير الآخرين، لبعض السلوكيات ما بين مقبولة وأخرى مرفوضـــة والإحساس بهذه السلوكيات الأخيرة التى تحمل أفكار الآخرين للفـــرد يسقطها الفرد من وعيه وتضيع فهى ليست مثلاً مجسده له، قد يعـــ

الكائن في وعيه لكن بصورة مشوهة وليست دقيقة. عندما يكون فهم الكائن لنفسه غير متسق تحدث هناك فجوة بين التحقيق الشخصي للذات والتحقيق الموضوعي لنفس الذات. مثلاً قيم الحصول على الثروة، والنجاح المادى والاجتماعى، لدى بعض الأشخاص قد تتعارض مع نزعتهم الفطرية الشخصية للحصول على الدفء الإنسانى وتبادل العلاقات الحميمة والغامرة باتباع أسلوب حياة غير أسلوب الحياة المنضبط والمتسق مع النجاح المادى والاجتماعى. قد يؤدى هذا الموقف إلى جمود فى التطور الصحى للكائن، من ناحية سلامته النفسية. وإلى متاعب نفسية وضيق نفسي واضح. إلا إذا لجأ الفرد إلى نوع من الاتساق فى وظائفه الاجتماعية. ويجب على المرء أن يستفيد بمجمل خبراته الذاتية الفطرية وفي نفس الوقت يكون لديه القدرة على وضع هذه الخبرات تحت المحك أو الاختبار واقعياً وموضوعياً، لأن الشخصية غير المتسقة معرضة أكثر من غيرها لتهديد مواقف توظف فيها بصورة حادة نزعاتها الفطرية الداخلية والشخصية، والتى يجب أن تختبر الواقع بصورة مؤثرة. هذا الواقع الذى يشمل شروط البيئة الإنسانية المحيطة بالفرد. هنا نجد تصرفات ومشاعر كثيرة ينكرها الفرد ويسقطها من وعيه أو يشوهها.

وكما يوضح روجرز فإن الكائن لا يصير إلى تلك الحالة من عدم الاتساق "عن وعى" لأن التقدير الإيجابى للآخرين نحو الفرد مطلوب خصوصاً فى مرحلة الطفولة المبكرة، فإن الطريق إلى الابتعاد عن النزعات الفطرية، و"تغريبها" أى جعلها غريبة عن الفرد هذا الطريق يبدأ الكائن البشرى السير فيه مبكراً، جبراً فى مراحله الأولى من الحياة، وهذا "التغريب الأساسى" يحدث إذا كانت تجارب الفرد لتحقيق ذاته مشروطة بقيم الآخر، أكثر منها مطلقة، لأن الأولى تحصل على "التقدير الإيجابى" من الآخرين.

الإنسان الموظف لقدراته بشكل كامل

The fully functioning person

إن مفهوم هذا الإنسان "الموظف لقدراته بشكل كامل" له وضع مثالى كما يقول روجرز. هذا المخلوق الافتراضى المثالى، هو بمثابة التحقيق الأمثل لكيان الفرد. هذا الفرد قد مارس هذا التقدير الإيجابى غير المشروط، ظفر بهذا التقدير ممن يهمه أمرهم. لا توجد هنا قيم "الاعتبار"، ومن ثم فتقدير الكائن لنفسه يكون غير مشروط.

الواقع يقول لنا أن هذا الوضع لم يوجد بشكل فعلى. فالناس فى الحياة يوظفون قدراتهم ويحققون ذواتهم وفق شروط نسبية غير مطلقة، أكثر قليلاً أو أقل قليلاً مما يبغى الإنسان. ويميل "روجرز"

إلى الرأى بأن هذا التوظيف عملية مستمرة ومتطورة وليست جامدة. فالشخص الذى يوظف قدراته ويحقق فى سلوكه النمو مع المواقف الجديدة بصورة مرضية، أى يغير من سلوكه لكى يتواءم معها، وينتقل إلى مستويات أعلى وأعلى فى مسار تحقيقه لذاته فهو شخص متوائم، ومن ثم فإن كلمة التوظيف الكامل للقدرات يمكن استخدامها كفرض، ليمثل المرحلة القصوى فى تطور الكائن فى مسار حياته، لأن ما يهم روجرز هو عملية تحقيق الذات فى الواقع نفسه أى الصورة الواقعية، فإن الشخص الموظف بصورة كاملة لنفسه وقدراته هو ذلك الكائن القادر على المضى بصورة بناءة فى اتجاه الحصول على مزيد من النمو وتحقيق الذات فى الواقع.

ومن ثم فهو الشخص الذى يتسم بالاتساق وعدم التعارض بين سلوكه وقيمه وأى شئ آخر وبالتالى فهو شخص واع ومنتج من خلال تجاربه المعاشة في الحياة والتى بها يبغى تحقيق ذاته، ولا يتبنى أى وسائل دفاعية أو يغير بصورة مشوهة لتجاربه الإنسانية فى الواقع. فهو "يختبر" الواقع لكى يصل إلى الحد الأقصى من الإشباع والرضى عن النفس، بدلاً من "تمثيل" دور التعامل بنجاح مع خبرات حياة غير مرضية. ومهم فى هذا السياق القدرة على تكوين علاقات ناجحة، والتفاعل مع الآخرين بأساليب متسقة معهم.

"وروجرز" يوضح أن الأشخاص الذيـــن لديـــهم حساسـية وشعور بتجاربهم الكلية لهم أشخاص جديريــن بالثقــة، وسـلوكهم يفيدهم، كما يعود بالفائدة على المجتمع. اختباراتهم حكيمة وصائبـة. "وروجرز" متفائل في نظرية السلوك البشرى. فالأشـخاص الذيـن يحققون أمانيهم بشكل كامل يقومون بذلك فى اتساق مـع الطبيعـة البشرية. فالأمر ليس أشغال عقل ومنطق بل التوائم مـع الفطـرة البشرية. "وروجرز" يعتقد أن التفكير المنطقـى العقلانـى، بغـض النظر عن تجارب الإنسان الكلية فى الحياة، ليس هو الوسيلة الفعالة للوصول إلى قرارات الإنسان المصيرية فى الحيـاة. إن الإنسـان الذى يختار بحكمة سوف يكون اختياره سليماً، وذلك مـن خـلال توظيفه لفطرته وطبيعته البشرية وقيمه النابعة من داخله فى اتصـال وثيق مع عملية التقييم المستمرة فى الحياة، أى أن الكائن البشـرى "أعقل" و"أحكم" من قدرات عقله وحدها. وليس فى هذا تحقيراً للعقل والمنطق، لكن يوضح روجرز أن الإنسان يوظـف قدراتـه فـى صورتها القصوى عندما يعمل فى الحياة ككائن كـامل الجوانـب، منفتح على كل تجاربه الحياتية فى مجملها، بدلاً من كونـه "فقـط" مدرك للواقع عقلياً لا غير. باختصار يجب على الإنسان أن يكـون على صلة بمشاعره وأحاسيسه الفطرية الأولية الطبيعية، وباتجاهاته ونوازعه الطبيعية بحيث يربطها باعتباراته العقلية المنطقيـة فـى

بوتقة واحدة كسائل يسرى فى الكيان البشرى كله يخلـــق أو ينجــم عنه استجابات فاعلة ومؤثرة هى جماع التجارب "الكليـــة" للكـــائن البشرى.

والعامل المهم فى هذه العملية ككل هو حصول الكائن علـــى اعتبار واحترام واعتراف "الآخر" به خاصة فى المراحل البازغـــة من حياة الطفل الذى يكون وجوده كله معرضاً للخطر، لأنه لو كـان الحب والقبول هنا مرتبط بشروط الآخرين الذى يتوقعون من الكائن السلوك "الملائم" والانفعال "الملائم" لكانت النتيجـــة وجـــوداً مقيـــداً ومشروطاً فى عملية تحقيق الكائن لذاته. والعكس صحيح.

لكن ماذا يحدث لأولئك الأشخاص الذين لا يحصلون علـــى تقدير وقبول الآخر إلا عن طريق وجود "مشروط" بقيم الآخريـــن؟ هل من المحتم أنهم ســـيعانون مـــن اضطرابـــات نفســـية؟ ليـــس بالضرورة لأن وسائل العلاج تعتبر الإنســـان الفـــرد هـــو مركـــز اهتمامها. ممكن مع خبرة المعالج أن تعيد هؤلاء الأشخاص لســـبل تحقيق ذواتهم وكيانهم فى شكل متسق ومكتمل مع العـــالم المحيـــط بهم.

أسلوب العلاج المرتكز على المريض كمركز اهتمام أساسى:

يؤكد "روجرز" على ثلاثة ظروف إضافية لفاعلية العـــلاج المرتكز على المريض كأساس:

١-أن تتصف علاقة المعالج بـــالمريض بالاتســاق أى صادقــة، مترابطة، ومتكاملة، حتى لا يتوسل المريض بالطرق الدفاعيــة التى تكون واجهة لا تنبئ عن حقيقة متاعبه النفســية. علاقــة علاجية قادرة على مقابلة المريض فى إطاره ككائن حى يريــد تحقيق ذاته، وأن يكون هناك اتساق ما بيــن إحســاس وإدراك المعالج وبين انفعالاته أثناء توصيله أو تواصله مع المريض.

٢-أن يكون هناك تقدير إيجابى من قبل المعــالج وتقديــر غــير مشروط بتوافر ظروف معينة اتجاه طالب المساعدة النفســية. تواصل بين كائن وكائن أو شخص وشــخص يحمــل تقديــر المعالج للحالة التى أمامه ككائن جدير بالاحترام بغض النظــر عن سلوكه أو مشاعره أو أوضاعه.

٣-من المهم محاولة "فــهم" المريــض أى أن يحــاول المعــالج "الدخول" داخل التجارب الشخصية لطالب المســاعدة النفسية وأن يتعايش مع هذه التجارب الذاتية. وسبق أن أوضح روجرز أن المعالج يجب أن يشارك العميل معاناته حتــى يســتطيع أن يتواصل بطريقة مؤثرة وفعالة مع تجربته المرضيــة، بحيث يدرك المريض أن المعالج متفهم لحالته. لكن هــذا التفــهم لا يجب أن يصل إلى درجة مشاركة المعالج لمشــاعر الغضــب، والاضطراب أو الخوف التى قد تعترى المريض فــى جلسة

العلاج، أى المشاركة الدقيقة والمدروسة لتجارب المريض. يجب على المعالج أن يبقى على مسافة تبعده عن أحاسيس القلق والتوتر حتى يمكنه النظر إلى حالة المريض من منظور موضوعى خالص. بهذه الطريقة يمكن للمريض أيضاً أن يصل إلى منظور موضوعى أوضح يرى من خلاله معاناته المرضية.

إن المعالج بهذه الطريقة ينزع إلى خلق وضع أو جو من الدفء والقبول يجد المريض فيه نفسه قادراً على إزاحة الخوف، بحيث يكون قادراً على أن يعبر عن نفسه ويقترب أكثر من تجاربه الطبيعية. وبالطبع فإن هذا الدفء والقبول لا يتحقق بأن "يقول" المعالج للمريض ذلك بصورة تقريرية، بل يجب أن يكون المعالج قد وصل إلى حالة الإحساس بالقبول الفعلى والتعاطف مع العميل. وأنه بالفعل يحترم المريض ويقدر مشاعره، وأن يتأكد المعالج من ذلك قبل أن يواصل العلاج. لأن دور المعالج فى هذه الطريقة يجب أن يكون فاعلاً ومؤثراً لأنه من غير السليم علاجياً أن يشعر المعالج، حتى فى أعماقه بأنه غير قابل للمريض واتجاهاته. وافتعال المواقف التى يريد المعالج أن يوضح من خلالها للمريض قبوله لشخصه سوف تكون غير مجدية. لكى يتم العلاج بصورة

سليمة، يجب على المعالج أن يكون واقعياً وأميناً في مشاعره واتجاهاته مع العميل.

ويحب "روجرز" هنا أن يوضح أنه لا يطلب معالجاً مثالياً، أو سوبرمان ذو قدرات قصوى غير عادية، لأن ما ذكره "روجوز" في السابق هي الصورة "المثالية" للمعالج، لكن الأمر لا يخلو من أن نجد معالجاً سلوكه غير متسق مع ما يجب أن تكون عليه مواقفه. ممكن للمعالج أن يستمر حتى في صورته غير المثلى هذه، أن يكون "نفسه"، لكن دون أن يستعير سلوكاً أو موقفاً مصطنعاً. ويضيف روجرز أن من الطريف أن أناساً غير كاملين وغير مثاليين، مازال لديهم القدرة على تقديم العون النفسي لأناس غير كاملين وغير مثاليين. لأن هذه هي الحياة وهذا هو الواقع. وليس بالأمر النادر أن يشعر المعالج أنه غير متأكد من موقفه اتجاه مريضه في عملية العلاج. الأمر الخطر وغير السليم بالمرة أن ينكر الطبيب المعالج وأن ينفي بينه وبين نفسه "عدم التأكد" أو "هذا التردد"، لأن إنكار مواقف موجودة بالفعل قد تفسد العلاج كله. وعي المعالج في هذه الحالة بحالته سيكون أقل ضرراً في جدوى العملية العلاجية وفاعليتها. إن روجرز هنا يطالب بمبدأ "أن يكون المعالج أمين مع نفسه" أولاً.

لكن هل يجب على المعالج أن يذكر ويوضح حالته هذه مع المريض؟ هل من الملائم أن يقول المعالج للمريض مثلاً: أن تجربتك التى تقصها الآن على، قد أثارت مواقف مؤلمة وأحاسيس غير مرغوبة مرت بى. من الطريف أن هناك اتجاه فى أسلوب العلاج المرتكز على المريض نحو الانفتاح الكامل على المريض، لأن الإشراك الفعال للمريض فى هذه العلاقة العلاجية قد يساعد على إثراء التجربة العلاجية. فالمعالج الذى لا يتوانى عن أن يعبر عن نفسه أمام المريض سيجد سهولة أكثر فى إقامة علاقة "واقعية" فيها أمانة من الطرفين. لكن يجب أن ننتبه إلى أن أساس العلاقة العلاجية هي أن يعبر المريض عن تجاربه الداخلية وما قد يعتريه من تحسن عند الإفصاح عن شعوره وتجاربه. إن هذا الإفصاح من قبل المريض هو ما يرشد المعالج إلى مدى سرعة أو إبطاء العملية العلاجية، وعن مدى تقدم المريض فى الاستبصار بحالته.

إن المشكلة الرئيسية فى تلك العلاقة العلاجية التى ترتكز على المريض هى حل معضلة اغتراب الشخص عن تجاربه الفطرية الطبيعية وما يصاحبها من عمليات تقييم. فالمرضى الذين يعانون من اضطراب فى أحوالهم النفسية قد تضمنوا فى داخلهم القيم الخاصة بقيمتهم وجدارتهم مما أدى بهم إلى تقييم ذاتى مشروط بقيم الآخرين، مما نتج عنه عدم اتساق بين الشخص وكونه كائناً

طبيعياً. هذه الشروط التى يفرضها "الآخر" هى ما ينجم عنه عـــدم انسجام أو اتساق، وبالتالى يعانى المريض من القلق المصاحب لعدم إحساسه بأنه كائن متكامل القيم والنزعات.

ويقدم "روجرز" مفهوم آخر جديد فى هـــذا المجـــال وهـــو تفرقة وتمييز كائن لخبرة ما، دون أن يكون على وع كـــامل بـــها وعياً واضحاً. فالمريض نجده يشعر بأنـــه معـــرض للتـــهديد مـــن تجاربه الفطرية الطبيعية، التى لا يعيها بصورة كاملة. أى عندمـــا يحدث عدم الاتساق بين الذات وبين فطرية الكائن وطبيعته، فإننـــا نجد المريض غير واع بصورة كاملة لتجاربه الأساسية، ومع ذلـــك نجد المريض يشعر بنوع من التهديد اتجاه مظاهر من تجاربه هـــذه التى لا تتسق مع مفهومه هو عن نفسه، وهو المفـــهوم الـــذى قـــد توصل إليه الكائن وفق الشروط الواجبة لكى يحصل على التقديـــر الإيجابى المرضى من الآخرين. بمعنى آخر قد نشعر بـــاضطراب نتيجة استثارات أساسية داخلنا، برغم أننا قد قطعنا أية صلة بـــهذه الاستثارات "أو المثيرات"، وهى عملية قمنا بها لكى نحصل علـــى التقدير الإيجابى من الآخرين، والذى بواسطته نحصل علـــى تقييـــم إيجابى لأنفسنا. فعلى الرغم من أننا قد عزلنا أنفسنا ولم نعد نقبـــل هذه المثيرات والأحاسيس وما يصاحبها من انفعالات، التـــى هـــى جزء من طبيعتنا "الفطرية"، وبالتالى ليست هناك صلـــة واضحـــة

ومباشرة مع هذه المثيرات، فإن ما يصاحب هـــذه المثـــيرات مـــن انفعالات لا زالت تجعلنا نشعر بعدم الراحة والاضطـــراب والقلـــق والإحساس بأننا مهددون. فنحن نسقط فى حالة من عدم فهم الرابـــط بين المثير والاستجابة، أى عدم فهم السبب بالنتيجة، أى نفقد فـــــهم الصلة بين الانفعال المعين وما يؤدى إليه من قلق واضطراب، وهو ما يسبب بالتالى نوعاً من الاضطراب فى تقييم أنفسنا الذى نحـــرص عليه.

إن المسئولية الأساسية في العلاج المرتكز على المريـــــض تقع على المريض العميل. لأنه يقع على عاتقـــه "أى المريـــض" أن يعيد اكتشاف وتفسير تجاربه الذاتية الداخلية، ويتمتـــع بنـــوع مـــن الحس اتجاه المنحنى التى تتجه إليه عملية التقييم لطبيعته الفطريـــة. افتراض روجرز هو أن المريض يستطيع بالفعل أن يقوم بذلك، لـــو توافرت لدى المعالج الشروط الثلاثة التى ذكرناها آنفـــاً. فالمعـــالج عندما يكون متسقاً مع نفسه، متقبلاً للمريض ويتسم بالحســـم فـــى جلسات العلاج، فإن المعالج فى هـــذه الحالـــة يتيـــح للمريـــض أن يفحص ويتمعن فى تجاربه الذاتية الداخلية غير المتسقة مـــع تقييـــم المريض الحالى لنفسه، وأن يدرك بصورة ضبابية غـــير واضحـــة المعالم لتلك التجارب والخبرات، أو أن المريض بمعنى آخر مـــدرك لتلك الخبرات لكن بصورة غير ســـليمة وأقـــرب إلـــى أن تكـــون

مشوهة. فقط المريض هو القادر على تمعن وفحص هذه الخبرات الذاتية، لأن هذه ليست من مهمة المعالج أن يقوم بهذا الفحص بدلا من المريض، ويوضح "روجرز" أن الإنسان قادر على هذا الفحص ومحاولة التفسير، إذا أتيحت له الظروف المناسبة لعملية التقييم والتفسير هذه. اعتاد الكتاب أن يسموا دور المعالج هنا كمساهم "غير مباشر" فى العملية. لكن هذا التعبير قد يكون مضللاً لأنه يتضمن إسهام أكبر من قبل المعالج فى موقف يحتاج أن يعتمد المريض فيه على نفسه. وهو ما يحرم المعالج من التركيز على تلك العناصر التى تؤدى إلى تقدم المريض ونموه النفسى.

هذه الاتجاهات الضرورية من قبل المعالج ذكرناها، لكن ماذا عن الدور المحدد للمعالج؟ ما الذى يقوم به المعالج على وجه التحديد أثناء عملية العلاج؟ ذكرنا أن مسئولية البحث فى التجارب الضالة والشاردة والداخلية تقع على عاتق المريض. لكن ما هو دور المعالج؟ ما الذى يقوم به أثناء هذه العملية؟ التواصل بين المريض والمعالج قد لا يحتاج هنا إلى تدخل بالكلام. المعالج يوحى للمريض أنه متعاطف ومتقبل لمعاناته بتعبيرات الوجه. استخدام الكلمات قد يحدث عندما يريد المعالج أن يوضح الانفعالات المعبر عنها بصورة مباشرة أو غير مباشرة من قبل المريض، أو أن يعيد صياغة جمل ذكرها المريض أثناء التعبير عن حالته، كنوع من

المساعدة للتوضيح. والكلمات التى قد يضيفها المعالج هى لكى يشعر المريض أن المعالج "معه" أى ليس غائباً عن معاناته، وأنه يشاركه الانغماس فى العلاقة العلاجية. ويجب على المعالج أن يعلق بجمل يفهم منها أن المعالج ينتظر حكم المريض على ما قاله، أى أن كلام المعالج مجرد اقتراحات وأن الرأى النهائى يجب أن يصل إليه المريض بمجهوده وبتفكيره دون المعالج. هنا يصبح وكأنه المعاون والممهد للمريض على أن يفهم حالته فى ضوء تجاربه الذاتية. الحوار التالى هو حوار مفترض، الغرض منه مجرد توضيح بصورة مبسطة جداً نوع الحوار بين المعالج والمريض.

- المريض: أنا لا أعرف لماذا أنا حساس زيادة يبدو لى أن كل شيء ... حسناً... أنا لا أعرف بالضبط ... مثلاً لو أن رئيسى يبدى أبسط ملاحظة على عملى، أشعر أننى قد جرحت. ولو أن زوجتى أخطأت في أى تصرف بسيط، أقابلها بتجهم، وربما وصلت إلى مرحلة الغضب... وقد أترك لها المنزل وأخرج بطريقة عصبية أحياناً.

- المعالج: هل ينتابك شعور ... أو هل تحس أنك حساس أكثر من اللازم لكلام الآخرين؟

-المريض: نعم، حاجة تقرف! لماذا لا أتصرف كرجل؟ وإما أن أقف وأقول أننى "أنا" على حق، أو أعترف أننى على خطأ؟ لا، مش معقول أعمل أنا كده... لماذا أنا أكبر المسائل وأعطيها أهمية لا تستحقها... فقط أشعر بنوع من هبوط فى روحى المعنوية... وأحياناً أشعر كشخص مكشوف أمام الآخرين... بل وغبى أيضاً!!

- المعالج: هذا إحساس مؤلم بالفعل. أنت تود لو أن رد فعلك كان مخالفاً... فى حالة تعرضك للنقد ويبدو أنك مشغول بمسألة أنك غير قادر على رد الفعل المخالف هذا؟

- المريض: بالتأكيد أنا أريد أن أرد على من ينتقدنى... لكن هذا الشعور بالضيق الذى ينتابنى لا يضرنى ولا يساعدنى فى هذه المواقف أبداً. ولا يساعد أى شخص آخر أيضاً. لكن كيف أستطيع أن أغير هذه الحالة يا دكتور؟ أنا حاولت؟ لكن ... يا إلهى... هل أنا حاولت فعلاً؟ كل ما أذكره أننى أنفعل انفعالاً زائدا بحيث لا أدرك الموقف بوضوح. وينتهى بى الأمر لأن أكرر سلوكى الخاطئ المرة تلو المرة... مجرد تكرار لسلوك غبى!

- المعالج: حسناً... حسناً... يبدو أنه من الصعب تغيير ذلك. لا شئ فى موقفك يتغير، والأحاسيس غير السارة تتتابك.. أليس كذلك؟

– المريض: بالفعل يا دكتور. هذا هو ما يحدث بالفعل. أنا أكرر نفس النمط من التصرفات "الخايبة" المرة تلو المرة. يبدو أنه من الصعب على أن أقر بأننى مخطئ. وأننى لست إنساناً كاملاً؟ ويخيل إلى أن الناس لا يهمهم إذا كنت مخطئاً أو غير مخطئ. ربما هذا التجاهل هو ما يصيبنى بالحساسية. ربما لأننى لا أرغب أن يلاحظ الناس أخطائى، ربما أخاف من أنهم فى هذه الحالة لن يشعروا اتجاهى بأى احترام أو ود.

– المعالج: أفهم هذا الموقف بالفعل... أنت تكرر نفس تصرفاتك لأنه صعب عليك الاعتراف بأنك تخطئ بالفعل. وأنك تشعر بالقلق أن يؤدى ذلك إلى نوع من فقد الاحترام والود من قبل الآخرين أليس الأمر كذلك؟

هذا الحوار الذى نقدمه كمثال يفتقد بالطبع حيوية المواقف العلاجية كما تحدث فى الواقع مثل أحاسيس الدفء والمشاعر المتبادلة... طول فترات الصمت التى لا يجد المريض فيها ما يقوله ولحظات تردده في ذكر أشياء تقلقه، ونغمة صوته وسمات أخرى هامة ودقيقة التى تتسم بها العلاقة العلاجية.

لكننا مع ذلك نأمل في أن نكون قد أوضحنا على الأقل دور المعالج... كموضح ومنظم لخبرات وسلوك المريض الذى يحاول أن يعبر عنه. وربما نجحنا فى هذا المثال أن نوضح أن المعالج

مهتم بالمريض ومتقبل لكل ما يقوله. فعن طريق مساعدة المريض في أن ينطلق وأن يحرر كل قدراته التي يريد بها أن يؤكد ذاته، يقوم المعالج بدور المساعد على رغبة المريض في أن يتطور بطريقة فيها فهم عميق لخبراته، لكن دون التدخل فيها، لأن تغيير سلوك المريض يجب أن يقوم به المريض باقتناعه.

إن النتيجة المرتجاه من العلاج المتمركز حول العميل هو بالطبع الوصول إلي كائن قادر على التوظيف لأفضل لقدراته، شخص طبيعي في استجابته لنوازعه الطبيعية، متقبلاً لها. إنسان مرن، قادر على التغير إلى الأفضل، وتتسم ردود أفعاله بالتنوع الثرى المثمر. أى نصل به إلى حالة من توظيف قدراته أى إلى حالة أفضل من حالته عند بدء الجلسات العلاجية، هى حالة تختلف عن حالة المريض عند بدء الجلسات عندما كان المريض نسبياً غير قادر على تفهم "نفسه" والتواصل معها، إنسان جامد، غير مرن، وليس لديه تجاوب انفعالى سليم مع العالم المحيط به. هذا التغير في قدرة المريض على توظيف قدراته يمكن ملاحظته وتتبعه مع تقدم جلسات العلاج، عندما ينتقل المريض من عبارات أكثر اتجاهاً لاجترار الماضى وتجاربه، بعضها يكون غير سار، وعباراته تدل على عدم التلقائية بل فيها إعمال للعقل ضد طبيعية المريض، إلى عبارات نجد فيها قدرة أكبر من ناحية المريض على أن يعبر عن

نفسه بسلاسة، أى دون قيود أو محظورات سواء واعية أو لا واعية، يعبر الآن على واقعه المعاش بدلاً من اجترار تجارب الماضى.

ويجب أن نذكر أن العلاج، بغض النظر عن الطريقة المتبعة أو أسلوب العلاج، هو فى النهاية أقرب إلى أن يكون ظاهرة فيما يتعلق بمسألة النجاح من عدمه. وحيث أنه، حتى الآن، لا توجد وسيلة للحساب الكمي لأبعاد توظيف الإنسان لقدراته بحيث نصل إلى أرقام توضح بصورة كمية دقيقة، فإنه من الصعوبة بمكان الحكم على العلاج المتمركز حول المريض، مدى فاعليته، "أو أى أسلوب آخر للعلاج... تحليل نفسى أو غيره..." . ومع ذلك فإن روجرز يوضح أن نجاح تقنيات العلاج المتمركز حول المريض تشجع بالفعل على الاستمرار بحماس فى هذا الأسلوب. وفى نفس الوقت فإن الأبحاث ما زالت تجرى لوضع طريقة قياس كمية على كافة أساليب العلاج النفسى مع الاستمرار فى محاولة الوصول إلى معرفة مدى فاعلية كل أسلوب بشكل أدق.

وبرغم أن أسلوب العلاج المتمركز حول المريض هو الأكثر شهرة وارتباطاً بروجرز، إلا أن "روجرز" لديه اهتمامات بطرق أخرى تتجاوز العلاقة الثنائية بين المريض والمعالج. فمنذ سنة ١٩٤٠م واهتمام "روجرز" يتزايد بأسلوب تجارب العلاج

الجماعى المركز، كوسيلة تتيح للمريض أن يعبر بعمق أكبر وبطريقة تساعد على فهمه أكثر. وبحيث نحس ونثرى من تجارب المريض فى مجال تواصله مع الآخرين.

أيضاً من اهتمامات "روجرز" التعليم المتمركز حول الطالب الفرد كأساس للعملية التعليمية.

ومن اهتماماته بالمثل دراسة ديناميات وسبل العلاقات العميقة والحميمة.

ومن الواضح أن "روجرز" ما زال يتوسع فى مجالات تفكيره إلى نطاق أوسع وأرحب للتجربة البشرية محتفظاً بأفكار أساسية من دراساته السابقة لكنه مستمراً فى تطوير أفكاره فى تطبيقاتها الحيوية، بحيث يصل إلى نوع من الاستبصار بحقائق جديدة عن النفس البشرية. فى الجزء المتبقى من هذا الفصل سنتناول باختصار مجالات مما سبق الإشارة إليه: العلاج بالمقابلة الجماعية، ودراسة العلاقات الحميمة المتعمقة.

العلاج عن طريق جلسات المقابلة الجماعية

Encounter grays

إن الجماعة فى هذا الأسلوب هو عدد محدود من الأشخاص "الطالبين للعون النفسى".نتبع فيه تبادل العلاقات وردود الأفعال بين المجموعة بصورة أكثر تركيزاً لكى نكتشف أكثر فأكثر

طريقة "تواصلهم" مع بعضهم البعض. يعتقد روجرز فى فاعلية تلك الطريقة فى مساعدة هذه الجماعة الصغيرة فى أن تساعد كل فرد من أفرادها لكى يوظف بصورة أكثر اكتمالاً لقدراته. وبرغم أن هذه الطريقة لها قيمة معينة، فإنها تختلف عن أسلوب قريب منها هو "العلاج الجماعى". هذا الأسلوب الأخير نطبقه على مرضى لديهم مشاكل شديدة ومعقدة فى كيفية توظيف قدراتهم، وفى حاجة إلى مساعدة عاجلة. أما طريقة المقابلات الجماعية، فهى تتبع مع أناس أحرزوا بالفعل تقدماً فى توظيف قدراتهم بصورة طبيعية. "هنا تعبير صورة طبيعية لا يعنى أنهم يتصرفون ويسلكون فى صورة يودون هم الوصول إليها. أى أنهم مازالوا فى حاجة للوصول إلى التوظيف الطبيعى الكامل لقدراتهم، وبالتالى فالمقابلات الجماعية تمدهم بوسيلة ممكنة لزيادة نموهم النفسى الشخصى".

حجم المقابلات الجماعية يتراوح ما بين ٨ إلى ١٥ شخص. أحياناً يتقابلون فى جلسة طويلة. أحياناً يجتمعون للمقابلة على فترات قصيرة. بصفة عامة يتراوح زمن مقابلاتهم من ٢٠ إلى ٦٠ ساعة من المقابلات التى يتم فيها تبادل الخبرات وإعداد نقاط محددة تسبق المقابلة. وليس هناك تركيبة جامدة لمجموعة المقابلة، إذ أن المشاركين لهم حرية كاملة فى عرض مشاعرهم

وردود أفعالهم المتبادلة فيما بينهم من خلال عملية التقابل المستمرة فى التطور. وبرغم ما قد يحدث من مشاعر عدائية بين أفراد المقابلة إلا أن المحصلة فى النهاية من المفترض أن تصل بهم جميعاً إلى نوع من القبول المتبادل ومحاولة مساعدة كل واحد منهم للآخر.

وهناك جدل واسع يتعلق بهذا الأسلوب "العلاج عن طريق المقابلة". البعض متحمس لنتائج هذا الأسلوب بشكل قوى. البعض الآخر على العكس، يعارضون هذا الأسلوب. وفريق ثالث لديه آراء معتدلة اتجاه المقابلة كأسلوب علاج.

"روجرز" ليس متعصباً فى نتائج أسلوب المقابلة المركز، لكنه يؤيده بقوة، مع بعض التحفظات. فهو يعتقد أن هذا الأسلوب قد يقود إلى وعى أكثر بالخبرات الداخلية للشخص، وأنه يساعد الأفراد على تحسين علاقاتهم المتبادلة مع الآخرين بشكل أفضل، وأكثر إرضاءاً لاحتياجاتهم أيضاً. يشعر أن الأسلوب له فوائد أخرى مثل إقلال مظاهر الصراع والخلاف بين أفراد المقابلة والذى يشكل مجموع أفرادها نموذجاً للمجتمع الخارجى بصراعاته سواء فى الوظائف الحكومية أو العلاقات المدرسية أو داخل الأسرة أو حتى فى مجتمع المترددين على الكنيسة.

هناك وسائل كثيرة يتبعها "المعـــاونون" داخـــل جماعـــات العلاج. وهؤلاء "المعاونون" هو اصطلاح يقصد بـــه القـــادة فـــى المقابلات العلاجية، ولكنهم لا يقومون بالفعل بعمل "القائد" بمفهومـــه التقليدى. القائد هنا هو من يعاون أفراد المقابلة علـــى خلـــق جـــو يستطيع فيه كل فرد أن يعبر بحرية وانفتاح مـــع التركـــيز علـــى تجارب المشاركين فى المقابلة فى مجال تبادل الآراء والتفاعل مـــع الآخرين، بما يتيح التوظيف الأكبر لقدراتهم الإنسانية. اهتمامنا فـــى المناقشة منصب على طريقة "روجرز" فى تسهيل عمل المقـــابلات الجماعية.

يبدأ المقابلة بأسلوب منطلق، غير مقيد بحدود معينـــة مـــع استخدام عبارات مرسلة مثل "ها نحن قد اجتمعنا هنـــا، ويمكـــن أن نستفيد من هذه المقابلة كما ينبغي بالضبط" وهـــو لا يحـــدد أهدافـــاً بعينها، ويترك للمجموعة أن تختار الاتجاه الذى تتجـــه إليـــه فـــى الحديث والموضوعات. ويذكرنا روجرز أن هذه الطريقـــة شـــبيهة بأسلوبه فى العلاج المتمركز حول العميل، برغم نزعته أن يكـــون أكثر تعبيراً فى الطريقة الأخيرة، "وللمعلم روجرز لم يعـــد يمـــارس العلاج الفردى، وحتى لو قام به فهو سيكون أكثر تلقائيـــاً وتعبـــيراً عن نفسه كمعالج عما كان يمارسه فى السابق، وأنه قد توصل إلـــى

هذه التلقائية والتعبير بصورة أكبر كنتيجة لممارسة العلاج الجماعي بأنواعه."

وسوف نورد هنا بعضاً من إسهامات "روجرز" التي توضح دوره "كمعاون" أو "مسهل" في مقابلات الجماعة:

١-يصغي باهتمام وبانتباه وبحس عالي، معتبراً أن كل واحد لديه بالفعل شئ يستحق أن نستمع له. هو يهتم أكثر بالمعنى الحالي لتجارب المتحدث وتعبيراته بشكل كامل. ويشعر روجرز أن الاستماع بتركيز واحترام من جانبه يساعد بالتأكيد على خلق جو نفسي آمن للمتحدث "لا يتوقع أن يرفضه أو يلومه أحد في أقواله" ومن ثم يتجرأ المتحدث ويذكر بعض الخبرات والانفعالات الهامة التي توضح جوانب من شخصياته وتعريفها.

٢-"روجرز" يتقبل المجموعة ككل، وكل فرد فيها لديه القدرة على الانتظار والصبر على المجموعة "لكي تجد نفسها" بمعنى الاتجاه الذي تختاره لحل مشاكلها. هو أيضاً يرغب في أن يشارك الأفراد في عمل المجموعة بدور أكبر لكن لو أن هناك من يريد أن "يأخذ جنب" أي لا يشارك دائماً في أول المقابلات، فهو حر، "برغم أن بعض أعضاء المقابلة الآخرين لا يعجبهم

هذا الموقف من هذا الشخص ويعارضون مسألة تباعده في المقابلة وعدم الإسهام مثلهم".

"وروجرز" يتقبل ما يقوله المشاركون في المقابلة دون محاولة تحليل من قبله هو لدوافعهم اللاواعية والخفية، فهو يتقبل كلام كل واحد منهم كما هو، دون استخراج معانى لم يقلها المريض.

٣-يوضح "المعالج أو المعاون" للجميع بشكل مؤكد أنه "متفهم" لتجاربهم ومشاعرهم. لأنه يعتقد أنه من المهم جداً أن نفهم من الآخرين، حسب وجهة نظرهم هم، ما يحاولون التعبير عنه.

٤-"روجرز" يتبع أسلوب أن يكون منطلقاً وغير جامد فى مشاعره الشخصية اتجاه الآخرين فى المقابلة، فهو أحياناً يشعر باهتمام صادق نحو أحد المشاركين ويؤكد مشاعره الحقيقية لو أحس أن أحد أفراد المقابلة قد تعرض لجرح نفسى. مشاعر المعالج قد تتضمن الغضب، الضيق، الإحباط، مثل ما قد تتضمنه من حب وتعاطف، خاصة إذا كان قد مر بالتأكيد بهذه المشاعر. يؤكد "روجرز" للمتقابلين أنه من المهم التعبير عن المشاعر الحالية، وليس عما عانوه فى السابق، بحيث يستطيع أن يتعرف كمعالج لردود أفعالهم فى مختلف التجارب الحياتية المعاشة. التعبير بتوسع عن مشاعر الإنسان قد تكون مؤلمة لهذا الفرد

أو ذاك أو حتى للآخرين. لكن "روجرز" يعتقد أنه حتـــى هـــذا الألم قد ينمى الفرد. إلا أنه إذا لاحظ أن أحد أفـــراد المقابلـــة يعانى من اكتئاب حاد ومؤلم فإنه يطلب من هذا المشـــارك أن "يرتاح" قليلاً فى عرض حالته. وبالمثل من رأى "روجـــرز" أن المعالج لا يجب أن يتردد فى عرض مشـــاكله الانفعاليـــة، وأن يسأل أفراد المقابلة إذا كان هذا يضايقهم، لكن فى حالة تعـــرض المعالج "المفروض أنه المعاون للمجموعة" لمشاكل حادة، فمـــن الأفضل عدم إشغالهم بمشاكله هو الشخصية. الأحرى به فـــى هذه الحالة أن يلجأ إلى أحد زملائه مـــن المعـــالجين أو إلـــى شخص يثق فى قدرته على معاونته.

وماذا يحدث، كمثال، إذا شعر أحد أفراد المقابلة بـاضطراب نفسى خطير، فى حالة تحطيم وسائله النفسية الدفاعية بأسرع ممـــا يجب أثناء عرض المشاكل فى المقابلة، مما ينجـــم عنـــه تحطيم صورته السابقة عن نفسه، وتقييمه فى السابق الذى كان يحمى بـــه نفسه من الانهيار؟! يعتقد "روجرز" أن جماعات المقابلة والتخـــاطب بغرض تبادل الخبرات له قدرة علاجية كبيرة، "وإن كانت وظيفـــة جماعات المقابلة ليست قاصرة على العلاج فقط". لـــدى "روجـــرز" اعتقاداً بقدرة هذا الأسلوب على التعامل مع الاضطرابات بحكمـــة

بل وبقدرته أيضاً على تعديل السلوك العلاجى، إذا كانت المجموعة تؤدى مقابلاتها بصورة سليمة عموماً.

فى مناقشتنا هذه لطرق "روجرز" فى تسهيل عمل المجموعة بالمقابلات، لا يجب أن نعتقد أن طرقه هى الوسائل الوحيدة الممكنة. من رأيه أن "المعاونين" أو المعالجين قد يجدوا تقنيات مختلفة تصلح لعملهم، دون أن يفقد حرصه وتخوفه من وسائل قد يلجأ إليها بعض المعالجين:

١-دفع أفراد المقابلة نحو هدف معين، لم يتم إقراره.

٢-التأكيد على الأداء الدرامى الانفعالى لأعضاء المقابلة.

٣-تشجيع هجوم أفراد المقابلة على بعضهم البعض، والإصرار على إجازة التعبير عن العدوانية داخل الجماعة.

٤-التدخل مراراً لتفسير دوافع المتحدث فى المقابلة.

٥-الضغط على أفراد المقابلة بالانغماس فى نشاطات معينة، دون أن يترك لهم فرصة حقيقية لكى يقرروا بأنفسهم ما إذا كانت لديهم رغبة فى هذه الأنشطة.

٦-اتخاذ موقف المتعالى وعدم التجاوب مع انفعالات أفراد، وتمثيل دور الخبير الذى لديه قدرات خارقة لتحليل تجارب الآخرين. وأخيراً يوضح "روجرز" أن الشخص الذى يعانى هو

نفسه من اضطرابات ومشاكل نفسية حادة، يجب أن يبتعد عـن دور المعالج أو المعاون أو القائد.

ما هى الطريقة المثلى لإدارة المقابلة بين أفراد المجموعة؟ بالطبع لا يتصرف كل أفراد المجموعة بنفس الطريقة، لكن هنـاك أنماط معينة تعتبر معتادة وشائعة إلى حد ما. فى المراحل الأولـى ينتاب أفراد المقابلة نوعاً من الحيرة وعدم الاستقرار عمـا يجب عليهم عمله. وجو الانطلاق غير المقيد بهياكل معينة تحدد دور كـل فرد، تثير قلق أولئك الذين اعتادوا على أنه يجب أن يكون لكل فـرد دور أو وظيفة داخل المجتمع. وهناك إحجام عام من أن يتجاوز كل فرد ما يعتقد أنه شخصى ولا يجب مناقشته، فليس من السهل علـى كل إنسان أن يعبر عن مشاعره وتجاربه الشـخصية، لمجـرد أن مجموعة لا يعرفها قد اجتمعت لهذا الغرض، أو أن يجد من اللائـق أن يحكى أى شئ يخطر على باله أمام كل هؤلاء. لكن بعـد فـترة فى الغالب سنجد أن أفراد المجموعة، مع شئ من الـتردد، تحكـى عن تجاربها أمام الآخرين، وتعرض ردود أفعالها اتجـاه مواقـف معينة، وعن سبب انضمامهم للمجموعة؛ وعن رغبتهم فـى اتخـاذ اتجاه معين لحل مشاكلهم... وهلم جرا. بعض أفراد المجموعة قـد يفصح عن ضيق أو إحباط لعدم وجود هيكل محدد لهذه المجموعـة، أو فى الاتجاه المعاكس الهجوم وتثبيط همة الشخص الذى يحـاول

أن يقوم بدور القائد للمجموعة. ومع تقدم الجلسات واستمرار المقابلات، والتعبير عن المشاعر الشخصية والانفعالات، نجد أن أفراداً فى المجموعة يشجعون أولئك الذين لا يريدون التعبير عن أنفسهم، بأن يشتركوا مع الكل فى عملية التواصل وتبادل الأحاديث. وإذا وجد شخص مستمراً فى اتخاذ موقف دفاعى وغير راغب للمشاركة، سنجد أن أفراد المقابلة يتهمونه بأنه منعزل أو داخل طرقه الدفاعية التى تمنعه من التعبير.

أثناء المراحل الوسطى للمقابلات هناك اتجاه لدى المشاركين نحو الأمانة الزائدة فى عرض المشكلات والثقة المتبادلة بين أفراد المقابلة. ومع الوقت تخف تدريجياً مشاعر الشك والتوجس اتجاه الآخرين، وتتبدل المشاعر السلبية بمشاعر أخرى تتمثل فى وحدة المجموعة، ودعم أفرادها لبعضهم البعض "بصفة عامة" لكشف أغراض تجاربهم الشخصية الداخلية وتجاربهم فى علاقاتهم، وردود أفعالهم فيما بينهم كجماعة. ويبدأ أفراد المقابلة بعرض فهمهم لمشاكل بعضهم البعض، وإظهار شعور بالثقة أكثر فى فهم تجارب الآخرين. فى هذه المرحلة بالذات تظهر الإمكانيات الحقيقية للنمو النفسى وتوظيف قدرات كل فرد تبدأ فى التحقق. كون الفرد فى جو دافئ ومؤيد له، حيث التلقائية وإسقاط الوسائل الدفاعية للنفس، تتاح هنا لأفراد المقابلة أن يرى كل واحد منهم

نفسه أوضح وبشكل فيه أمانة فى تقييم الذات، برغم مـــا يصـــاحب الإفصاح عن تجارب شخصية مخفية معينة من ألم أو الإعراب عن صراعات قديمة كان الإنسان يحاول إسقاطها من شعوره. أيضاً هنـا فى هذه المرحلة تتاح للفرد فرص اختبار تجارب الآخريـــن وهـم يسترجعونها، وربما الحصول على استبصار فريد من نوعـــه عـن كيفية تفهم كل إنسان لسلوكه وأثر هـــذا السـلوك علـــى شـــخصية المتحدث فى المقابلة. استرجاع بعض التجارب قد لا يكون مريحـــا أو مرغوباً فيه، مما قد يفضى إلى قلق وتوتر وغضب أو ألم نفســي كبير، ومع ذلك فإن أفراد المقابلة يجدوا لديهم القدرة على التعـــامل مع ردود الأفعال هذه بصورة مؤثرة بأن يمد كل واحد منـــــهم يـ العون للآخر، بطريقة فيها أمانة وقبول لشخص الآخر، وذلك بتأكيد التفهم الكامل لمعاناتهم.

فى المراحل المتقدمة فى المقابلات، نجد مشاعر التقـــار والتعاون بين أفراد المقابلة كنتيجة طبيعية لتقاسم التجارب الحياتيـ أو الماضية. لقد قابل كل منهم الآخر بنوع من التفتح والمصارحـــة والتجاوب والتقارب النفسى، وهى مشاعر قد لا نجدها بكـــثرة فـ العالم الخارجى. وربما تكون هذه هى المرة الأولى لأفراد المقابلـ أن يعبر فيها عن مكنون نفسه مـــن انفعـــالات وتجـــاوب بطريقـ "دوغرى" غير ملتوية وبأمانة. لقد أتاحوا لأنفسهم لأن يكـــون كـ ا

واحد منهم "نفسه الحقيقية" دون تظاهر بزخارف واصطناع أقنعة مزيفة يجابه بها المجتمع التى يتعامل بها عادة الناس فى المجتمع الخارجي. هنا فى هذه المرحلة المتقدمة من المقابلات يكتشف كل واحد أنه مقبول من "الآخر" حتى بعد أن كشف كل واحد عن دخائله الذاتية.فلو أن فردا قد جعلهم فى حالة ضيق من تصرفاته، فإنهم يظهرون هذا الضيق لو أحس أحد أنه خجول أو يكبت مشاعره، فالمقابلة فرصة لأن يخرج كل واحد من "شرنقته" ليعبر بصراحة عن نفسه. لو وجد صراع أو مشاكل تشغلهم فإن هذه فرصة "أن يفك عن نفسه" أو يعرض هذه المشاكل لكى يرتاح من عبء إخفائها. باختصار هذه مرحلة يسقط فيها كل فرد فى المقابلة الأقنعة المزيفة التى يغطى بها وجهه، ليعرف الفرد نفسه الحقيقية دون خشية من نتائج الرفض الاجتماعى فى العالم الخارجى. والآن أصبح هناك دروسا مستفادة هامة كثيرة وقد تعلمها كل واحد من المقابلات فيما يتعلق بعرض التجارب الداخلية، وسلوك التفاعل بين أفراد المقابلة. "الصورة كما نعرضها الآن هى الصورة المثالية لأسلوب وشكل المقابلة، لأن بعض المجموعات قد تحقق مما سبق أن عرضناه، أكثر من غيرها التى قد تكون أقل نجاحا".

مجموعة المقابلة يجب أن تنتهى بزيادة قدرة الفرد على تحقيق ذاته، فبعد كل هذه التجارب المكثفة للمجموعة، يجب أن

يقوم كل فرد بتحقيق ذاته بصورة أفضل وبشكل كامل، ويحق لنا أن نتوقع درجة أقل من عدم الاتساق بين مفهوم كل واحد في المجموعة عن نفسه، وبين خبراته الطبيعية ككائن بشرى التى يجب ألا تتعارض مع هذا المفهوم، ولكن هذا لا يعنى أن كل فرد سيصل إلى منتهى السعادة، على فرض وجود هذه السعادة، لكن المقصود أن مقابلات الجماعة ستفتح المجال للفرد ليرتاد آفاقاً جديدة تتيح له نمو وتطور أكبر. بعض مراحل هذا النمو قد يصاحبها معاناة، فكل تغير فى الحياة يصاحبه معاناة، لكن تعلم أن يكون الفرد هو شخصيته الحقيقية، والتعامل بصدق مع الآخرين، والاعتراف بما كنا نخفيه عن أنفسنا من تجارب كنا نكبتها، وما شابه ذلك من مواقف، قد تفضى بالفرد إلى المعاناة، إلا أن هذه المواقف الجديدة تفضى بنا إلى الإشباع والرضا فى مواجهة النفس والعالم المحيط بنا، وتطوير قدراتنا على الاستقلالية والقدرة على أن يختار الكائن نمط حياته بشجاعة وإقدام.

يعتقد "روجرز" أن كل تجارب "أسلوب المقابلة الجمعية" هى فى مجملها إيجابية، وإن كان جميع علماء النفس لا يوافقون على هذا الرأى." ومن ثم فإن روجرز حريص على أن يشير إلى عدة نقائض فى الأسلوب نأمل أن يتجاوزها هذا الأسلوب فى المستقبل:

١-تأثير المقابلات الإيجابية يكون أحياناً قصير الأجل.
٢-أحياناً لا يميل بعض الأفراد إلى حل مشاكل معينة فيحياتهم.
٣-احتمال أن يخرج على المجموعة أحد أفرادها بقصة تتم على ذهان وعدم السلامة من الناحية العقلية.
٤-اشتراك زوج وزوجة في المقابلات الجماعية قد يغير من سلوكه أحدهما بطريقة مقلقة للطرف الآخر في العلاقة الزوجية، وقد ينتهي به أو بها الأمر إلى علاقة جنسية غير مشبعة مع أحد أفراد المجموعة.
٥-الأشخاص الذين يشتركون في عدد من المقابلات الجماعية، قد يحاولون الإسراع في حل مواقف معينة وبالتالي يتدخلون بالسلب في مسار العملية العلاجية. هذه الحالة تتردد أكثر في المقابلات الجماعية عن طريق الاتصال التليفوني.
٦-بعض الأشخاص بعد أن يتخلى الواحد منهم عن أساليب الدفاع النفسية التي يحمي بها شخصه يغامر بسلوك أكثر جرأة. وبعضهم عندما يفعل ذلك يصل به الأمر إلى تفجر المشاكل في وجهه. "برغم وعي روجرز بمخاطر المقابلات الجماعية بتركيزها على التجارب بصورة مكثفة، إلا أنه يعي أيضاً أن المقابلات يجب أن تتسم بالسهولة والتنظيم الجيد لتجنب آثارها في حالة الاستمرار المتواصل". وبالتالي يجب إجراء المزيد

من الأبحاث حتى لا نتسرع فى الحكم على فاعلية المقـــابلات الجماعية كأسلوب علاج نفسي. سواء كان هذا الحكم بالإيجـاب أو بالسلب.

العلاقات الحميمة

فى كتابه الصادر فى سنة ١٩٧٢ "الــزواج وبدائلــه أو أن نصبح شركاء فى علاقة حميمة"، يحاول روجرز الانغمـــاس فـى المظاهر الدقيقة لعلاقة عاطفية حميمة. وأسلوبه يعتبر أسلوباً معـبرا عن ظاهرة معينة عندما نراه يعرض تجـارب واختبـارات علـى أولئك الذين تضمهم هذه العلاقة الحميمة، متفحصاً بدقـــة وإمعـان الخطابات والمادة التى يستقيها من مقابلاته مع الأزواج والزوجـات. ولا تشمل دراسته للأفراد المرتبطة عاطفياً بعلاقة الزواج فقط، بـل كل من تربطهم علاقة طويلة وحميمة. بعض الحالات التى درسـها كانت لأزواج وزوجات لم يرتبط أى منهم بزوجة أخـــرى، بينمـا حالات أخرى كانت علاقاتهم العاطفية والجنسية متعددة، أى أن كـلا من الزوج أو الزوجة له علاقة زواج ســابقة أو مقيمـاً لعلاقـات جنسية وعاطفية خارج إطار الزواج. وهو هنا حريـص علـى ألا تتدخل معتقداته "التى قد تدين مثل هذه العلاقات" فى دراسته. فـهو يدرس كل احتمالات العلاقات الإنسانية ومظاهرها، وأنه من حـق

كل إنسان أن يبحث عن شريك يشبع لديه تحقيق ذاته ويتفق أسـلوب حياته معه/ معها.

من خلال مراسلاته مع الحالات التـي يدرسـها اسـتطاع روجرز استخلاص عدة عناصر ومبادئ، يرى أنها موجـودة فـي العلاقات الدائمة والتي تنحو منحى النمو والترابط.

١-الالتزام الشخصي لتغير مسار العلاقة الحميمة، والتي تقود إلـى تواجدهم مع بعضهم البعض والعمل على هذا التواجد الحالي.

٢-تواصل العواطف والمشاعر الداخلية، والتعبير عنها بصراحـة، حتى لو أدى ذلك إلى تأثر العلاقة العاطفية بذلك، والإصـرار على عنصر فهم رد فعل الطرف الآخر على هذا التعبير.

٣-عدم التقيد بالتزامات أي طرف كزوج أو زوجـة، بحيـث أن سلوك كل طرف اتجاه الآخر ينمو تلقائياً دون حكم مسـبق أو توقع مسبق "أن الزوج يجب عليه أن يفعـل كـذا"...، أو "أن الزوجة يجب عليها أن تفعل كذا"..

٤-اكتشاف والمشاركة في الإحساس باستقلالية كل طرف، بحيـث يصبح كل طرف لديه وعياً متزايداً بتجربة الآخـر المعـبرة عـن ذاتيته، دون خضوع أي منهما للآخر.

يجب أن نوضح هنا أن "روجـرز" ضـد التـأكيد علـى موضوعات بعينها وهو ما نجده شائعاً في كتاباته. لأن الحياة أكـبر

من المواضيع التى نكتبها. الحياة نهر جـــارى وعمليـــة مســتمرة، وليست مواضيع جامدة محدودة. وردود أفعاله اتجاه ما يراه يكـــون متأثراً بالواقع، والواقع نفسه متغير. ويحب دائماً فى دراساته البحث عن مكنون النفس، المشاعر الداخلية التى يجب على أصحابـــها أن يعبروا عنها.

واعتناق الأفكار والمواقف شيء هام، فـــلا ينبغـــى علـــى الأفراد أن يتبنوا ويطوروا أسلوب حياة كل منهم، وفق قيم ومعـــايير مفروضة عليها فى السابق تحدد مســـار حياتـــهم بمـــا لا يـــودون ممارسته أو تجربته.

وأن اكتشاف المرء وتطوير الأسلوب المتفرد الخاص بـــه بما يحقق ذاته هو أمر هام لوجوده وتوظيف قدراته فى الحياة.

الفصل الرابع

تعليقات لمقارنات واختلافات ونقد وختام

الفصل الرابع

تعليقات لمقارنات واختلافات ونقد وختام

(١) مقارنات واختلافات

هناك طرق متنوعة للمقارنة وكشف المتناقضات لآراء فرويد وسكينر وروجرز. والمقارنات التالية تتركز حول أهمية الموضوعات فيما يتصل بالنظريات الثلاث عن السلوك الإنساني بالنسبة لكل منهم. وسنجد بعضها مألوفاً وفقاً للفصول السابقة.

وجهات النظر للطبيعة الإنسانية الأساسية .Views of Basic Human Nature

فرويد: وضع اقتراحات قوية جداً حول الطبيعة الأساسية للإنسان. وأكد بقوة على العوامل التكوينية الموروثة التى تؤدى إلى التوترات التى تحتاج إلى ارتياح: الدافع الجنسي والدافع العدوانى (الذى يصدر، بجدارة، من غريزتى الحياة والموت) التى تلح على الإنسان، والتى توجهه إلى الإرضاءات والإشباع الأنانى. وكان يميل تماماً للتشاؤم عن طبيعة الإنسان وكان متشككاً بالنسبة لمستقبل الإنسان. ومع القوى اللاشعورية للجنس ولإشباع الدوافع العدوانية منذ لحظة الولادة، يمكن للإنسان أن يعيش ويبقى فقط فى حالة إذ أوقف المجتمع تلك القوى أو غير من اتجاهها. وبدون

التطبيع الاجتماعى، تسود الفوضى ويحكم التخريب، عندما يحـــاول كل فرد أن يستخدم الآخرين لإشباع استمتاعه الشخصى الجنســى أو العدوانى. وبالنسبة "لفرويد" الرجـــل الإنســـان، "وحـــش همجـــى". والعمليات الحضارية هى فقط التــــى تضــــع الشـــهوانية الجنســـية والرغبات التدميرية تحت المراقبة. للمزيد من المعرفة لهذه الفقـــرة ومـــا بعدهـــا- أنظـــر كتـــاب فرويـــد "الحضـــارة ومطابقتـــــها "Civilization and its Discontents

ولا تحل المشكلة بالحضارة، ولكن، مادامت تلـــك العمليـــة تتناقض مع الميول الغريزية للبحث الذاتى، المســـتمر فـــى توليـــد درجات مختلفة من التوتر. "وفى ضوء التـــاريخ الإنســـانى"، فـــإن فرويد يفترض أن من أهم الأسباب التى تجعل النـــاس يخضعـــون أنفسهم لرقابة المجتمع هى دوافع كسب الحماية من بعضهم البعض، ولكن تلك الحماية تؤدى إلى خسارة السعادة التى كان من الممكـــن الاستمتاع بها من خلال إطلاق العنان للرغبات والشهوات الذاتيـــة. وعلى ذلك فإن لاشعور المرء بصفة مستمرة فى حرب مع قواعـــد وقوانين وقيم الحضارة إلخ. ولأن فرويد يشك فى أن هذا الصـــراع لا يمكن حله تماما، افترض أن الحضارة هى تحقيق عمليات التوحد "تمثل قيم الآخرين وخاصة الآباء" والتسامى "تحويل مجرى الطاقـــة الغريزية إلى أنشطة مرغوبة من المجتمع"، وذلك من أجل مقاومـــة

الطبيعة البشرية الأساسية. ويهدف علاج "التحليل النفسى" إلى تقوية الذات "الشعور، والمظاهر العقلانية للشخصية الإنسانية" حتى يمكن خلال المعرفة ضبط الغرائز والرغبات الدافعة ومحاولة إيجاد إخراج مناسب لها، بمعنى إخراج لا يؤدى فى النهاية إلى إضرار شخصى أو اجتماعى.

أما عن سكينر فقد وضع بعض الأسس للطبيعة الإنسانية ولكنه لم يوافق على أن كل شخص يولد بتكوين جينى يخضع للسمات العامة للنوع الإنسانى وللصفات الموحدة للفرد. وبعيداً عن الوقوع فى أسر الطبيعة الممكنة للمكونات المولود بها الإنسان. فقد اتجه سكينر وبسرعة نحو البيئة، مؤكداً على تأثيراتها المتنوعة على السلوك الإنسانى. ولم يضيع وقته فى التفكير والتأمل لما هو داخل الإنسان، وإنما كرس الوقت الطويل للدراسة الموضوعية للعلاقة بين السلوك وأحوال البيئة. وقصد من اقترابه التفرغ الكلى للتفسير التعليلى لقوة تأثير المتغيرات الخارجية "البيئة".

وأحد آرائه الخاصة التى قدمها عن الطبيعة الإنسانية هى فكرة أنه بسبب تاريخنا التطورى فإننا قد عززنا بتأثير تناولنا لبيئتنا "ولأن تلك السمات ذات قيم معاشة، فقد افترض أنها أصبحت مظهر جينى للجنس البشرى". لذا تجد فى علم نفس "سكينر" أن المواهب الجينية للبشرية لا تحدد بأحوال معينة يمكن تعزيزها.

وبالضرورة فإن "سكينر" فى معظم موضوعاته الهامة يعتبر أن الكائن الإنسانى مبرمجاً من البيئة، وعلى ذلك فإن الكيفيات الأساسية للطبيعة الإنسانية ليست جيدة ولا سيئة. وبالنظر للسلوكيات التى تعتبر نموذجاً هاماً فى تحديد رفاقنا فى الإنسانية "العدوان، العاطفة، حب الغير، الحقد، الحب إلخ"، فإن سكينر يؤكد أن تلك الصفات تنمو أساساً من تأثيرات الأحوال الخارجية التى تعمل وتؤثر فى الأفراد. ولا يظهر السلوك المعقد من مصادر داخل البشر ولا يجب الإشارة إلى عبارة "الطبيعة الإنسانية". ونحن أصلا ومبدئياً نتاج تواريخنا البيئية، وأن ظروفنا الحية الراهنة تصنعنا.

أما "روجرز" فقد وضع افتراضات محددة، مؤكداً أن الإنسانية تنمو طبيعياً متوجهة نحو الحركة، وأنها ستتقدم نحو التحقيق أو الإنجاز إذا كانت الظروف أو الأحوال مؤيدة ومبشرة. وهو متفائل، أكثر منه متشائم أو محايد. بالنسبة لسماتنا الضرورية والوراثية يرى أن الحرية فى إطلاق تلك السمات تؤدى إلى سلوكيات مفيدة وإيجابية. ويختلف تماماً نمو "الإنسان المدفوع" عند "روجرز" عنه عند فرويد "تخفيض التوتر" أو سكينر "الإنسان القابل للبرمجة".

وفى رؤية روجرز فإن الطبيعة الأساسية للإنسان يمكن الثقة بها. وأنه فى حالة ما أن يصبح الأفراد مبعدين عن طبيعتهم

الأساسية عندئذ فقط يصبحون فى أذى شخصى أو اجتماعى. ويدل موقف "روجرز" بوضوح، أنه من المرغوب فيه، أن يحصل الأشخاص على الحرية. بينما يصر فرويد ويؤكد الحاجة إلى الضبط أو التحكم في الدوافع الأساسية لكى تتحقق الحضارة. ويؤكد سكينر أنه لا يوجد مثل تلك الأشياء" كالحرية الحقيقية" مثلاً مادمنا جميعاً نتاج بيئاتنا "وجماعاتنا".

وفى كلام ملخص، مع مخاطر التبسيط الزائد، فإنه من المفترض أنه بالنظر إلى وجهات نظرهم عن الطبيعة الأصلية للإنسان فإن روجرز يعتبر شديد التطرف فى تفاؤله، بينما فرويد كان بالضرورة "متشائماً" وسلبى، وسكينر "طبيعى".

وجهات النظر عن نمو الشخصية

Views personolity Development

أكد فرويد على مراحل النفسى/ جنسية فى النمو "فمى، شرجى، قضيبى، كامن وجنسى، تناسلى" حيث نتحرك أكثر أو أقل نجاحاً. نحن نوضع منذ ولادتنا لكى نمر بتلك المراحل، حيث يتم خلالها تفاعل داخلى حيوى بين الطبيعة الموروثة القوية، "كمنعكس، مثلاً، فى الدفعات العدوانية والجنسية"، وعوامل فى الطبيعة، "مثلاً: "إجراءات تعلم قضاء الحاجة، سلوك الآباء عن الجنس، وقوة حب الوالدين".

وفى الطفولة المبكرة، حتى سن ٥أو ٦ سنوات تعتبر مرحلة حرجة وذات أهمية بالغة فى تحديد وتكوين الشخصية وتفاعلاتها، والمراحل الثلاث الأولى- فمية- شرجية قضيبية- لها معظم الدلالات وذات تأثير بالغ فى النمو بعد ذلك.

"سكينر": يرى فعل مستمر للبيئة فى تأثيرها على الفرد. ما يحدث الآن مثلاً: احتمالات التعزيز الحالى، قد يكون له أهمية فى تحديد السلوك مثلما حدث فى الماضى، ذخيرة سلوكية للشخص، والتى تعتبر من علم نفس سكينر. إن ما تحتويه الشخصية هو نتاج سلوكيات صدرت بمرور الوقت، ولا توجد مراحل للنمو.

ونحن نعتبر من وجهة نظر سكينر معبرين أو مصدرين للسلوك. وما نصبح عليه هو نتيجة ما نعبر عنه بسلوكنا. قد تزداد بعض السلوكيات فى ترددها، بينما سلوكيات أخرى قد تصبح جامدة، أو تقل فى ترددها أو تختفى تماماً، اعتماداً على نتائجها أو عواقبها.

"روجرز": يؤكد على إمكانية النمو المستمر والإرضاء، وأن الظروف المنفرة مثل "الحب المشروط"، قد يفيد أو يوقف النمو، وذلك بسبب سلوكيات سيئة التكيف maladaptive". ولكن إذا جاءت الفرصة "مثلاً من خلال التعرض لموقف إيجابى غير مشروط وفهم عاطفى"، يمكن "توفر فرصة إعادة إنشاء" لميول معظم الأشخاص، Their actualization خاصة وأنه لا يوجد

هناك مراحل محددة، كما وأن البشر له القدرة، من خلال اهتمامه واختياره الواضح، على النمو المتصاعد.

ووفقا "لروجرز" فإن الشخصية المرنة والقادرة على التوافق لمتطلبات المواقف الجديدة، تأتى عند حدوث خبرات إيجابية غير مشروطة للفرد. بينما الشخصية الجامدة تقريبا والدفاعية، فمن المحتمل أن تأتى نتائجها عند التعرض لخبرة إيجابية شرطية "أكثر منها غير شرطية".

وجهات نظر لسوء التوافق والعلاج

"**فرويد**": يرى أساسا أن الفصام مشكلة ذات جذور داخلية وأن الإنسان المتحضر يعانى صراعات انفعالية وتوترات لها جميع مظاهر السلوك المختلفة. وأن التفاعلات "الديناميات" الداخلية للشخص ذات أهمية كبيرة، تلك التفاعلات الناتجة عن الدوافع الغريزية، ولكن، وتدريجيا يؤثر العالم الخارجى على الأفعال الداخلية ويعقد منها أيضا. فمثلا، عندما تكبت خبرات معينة، فإن تلك المادة المكبوتة بالإضافة إلى الدوافع الغريزية من الممكن أن تصدر عنها مضايقات متنوعة.. يحاول العلاج بالتحليل النفسي الوصول إلى المصادر اللاشعورية للمشكلات بمعنى "إخراجها من

جذورها" وتمكين الأفراد من التوافق واقعياً مع دوافعهم الداخلية ومع بيئاتهم.

"**سكينر**": يؤكد على تأثيرات البيئة في ظهور عدم التكيف. وأن العقاب الزائد أو الرقابة المنفرة بالإضافة إلى تعزيز السلوكيات غير المرغوب فيها يمكن أن تجعل الآخرين يسمون مثل هؤلاء الأفراد بمسمى "فصامى أو ذهاني". ولا يرى "سكينر" مثل هؤلاء الأفراد أنهم يعانون من صراعات لاشعورية، وإنما يعتقد أنها عدم كفاءة على أو القدرة على التأمل أو الفكر، أو محاولة التعامل مع حالات افتراضية داخلية، ومن المفضل أن تبقى على المستوى السلوكي، عندما يمكن للعلاج الموضوعي تناوله.

ويوصي "سكينر" "بالعلاج" مع تقديم البدائل كفرص طالما أن السلوكيات الملحوظة مؤكدة، والسلوكيات غير المتكيفة تكون ناتجة عن أحوال بيئية سيئة، أو لم تراقب أو تضبط جيداً أو ذات تعزيزات سيئة التطبيق، كذلك السلوكيات المتكيفة يمكن تشكيلها وتأكيدها من خلال التعزيز، وإطفاء السلوكيات غير المرغوب فيها، والرقابة الجيدة للتعزيزات المحتملة أو العارضة التي تؤثر في حياة الفرد. والتأكيد هنا ليس على شفاء أو معالجة بعض الذين يفترض أنهم "مرضى العقل".

"**روجرز**": تفترض نظريته أن المشاعر والسـلوك غـير المتكيف من الممكن أن يكون نتيجة أن عملية تحقيق الذات بصـورة طبيعية قد صادفها إعاقة أو توجيهها إلى مسار خـاطئ يوقـف أو يعطل النمو الطبيعي، ومن ثم يعيق تطور الذات. ولأن "روجـرز" يعتبر أن طبيعة الإنسان بصفة أولية إيجابية "موجهة نحـو وعـى وإدراك للخبرات ونحو العلاقات الطيبة مع الآخرين" فـإن النـاس يدخلون في تعقيدات لمشكلاتهم فيما يشعرون أو يسـلكون فقـط إذا كانت طبيعتهم الأصلية قد أفسدتها تأثيرات اجتماعية.

والعلاج عند "روجرز" يتناول كيفية خلق مناخ من القبـول وفهم عاطفي يخفف ويلطف الحاجة إلى الدفاع عن النفس "الدفاعية" ويسمح بفحص وتحرى كل المشاعر والخبرات الداخلية الأخـرى، مع التأكيد الكبير على الإمكانات الشعورية فى العـلاج المتمركـز حول العميل، مختلفا عن علاج فرويد، لأن "روجرز" يميل إلـى أن يتقبل ما يقوله العميل فى الموقف العلاجى "هنا والآن" وعنده قـدر كبير من الثقة في قوى الإنسان على كشف ذاته فى حالـة وجـود مناخ دافئ ومقبول. ويشعر "روجرز" أنه من المفضل عدم تفسـير أو البحث عن المعانى الخفية لما يقوله العميل المريض، ولكن مـن

المفضل أن نسمح له بأن يعيد عباراته كلما تقدم العلاج حتى يستطيع أكثر فأكثر التعبير عن خبراته الحقيقية.

وعلى ذلك تكون المسئولية على عاتق العميل ليفهم بدقة كيف يعبر عن "نفسه أو نفسها". وتلك القدرة تزداد خلال العلاج. ويضع تأكيداً كبيراً على تنمية وتطوير حرية العميل فى الاختيار، كما يعترض "روجرز" على النظر إلى الشخص فى أثناء العلاج "كموضوع" للتغيير بواسطة المعالج، بينما المعالج السلوكى الراديكالى أحياناً، "أو نادراً"، ما يعتبر تعامله مع مرضاه كموضوعات يجب ضبطها أو تناولها معالجتها". ويفترض "روجرز" أن التحليل النفسى الفرويدى التقليدى يعرض تحليلاته على المرضى، أكثر مما يسمح للعلاج بأن يكون مفتوحاً أو عملية تتسم بالحرية. وهناك وجهة نظر مؤيدة وأخرى معارضة على موضوع: إلى أى مدى يستطيع المريض تحديد العملية العلاجية، وتمثل وجهة نظر "روجرز" "العميل هو الذى يحدد إنهاء" عملية استمرار العلاج. وحتى إلى هذا الحد فإن المعالج يؤثر فى العميل عن طريق إنشاء "مناخ" علاجى خاص.

وجهات نظر عن دور المجتمع

"**فرويد**": يعتقد أن هناك صراع قائم بين الرجـــل الفطـــرى والحضارة. فالغرائز التى تنمى الجنس والعدوان ليس مـــن الســـهل تصالحها مع المطالب الآمنة للمجتمع، وذلك من خلال تقديم العديـــد من إمكانات التسامى، "والمجتمع قادر على تسهيل هذا الصـــــراع". فمن واجب الآباء، والمعلمون والوكلاء المهتمون بالثقافة هو وقـــف النزوع الطبيعى إلى حد ما "لمنع الفوضـــــى والتخريـــب"، إلا أنـــه وبالرغم من ذلك فإن نتائج التخريب قد تحدث. إن الدور الرئيســـى للمجتمع هو التعامل مع الفطرة الإنسانية الأساسية من خلال طـــرح حلول وسط ممكنة، وتقديم قنوات تخريجيـــــة صالحـــة لاســـتخدام الطاقات الغريزية، فالحضارة تحيا وتنمو من خلال الدوافع الجنسية والعدوانية التى توقف جزئياً وتتسامى جزئياً.

"**سكينر**": يؤكد أن المجتمع لكى يتولى مســـئولياته بجدية شديدة عليه أن يضبط من سلوك أعضائه "سواء كان ذلـــك معلن بوضوح أو غير معلوم". ويعتقد "سكينر" أن الكثير مـــن مشـــكلات قيادة الإنسان خطيرة جداً ومعقدة عندما تترك للمصادفة أو تـــهمل وعن مفاهيم الحرية والكرامة، فهو يفترض أن هؤلاء الذين يعتنقون قيم الحرية والكرامة يعتقدون بصفة عامة فكرة أن السلوك الإنسانى

يتأثر دائما بالعوامل البيئية، وهم يخلطون الموضوع بين الإدعاء بأن الإنسان يمكنه أن يعمل خارج قواعد تشريط "السبب والتأثير Cause- and- effect".

ومن وجهة نظر "سكينر" أن دور المجتمع الرئيسى هو وضع الخطط والنظم التعزيزية التى تزيد فرص الحياة والبقاء، ومادام الإنسان قابل للتغيير، فإن هندسة السلوك تعتبر مسألة حاسمة. والضبط البيئى مطلوب لتنشئة سلوكيات ذات مزايا شخصية واجتماعية للفرد "فمثلا، سلوكيات مثل السلام، والتعاون ومراعاة مشاعر وحقوق الآخرين" يجب إنشاء برامج لتشكيل وتفضيل تلك السلوكيات.

وأيضا الوسائل لاستبعاد السلوكيات غير المرغوب فيها، مثلا تجنب استخدام العقاب والرقابة المنفرة.

"روجرز": يرى أن المجتمع بصفة عامة شديد الإعاقة والجمود، فالإنسان منذ البدء مقدر له النمو والازدهار كأفراد وجماعات، ولكن الآباء والمعلمين، وفى العمل يعارضون هذا القدر بوضع قيم وعوائق بالقوة أمامهم وملتصق بهم. فإذا سادت وانتشرت وجهة نظر "روجرز" فإن مؤسسات المجتمع مثل "البيت والمدارس والحكومة إلخ" ستتحول إلى عمليات أكثر منها كيانات

جامدة وساكنة. وفى رأيه أن طاقة الإنسان وإمكاناته الكامنة المحتمل تحقيقها عظيمة، وأنه لا يمكن الآن معرفة ماذا ستكون عليه الإنسانية البشرية فى المستقبل إذا استخدمت تلك الإمكانات الكامنة. وعلى ذلك فإن على المجتمع أن يسمح بالحرية للتجريب فى الطرق البديلة للحياة ولخلق مخارج لجميع الطرق، وأيضاً من المهم للغاية على المجتمع أن يسمح بحدوث الفشل دون إدانة الإنسانية فى شكل دائم للصراع "فى الكينونة الحالية والمستقبلية" وعلى المجتمع أن يكتسب المرونة ويتجنب اللوم والاستهجان للمحاولات المختلفة حتى يمكن تحقيق النمو والإنجاز.

وجهات نظر على دراسات السلوك الإنسانى

كرس "فرويد" تحليلاته للسلوك الإنسانى بالأسلوب الوصفى والتأملى للمراحل الأولية فى نظريته التطورية، ولقد استنبط أفكاره وعدل منها من خلال معالجته وتعامله مع مرضاه، وفكرته عن اللاشعور وقراءاته الأدبية وملاحظته الأحداث العالمية. وكان اقترابه بالضرورة استقرائى ومؤثر أكثر منه استنتاجى أو استدلالى، وبمعنى آخر فقد قصد أن يجمع معاً البيانات المتاحة من ملاحظاته لكى يصيغ ويكون فكره، أكثر من أن يشكل بالتفصيل

وبعناية كيـــان نظـــرى يمكـــن أن يخضـــع للخطـــة أو لاختبـــار الافتراضات.

لم يكن فرويد ذو اتجاه تجريبى، ولم يجمع بيانـــات كميـــة وبدلاً من ذلك فقد كانت بياناته كيفية وموضوع لقدر عظيـــم مـــن التحليل والتفسير. وقد ركز على الدراسة العميقة لحالات الأفراد فى العلاج محاولا إثبات أو التحقق من مفاهيمه مـــن خـــلال تناســق ملاحظاته، أو الافتقار إلى هذا التماسك فى سلوكيات مرضـــاه فـــى مختلف المناسبات العلاجية خلال عملية التحليل النفسى ويربط هـــذا التناسق أو عدمه بما يراه فى كيان نظريته الأساسية.

وقد أيد "فرويد" فكرة التحرر من ثبات التعريفات والمفاهيم، بأن التعريفات يمكن تغييرها إذا قدمت الملاحظات معلومات جديـدة. وقد انعكس هذا الاتجاه فى كتاباته خلال عدة سنوات حيث كان فـــى قمة نشاطه أثناء وضع نظريته فى التحليل النفســـى. والواقـــع، أن القارئ الذى لا يرضى عن تخلى فرويـــد عـــن معـــانى مختلفـــة للمصطلحات فى أوقات مختلفة، هذا القارئ جديـــر "بـــه أو بـــها" محاولة فهم علم النفس الفرويدى.

مما سبق، يجب ألا نفكر أن فرويد قد غير أفكاره بســـرعة وبسهولة. فكثيراً ما عارض التخلى عن فكرة فـــى نظريـــة ثبـــت صدقها. ولم يكن دائماً يتبع النصيحة بأن تكون قابلـــة للتعديـــلات.

ومع ذلك فإن تاريخ نظرية التحليل النفسى يبدو أنها، وعلى المدى البعيد حدثت فيها تغييرات بديلة. ومن المهم ملاحظة أن تلك التغييرات جاءت عندما كان فرويد نفسه مقتنعاً بضرورتها. كان مستقلاً فى تفكيره، ولم يكن يبدل افتراضاته بسرعة على أساس نصائح الآخرين أو نقدهم. وقد وضع التغييرات أو البدائل أساساً من خلال ملاحظاته ونقده الذاتى.

"**سكينر**": يؤكد على الطريقة التجريبية للحصول على معلومات عن السلوك، مؤكداً أهمية الحالة الواضحة، وتعريفات علمية واضحة عن المتغيرات المستقلة والمتعمدة [١]. وقد أكد دقة تحديد العلاقة بين "السبب والتأثير Cause and effect"، بين عوامل البيئة والسلوكيات. وبمعنى آخر، يشعر "سكينر" أنه من

---

[١] An independent variable – المتغير المستقل، عامل Factor معدل بواسطة القائم بالتجربة لكي يدرس تأثيرات تلك المتغيرات لبعض السلوك- يعنى المتغير المعتمد. فمثلا قد يغير القائم بالتجربة فترة الوقت بين التعزيزات (فى تلك الحالة يكون المتغير المستقل هو فترات الوقت بين التعزيزات) من أجل دراسة تأثيرات تلك الاختلافات على معدل الناتج (المتغير المعتمد هو معدل الإنتاج). التعريفات الإجرائية Operational definitions تعنى كيف يتم التعامل مع المتغير المستقل وكيف يقاس المتغير المعتمد.

الأهمية بمكان فحص العوامل التى يوظف فيها السلوك، ويعتقد أن هذا يمكن أداؤه جيداً من خلال أحوال تجريبية محكمة بعناية. ويرى أنه من الغموض وسوء التقدير أن تؤخذ الملاحظات السلوكية ببساطة من مجرد الجلسات العيادية أو الطبيعية. ومن وجهة نظره أن دارس السلوك يتقدم جيداً فى دراسته عندما يضبط بعناية المتغيرات ويقاس السلوك بدقة وأسلوب كمى.

ويقدم صندوق "سكينر" معانى للدراسة الموضوعية لسلوك الحيوانات الأدنى. ونتائج تلك الدراسات أدت إلى القواعد الأساسية التى أمكن تطبيقها على المستوى الإنسانى. كما أن طرق التحكم الدقيقة والقياسية أيضاً يمكن تطبيقها لدراسة السلوك الإنسانى. فمثلا إذا كان تأثير التغير فى إمكانات حدوث التعزيز يمكن دراستها فيجب أولاً تجميع "البيانات القاعدية Base line Data"، وتسمح هذه البيانات الأساسية بمعرفة إمكانية تردد حدوث سلوكيات خاصة قبل إنتاج التغير مع قياس مدى تردد تلك سلوكيات بعد حدوث التغير.

ولم يكن سكينر نظرياً بالمعنى النموذجى لتلك الكلمة. فهو ضد استخدام المفاهيم المجردة واختيار الافتراضات الشكلية. ويعتقد أنه يمكن إتمام البحث بكفاءة دون نظرية. وفى الواقع أنه يشعر بأن النظرية يمكن أن تغير الاتجاه بعيداً عن الهدف الأساسى لكشف

ماذا يسبب ماذا، لأن النظرية يمكن أن تسيء استحضار الحقائق الأصلية وتعطى صورة خادعة لتصبح معروفة أكثر من الواقع وتؤدى إلى الإصرار على استخدام طرق مؤثرة. وبصفة عامة فقد نجد أن "سكينر" كان موفقاً في قوله أن اختيار النظرية أو استخدامها مضيعة للوقت، وأنه على المشتغلين بعلم النفس الاهتمام بجمع البيانات وربطها بالمتغيرات القابلة للتناول أو المعالجة. وقد افترض أن هناك استخدام للنظرية إذا كان هذا المصطلح يدل على استحضار شكلى للبيانات التى تم جمعها وتم تحليلها، بمعنى أن "سكينر" لم يعترف بالحاجة إلى ربط النتائج ذات المعنى ببعضها البعض بمجرد أن يتم الحصول عليها. هذا الاقتراب يختلف عن استخدام النظرية مجردة حيث يشكل "سكينر" الافتراضات ويختبرها ويمارسها بعدئذ بالأبحاث السيكولوجية لمراجعتها.

وقد ركز "سكينر" "مثلما فعل فرويد" على دراسة الحالات الفردية، على الرغم من أن "سكينر" كانت "أفراده" غالباً من الفئران والحمائم فى المواقف التجريبية، أكثر من الإنسان فى المواقف العلاجية. ويعتقد سكينر أن علم السلوك يجب التحكم فيه وضبطه لدقة سلوك كل كائن فردى، ولا يكتفي من مجرد عبارات عما يحدث "في المتوسط". وقد قام بتحليلات مفصلة لعوامل البيئة التى

تسبب تغيرات خاصة فى سلوك الكائنات الفردية، وفى طريقته تلــك أنشأ قواعد سلوكية محكمة.

وعلى الرغم من أن أعمال فرويد تضمنت دراسة متعمقـــة للموضوعات الفردية، إلا أنه من الواضح لـــم يكـــن معتقـــداً بـــأن العبارات الدقيقة عن السلوك الإنسانى كانت ممكنة، ولم يكن منـــهج فرويد مصمماً ليجعل علم النفس علم تام. ومن الواضـــح أيضـــاً أن بيانات فرويد كانت كيفية، بينما بيانات ســـكينر الأساســـية كـــانت كمية.

"**روجرز**": يؤكد على أن الموضـــوع، واقتراباتـــه الكيفيـــة لدراسة سلوك الإنسان مثل دراسة ســـكينر مـــن الوســـائل الهامـــة للحصول على المعرفة. كما أكد كثيراً أيضاً على ضرورة المعرفـــة الذاتية "أن يعرف الإنسان نفسه" وعلى معرفة ظواهر عواطفـــه أو شخصيته الداخلية "فهم الحـــالات الذاتيـــة للآخريـــن"، وأنـــه مـــن الضرورى الإصرار على كل تلك السبل."الموضوعيـــــة، الذاتيـــة، العاطفية". ويعتبر "روجرز" شمولى أكثر منه استثنائى فى توصياتـــه لطرقه فى دراسة الإنسان، كما يعتقد أن العلم الســـلوكى المناســـب يعتمد على نماذج تلك الطرق الثلاث للمعرفة. وأنه لا يوجد ممر أو مسلك محدد تماماً لمعرفة علمية حقيقية. إنه من الواجب اســـتخدام

الطرق المختلفة بطريقة متصلة ومتداخلة حتى يسمح ذلك بالتحرك المثمر نحو الهدف لفهم تام عن السلوك الإنسانى.

وعلى الرغم من الإصرار والتأكيد على أهمية تلك الطرق الثلاث للوصول إلى المعرفة، فقد كان "روجرز" يفترض أن أكثر تلك الطرق الأساسية أهمية هى المعرفة الذاتية.

فهو يشعر بأن العمل يبدأ دائماً من خلال أطر مرجعية داخلية، بمعنى أن الخبرات الذاتية الداخلية تقدم المادة الأساسية حيث تتشكل المفاهيم والافتراضات شعورياً.

ويعتقد "روجرز" أنه حتى السلوكيين الذين يحترمون الوسائل العلمية الموضوعية والكمية، يبدأون بالمشاعر والاتجاهات نحو "الخبرات الذاتية الداخلية" وحملها نحو الاتجاهات البحثية. وقد أشار "روجرز" أن الافتراضات الداخلية الخلاقة تنبثق من الخبرات الفردية، وأنها تراجع وتختبر خلال خبرات أكثر وقد تصل إلى مرحلة تشكيل إدراكى وفهمى بحيث يمكن وضعها اختبارياً تحت مجهر الطرق الموضوعية العلمية.

وكما يلاحظ "روجرز"، أنه حتى عند اختبار الافتراضات موضوعياً فإن الدليل الموضوعى يكون مناسباً للخبرات الذاتية حتى وإن كانت غير مناسبة، فقد تقيم نقدياً أكثر من كونها مناسبة. وقد استخدم البحث خارجاً عن نطاق الإدراك الحسى العادى كمثال

(أنظر الكتاب Rogers' article in Wann's Behaviorism and Phenomenology .1964 p.114)، وهناك ما يدل على أن كثيرا من السيكولوجيين يرفضون ذلك بشدة لأن ذلك لا يتناسب مع خبراتهم الذاتية. وباختصار، يرى روجرز أن الذاتية والموضوعية تعتبران مظاهر عملية، وأن تلك الحقيقة يجب تفهمها والتنبه لها.

وفي رأى "روجرز"، أن "فرويد" كان شديد الغموض في أفكاره عن لاشعور المرء وسلبيته، وكيفية غرائزه، وأن "سكينر" كان شديد التركيز على دراسة الإنسان كموضوع. وتتضمن توصيات "روجرز" النظر إلى الإنسان باعتباره كائنا أكثر شعورا في وظائفه ومحاولا فهم خبراته الذاتية. وكثيرا ما يستخدم "روجرز" البيانات البحثية لزيادة الحصيلة عن السلوك الإنسانى ولكنه لم يضع تلك البيانات على قاعدة ذات جدارة علمية. فهو يعتقد أن هناك "الإنسان بمجمله"، ويرى أهمية وقيمة تنوع وسائل محاولات فهم الأفراد.

وجهات نظر على حيوية المشكلة الاجتماعية- العدوان التدميرى.

Views on a vital social Problem Destructive A ggression

يؤكد "فرويد" باهتمام بالغ على نزوع الإنسان للتدمير. ويعتقد أن هذا الميل وراثيا فى الطبيعة الإنسانية، كمخرج متنامى

لغريزة الموت. وفى عام ١٩٣٢ أرسل فرويد خطابا إلـــى ألـــبرت أينشتاين، حيث عبر عن اعتقاده بأن الحروب يمكن إرجاعها إلـــى الدوافع العدوانية التى لا يمكن الاستغناء عنها تماما. وأظهر أن تلك الدوافع العدوانية قد تصدر على الأقل من تحكم جزئى من خـــلال تأسيس قيود بين الناس مثلا: "الاهتمامات المشتركة تســبب توحـد المشاعر بين الناس، أو المجتمع" ومـــن خـــلال تقويـــة الأسـباب الشعورية والتحكم فى توظيفها. بالإضافة إلى أن النظرية الفرويديـة تفترض أن الدوافع العدوانية يمكن أحيانا أن يعـــاد توجيهـــها إلـــى أنشطة عدوانية اجتماعيا، بمعنى جعلها ذات قيم أخلاقيـــة، يمكـن تنميتها من خلال عملية التطبيع الاجتماعى. وعلى الرغم من تلـــك الوسائل الممكنة للتحكم فى الميول العدوانية الداخلية، فإن كتابـــات فرويد تبدو بصفة عامة ذات نغمة تشاؤمية عن قدرة الحضارة علـى التغلب بكفاءة عالية والسيطرة على مشكلة العدوان.

"**سكينر**": يفترض أن التكوين الداخلى للإنسان قد يحتـــوى على أنماط معينة من الاستجابات العدوانيـــة مثـــلا: "الضـــرب أو العض عند الهجوم الجسدى"، كنتيجة لمساهمة تلك الاستجابات لبقاء النوع خلال التاريخ التطورى. وأن الدفعة الأساسية فـــى تفسـير للسلوك المؤذى والتدميرى يعزى إلى عوامل بيئية، كعواقب حاليـــا وسابقة لتعزيزات فى حياة الأفراد فمثلا: إذا حقق السلوك العدوانى

نتيجة فيها مكافأة وهى الحصول على ما تريد، عندئذ ستميل لتكـوار هذا النمط السلوكى.

ووفقا للفكر السكينرى، إذا أمكن تغيير العالم بحيث لا يوجد عقاب للسلوك العدوانى التدميرى، فإن تلك السلوكيات تقـــل عنفـا وترددا. والعقاب قد يتضمن إزالة شيئا غير مرغـوب فيـه، مثـل التهديد من شخص آخر، بالإضافة إلــى الحصـول علــى شــىء مرغوب فيه. فالأول تعزيز سلبى والأخـير تعزيـز إيجـابى، وأن تخفيض السلوك العدوانى المؤذى فى المجتمع يتطلب تغيير الأحوال التى تعزز مثل تلك السلوكيات إيجابيا وسلبيا.

"**روجرز**": تفترض نظريته بـأن الأذى أو العـدوان غـير المعقول غالبا ما يظهر من أشخاص ليس لـهم مـهام أو وظـائف Functioning. والأشخاص الذين يملأون حياتهم عمـلا مثـل: "هؤلاء الذين فى اتصال دائم مع خبراتهم العميقة الداخليـة والذيـن يملكون رؤية منظورة واضحة للعالم من حولهم" لا يميلـون إلـى العدوان التدميرى. مثل هؤلاء الأفراد ذوى كينونة عالية اجتماعيـا يبتغون علاقات شخصية داخلية متناغمة، فإذا سلكوا عدوانا فإنه من المحتمل أن يكون هذا السلوك مناسبا وواقعيا وعادلا.

ويؤكد "روجرز" على قدرات الإنسان على أن يكون منطقيا وقادرا على أداء استجابات مناسبة للمواقف. تلك القدرات تنمو طبيعيا إذا وجدت الأحوال الصحيحة مثلا: "إيجابية غير مشروطة". والحل عند "روجرز" بالنسبة لمشكلة التدمير الإنسانى هو خلق أحوال تسمح وترضى الملكات الأساسية للإنسان. هذا مهم بصفة خاصة للتعبير عن الاختلافات بين أفكار فرويد "وروجرز" عن الطبيعة الأساسية للإنسان عندما نتناول مشكلة العدوان التدميرى.

روجرز فى مقابل سكينر بالنسبة لضبط وإحكام سلوك الإنسان.

مقالة بعنوان:

Rogers Versus Skinner of controlling Human Behavior Some issues Concerning The control of Human Behavior.

نشرت فى عدد نوفمبر سنة ٥٦-" موضوع فى العلم" كانت مادة المقال عن ندوة عقدت فى اجتماع سنوى للجمعية الأمريكية لعلم النفس، حيث قدم "روجرز وسكينر" آراءهما وسنعرض هنا باختصار بعض اختلافاتهما.

يؤكد "سكينر" أن السلوك الإنسانى محكوم أو مضبوط. ويعتقد أن تلك حقيقة لا مفر منها ولا يمكن تجنبها أو القفز عليها. وبالنسبة له فإن كل شخص "ضمنيا" إما محكوما عليه أو حاكما

على غيره. ضابطا أو مضبوطا، ويقدم التحليل العلمـــى للتجـارب السلوكية بيانات تشرح تلك العمليات للضبط، أو أن تستخدم لتحسـين مناطق توظيفية للإنسان مثل: التحكم الشخصى، التعليم والحكومـــة، ويرى "سكينر" بأن الطرق التقليدية للنظر إلـــى السـلوك، والتـــى توضح كثيرا مسئولية التركيز على الإنسان أكثر منها على العوامـل البيئية، تعوق التقدم فى تحسين الموقف الإنسانى. ويرى ترك العلـم ينير الطريق باستخدام القواعد التجريبية المحـــددة مثـل: "قواعــد التعزيز" وذلك لتكون أكثر إفادة لسلوكيات مثمرة واجتماعية.

أما تحفظات "روجرز" الرئيسية بالنســـبة لآراء "ســكينر"، سؤال ما هى الأغراض أو القيم ... إلخ التـــى يمكــن أن توجــه الضبط أو التحكم. وأيضا فإنه يرى أن "سكينر" لـــم يلتفـت جيــدا لمشكلة القوة ومسائل مثل من الذى سيتم ضبطه أو إحكامه، ومـــن الذى سيقوم بفعل الإحكام أو الضبـــط، ومـــا هـــو نـــوع الضبــط المستخدم؟!

وقد وافق "سكينر وروجرز" أن العلوم السلوكية قد تقدمـــت فى التنبؤ بالسلوك الإنسانى، ولكنهما اختلفا تمامـــا، فـــى رؤيتـــهما بالنسبة لكيفية الوصول إلى تلك المعرفة. وفى رأيهما لحدود العلـــم. يرى "روجرز" أن الأهداف العلمية ذات صبغة شـــخصية وليســت موضوعية وأن تلك الأهداف ترشد العالم "رجل العلم" وهؤلاء الذين

يستخدمون العلم فى أبحاثهم. وبالنسبة له فــإن هــذه الاختيــارات الشخصية لمواضيع بحثنا لا يمكن إنكارها مثل تلــك الاختيــارات لتحديد وفحص ودراسة المشكلات.والمناهج الواجــب اســتخدامها، ومدى قابليتنا لنتائج بحوثنا، فالعلم وحده لا يحــدد مســار ومــدى تقدمه، هذه مسئولية الأشخاص الذين يختارون ويتخذون القــرارات. أكثر من ذلك فهو يعتقد أن قراراتنا على الحكم، فى مدى تطبيــق النتائج العلمية للأبحاث، ذاتية خاصة فى مجال حساس ومهم مثــل التحكم فى سلوك الإنسان أو محاولــة تغيير هــذا الســلوك، أى باختصار "روجرز" يعتبر أن الإنسان كيان قائم بذاته ومستقل عــن المحاولات العلمية، بل أن الإنسان هو الذى يحدد بذاتيتــه اتجــاه وفوائد الأبحاث العلمية. إلا أن "سكينر" يقترح أن اختيارنــا الذاتــى لأهداف وفوائد البحث العلمى لا يجب أن تبتعد عن الظروف البيئيــة المحيطة بنا، ويحذر "روجرز" من أن ذاتيتنا لا يجب أن تبعدنا عــن هدف الاستفادة من نتائج أبحاثنا العلمية بما يمكن أن يحســن مــن أحوال عالمنا الذى نعيش فيه. إن معظم النقاط التى قدمها "ســكينر" تبدو على النحو الآتى:

(١) العلم الموضوعى للسلوك من الواجب ومن الممكــن تطبيقــه لنصحح أمراض المجتمع والسلوكيات المشــكلة للأفــراد، (٢) ا تأثير محاولات ضبط أو إحكام السلوك يمكن ملاحظتــها، ويمكــن

إجراء تغييرات لتلك المحاولات التـــى لا تلغـــى حيـــاة البشـــرية. (٣) الإشارة إلى اختياراتنا ذات الصبغة الشخصية يمكن أن تلقـــى بشيء من الغموض قد يبعدنا عن ملاحظة تأثير البيئة على السلوك.

أثيرت تلك الموضوعات خلال المؤتمر ولـم يوضـع لـها حلول خلال تلك الفترة من الزمن ولم تستقر بعد. يصر "روجـــرز" على أهمية المشاعر الفردية، والأفكار والخبرات الداخلية الأخـــرى وبالنسبة له فإن تلك الخبرات تعتبر مركزية أو أساسية ويجب علـــى العلم أن ينظمها. والطرق العلمية الموضوعية لها مكانـــها وقيمتـــها أيضا، ولكن يجب أن نعتبرها كوسائل مســاعدة للنمـــو الشـــخصى والرضاء. ويرى "روجرز" أن التنمية الإنسانية عملية انسـيابية وأن حالتها النهائية يصعب التنبؤ بها حتى إذا كانت الفـــرص المتاحـــة للواقعية ممكنة، عندئذ تصبح مفاهيم العلم فى حالة تغـــير مســتمر لمواجهة المتطلبات والحاجات الإنسانية التى تستجد.

ومن ناحية أخرى فإن "سكينر" يعتقد بأن العلم الموضوعـــى للسلوك يجب أن يكون فى المواجهة، مقدما البيانات المطلوبة لزيادة الأحوال لبقاء الإنسان ووجوده. ويستدل بذلك سواء أراد ذلك أم لـــم يرده، فإن العوامل الخارجية تعمل فى الأفراد وتحدد سلوكهم، وفـــى رأيه أن الطريق الأفضل للتعامل مع هذه الحقيقة هى محاولة الفـــهم بقدر الإمكان للطرق المختلفة التى يمكن بها ضبط الآخرين وأيضـــا

ضبط أنفسنا ضبط هنا بمعنى التحكم أو المراقبة والسيطرة. وتقدم التحليلات التجريبية للسلوك تلك المعلومات. وإذا تقبلنا حقيقة الضبط وحاولنا الحصول على معرفة علمية بأكبر قدر ممكن، عندئذ يمكن أن نخطط بعقلانية وذكاء. ويمكن تشكيل البيئة على أفضل صورة "لخلق بشر أكثر صحة وسعادة وأمنا وإنتاجا وإبداعا تلك هى أنماط الأشخاص الذين اقترحهم "سكينر" كنتاج فى حالة وضع قواعده السلوكية موضع التأثير.

انتقادات Criticisms

انتقدت النظريات الثلاث بمختلف مستوياتها، وبمتابعة كل منها نجد الميل لتقييم سلبى معين للنظرية الأخرى بالطبع. كما قدم النقد بعض الخارجين عن تلك الموضوعات ممن يختلف مدى اهتمامهم لأى من تلك النظريات بانتقادات لنقاط مختلفة. وقد يلح أحدهم فى رفضه التام لنظرية أو أخرى من تلك النظريات، هذا الإصرار ليس له ما يبرره حاليا. فكل نظرية فيها شيء من الإسهام، وقدر كبير لدراسة أكثر وللتطوير لمفاهيم متكاملة ومعقولة عن سلوك الإنسان وهي مطلوبة قبل أى اقتراب لنقاط المعارضة.

ما يلى بعض أوجه النقد الشائعة لكل نظرية، وقد حاولت تجنب الاصطلاحات الضخمة بانتقاء معظم أنماط النقد عامة:

انتقادات فرويد Criticisms of Freud

لم يكن فرويد معنيا بالتجريب لمفاهيمه ومصطلحاته، لذلك كانت نظريته صعبة فى ثباتها. فمثلا كيف نضع فكرة غريزة الموت بمنطق الاختبار؟ يمكن أن نستدلها من عبارات لفظية متنوعة أو من سلوكيات أخرى. ولكن هذا موضوع لتفسيرات كثيرة بديلة. فمثلا الانتحار أو العدوان المدمر من الممكن تفسيره بطرق مختلفة، كأن لا تملك فعل شيء أمام غريزة الموت. أشياء غامضة فى نظرية فرويد: عقدة أوديب – الليبيدو ، التثبيت، عقدة الإخصاء وهكذا. تلك المفاهيم جميعا مثارة ولكنها شديدة الصعوبة فى تفصيلها بمعنى أنها تفتقر للتوصيف العيانى وضرورة التوضيح للتطبيق المنهجي للعلم الموضوعي.

وقد جمع فرويد مجموعة من القطع المعلوماتية من سلوكه نفسه، سلوك مرضاه، وأحداث العالم على اتساعه لكي يطور أفكاره الغامضة. ولكن هل كان دقيقا فى ملاحظاته؟ هل كان قادرا على أن يكون موضوعيا بالقدر الكافى ليتجنب تحيزه الشخصى؟ هل كانت تفسيراته صحيحة؟ تلك وغيرها من الأسئلة الممكنة يجب الاستفسار عنها. وفى غياب الكثير من الشواهد الصريحة والأنماط التجريبية، يصبح من الصعب قبول كثير من أفكار فرويد بأنها

تمتلك الثبات المؤكد. "هذا لا يعنى أن أفكـــار فرويـــد لـــم تختـــبر تجريبيا. فقد قامت محاولات مختلفة ولكن كثيرا منها لم تتم بســـبب التعريفات المشكوك فيها عمليا".

كما أن الأشخاص الذين قام فرويد بدراستهم أثناء تطويـــره لنظريته كانوا عينة مقيدة، بمعنى أن الثقافة والمستوى الاجتمـــاعى والاقتصادى لمرضاه كانت محدودة. وتلك الحقيقة ربما تحـــد مـــن الإمكانية العامة لتطبيق أفكاره. وأيضا اعتمد كثيرا على ملاحظاتـــه للأشخاص العصابيين "مرضاه" فى تشكيل نظريته. هـــل يمكـــن أن تنمو نظرية وتنتشر على أساس ملاحظات لمجموعة محدودة مـــن أشخاص عصابيين، ويمكن اعتبارها نظريـــة ثابتـــة عـــن سـلوك الإنسان؟ وقد أشار "إبراهام ماسلو Abraham Maslow" إلـــى أن مثل تلك النظريات ليست كاملة بـــالضرورة وهنـــاك آراء مختلفـــة تحتاج إلى تفسيرات لسلوك الأشخاص. قد يكون هـــذا صحيـــح أو غير صحيح. مرة أخرى، إنه من الصعب جدا وضع نظرية فرويـــد للاختبار لتحديد عموميتها.

وقد صدرت عدة انتقادات على منهج فرويد لإقامة شـــواهد على بناء نظريته. وهو لم يحتفظ بتسجيل حرفى لجلســـات العـــلاج "وإذا كان لديه فهى تعوق العملية العلاجية". كما أنـــه يميـــل إلـــى الاعتماد على ذاكرته فى ملاحظاته. وبالتأكيد إن فى هذا الإجـــراء

من الممكن حذف موضوعات ليحتفظ فى حساباته للعملية العلاجية بمادة بحث ناقصة. وقد فشل فرويد فى قبول ألفاظ مرضاه دون محاولة مراجعتها بمصادر خارجية مثل التسجيل أو عمل مقابلات مع أقاربهم. وربما لم يكن لديه الوقت الكافى لتقصى الأسباب خارج العلاج ولكن الافتقار إلى الإمداد بالبيانات تقلل من الثقة فى افتراضاته. وهناك نقد إضافى أنه لم يكن نظاميا فى عرض الخطوات التى وصل إليها لتؤدى إلى نهاياتها المعينة. إنه من الصعب لشخص آخر تكرار العمليات التى سار خلالها فرويد بطريقة منظمة ومحاولة بلورة مفاهيمه النظرية أى جعلها واضحة.

وكثيرا ما اعترض على نظرية التحليل النفسى بأنها تشرح كثيرا وبسهولة كبيرة. فمثلا الأفراد المهتمين بالسلوك الجنسى من المفترض أنهم يعبرون عن دوافعهم الغريزية. والأفراد الذين لا يهتمون كثيرا بالسلوك الجنسى قد يقال عنهم أنهم مكبوتون جنسيا inhibited ، والأشخاص الذين يظهرون قدرا معتدلا فى اهتماماتهم الجنسية يدعون بأنهم أقاموا حلا وسطا بين دوافعهم الجنسية وبين كفهم وكبتهم للرغبات. ومهما تكن الحالة فإن نظرية فرويد جاهزة للتفسير. وتظهر مشكلة، عندئذ فى محاولة تحديد أى سلوك الأكثر احتمالا تحت مجموعة من الأحوال. إنه ليس كافيا إعطاء تفسير ممكن، فالنظرية القوية يجب أن تكون قادرة على

صياغة متى وكيف ستحدث نتيجة معينة، ويضع التحليل النفسي ذلك فقط بطريقة عامة جدا، وكثيرا ما تكون طريقة مشوشة.

وأخيرا وليس آخرا فإن نموذج فرويد عن الإنسان باعتباره نظام طاقة تماما مدفوعا بالغرائز يمكن التساؤل عنه بجدية. من المشكوك فيه أن كل السلوك الإنسانى يمكن إلحاقه إلى الدوافع الجنسية والعدوانية التى تتطلب التحرر بصورة أو أخرى. وجهة النظر تلك لخفض توتر النشاط الإنسانى، بمعنى أن كل السلوك يصدر عن الحاجة إلى خفض التوترات الداخلية، تتناقض مع البحث الدال على أن الإنسان والحيوانات الدنيا كثيرا ما تبحث عن ما يجنبهم للإثارة. حتى الملاحظات على الأطفال عند لعبهم يبدو أنها تحمل فكرة أن حب الاستطلاع غالبة وسائدة، وأن الخبرات القصصية موجودة، تلك البيانات البحثية والملاحظة لا يمكن تفسيرها بسهولة من وجهة نظر فرويد، التى تؤكد على نضال الإنسان للحصول على حالة يختفى فيها التوتر.

نقد سكينر Criticisms of Skinner

يؤكد "سكينر" كثيرا على أهمية تجميع بيانات موضوعية وعلمية ووضع افتراضاته شاهدا على هذا النمط. ورغم ذلك، فكثيرا ما يذهب "سكينر" بعيدا عن نتائج أبحاثه التجريبية ليضع

توصيات على درجة عالية. وقد اهتم بذلك في كتابه "الحرية والكرامة"، حيث وضع افتراضات معينة، واقتراحات عن السلوك على المستوى المجتمعي. لكن هل تلك المحاولة كافية؟ على أساس البحوث على الحيوان والإنسان التى ركزت على الكائنات الفردية "فى التجارب المعملية المنضبطة" هل تعامل بثبات validiy مع المشكلات عظيمة الشأن مثل دوران المجتمع ككل؟ هل كان "سكينر" يفترض مقدما استنتاجاته؟ من المؤكد حقا أنه اعتمد على كثير من البيانات وقواعد أساسية معينة عن السلوك والتى برهنت على تأثيرها التام فى الاستخدام فى المؤسسات العقلية والبرامج التعليمية والمجالس الصناعية والأعمال، ولكن هل تلك القواعد حقا كانت كافية لأن تعالج تماما سلوكيات المجتمع شديدة التعقيد؟ تلك النماذج من الأسئلة لا تجد إجابة مناسبة، فى هذا الوقت قد يبسط "سكينر" القواعد السلوكية لتطبق على مدى واسع من الأنشطة الإنسانية، ولكن تلك القواعد غير كافية لإعطاء إجابة كافية وقوية على الأسئلة السابقة.

وقد انتقد السلوكيين فى علم الإنسان وآخرون سكينر، حيث قالوا أن أفكاره تشجع بصورة مباشرة أو غير مباشرة على التعامل مع الأشخاص كموضوعات أو أشياء لمعالجتها أو تناولها. من السهل أن نرى كيف أن تأكيده على ضبط السلوك قد يمكن تفسيره

على أنه سقوط أو تخفيض لقيمة الفردية. قد يوافق بالطبع على أننا قابلين للمعالجة أو التناول، تلك النظرة هى أساس اقترابه السلوكى. وهذا لا يعنى أن هدفه التجريد أو الإقلال من الشخصية الإنسانية للبشر، فهو يقدم وسائل مؤثرة لمساعدة هؤلاء المحتاجين للمعاونة، بما فيهم الأشخاص الذين يرغبون فى تغيير ذواتهم. وأيضاً فإن معرفة قواعده تسمح إلى درجة معينة بمقاومة الرقابة - counter cmtral بمعنى أن الذى يقوم بمعالجة الشىء manipulator يمكن أن يصبح موضوعاً للتناول أو المعالجة. وما زال "سكينر" غير واضح فى الإشارة إلى الخط الفاصل بين "الاستخدام وسوء الاستخدام لقواعده السلوكية.

وعلى الرغم من افتراضات "سكينر" بأن قواعده السلوكية يمكن تطبيقها على مستوى المجتمع، يبدو أنه بصفة عامة يخطو مباشرة إلى مجابهة مشكلة من يضع تلك القواعد موضع التأثير؟!. من الذى سيخرج القوة لإقامة اشتراطات تعزيزية معينة؟!، ومن الذى يقرر أى السلوكيات يجب تعزيزها؟ لقد سمى "سكينر" تلك الموضوعات "ولكن بطريقة تبدو فلسفية أكثر منها مسائل عملية ممارسة" ولم يساعدنا كثيراً للوصول إلى إجابات عيانية واضحة.

سؤال آخر صعب الإجابة: إذا كنا جميعاً محكومين ببيئتنا، وإذا كنا لا نملك حرية الاختيار فكيف لنا أن نستطيع أن نقرر ابتداء

توصياته، وأن نضع برامجه المقترحة موضع التأثير؟ ووفقاً لقواعده السلوكية لا يوجد مثل هذا الشيء المسمى بـ"حرية الاختيار"، ويبدو أنه غير مناسب له أن يفترض أننا "تقبل" افتراضاته ويستجيب "سكينر" أحياناً لأسئلة من هذا النمط، ولكن إجاباته لم تكن مرضية تماماً.

وكما سبق توضيحه فقد استخدمت قواعد سكينر بكفاءة تامة فى مواقف مختلفة: العلاج، التعليم، الأعمال والصناعة. ومع ذلك ما زالت هناك مواطن ضعف حتى عندما تكون البيئة خلال تلك الأحوال محكمة بعناية. كثيراً ما تظهر الهندسة السلوكية، عند تطبيقها، نتائج بارزة لكنها لا تكون دائماً مؤثرة كما هو مأمول. كيف تفسر هذه النتائج؟ إذا كانت السلوكيات الذهانية أو العصابية قد تحسنت ولكن ليس للدرجة التى تجعل الفرد قادراً على أن يتصوف "طبيعياً" ماذا يمكن تجاهله؟ إذا تعلم الطفل أكثر من التعليم العادى، أى عندما يتعرض لآلة التعليم، ولكنه ما يزال غير قادر أن يسيطر على موضوع الدراسة. ما هو الخطأ؟ ربما تظهر مثل تلك الحالات حيث يكون النجاح غير كاف بالنسبة للتوقعات، يمكن تفسير ذلك بالنظر إلى الشخص أو الأشخاص المسئولين فى برنامج الهندسة السلوكية، بمعنى أن هناك عوامل بيئية ذات دلالة معينة غير منضبطة بالقدر الكافى والمناسب. ومع ذلك قد يكون هناك الكثير

من السلوك أكثر من وجهة النظر بعين المدرسة السلوكية التقليديـــة. قد تكون قواعد إضافية أو قواعد أكثر تعقيـــداً تعمـــل لتؤثـــر فـــى الأنشطة الإنسانية. والإجابة فى انتظار الكثير من الدراسة المفصلـــة والشاملة.

وموقف "سكينر" بالنسبة للعقاب، من النقاط المنتقـــدة، فـــهو كثيراً ما يرى أن العقاب له تأثيرات محددة، وأنه ليس دائماً يصـــدر اتجاه السلوك غير المرغوب فيه، وعلى الرغم من أن تلـــك الآراء قد تؤخذ كعلامة على إنسانيته، ولكنها من الناحيـــة العلميـــة قابلـــة للتساؤل. وتدل الشواهد خلال السنوات الحالية، على الأقـــل تحـــت أحوال معينة بأن العقاب يبدو أن له تأثير فى ضبط وإحكام الســـلوك ولا يبدو أن له تأثيرات سلبية طويلة الأجل. فالعقـــاب كثـــيراً مـــا يقلص السلوكيات غير المرغوب فيه، حتى يمكـــن تشـــكيل بدائـــل سلوكية مرغوباً فيها بتعزيزات إيجابية. وبالطبع فـــى مثـــل تلـــك الحالات يجب توفر البدائل، وببساطة فإن تطبيق العقاب ليس مـــــن المحتمل أن يكون نتاجه غير مرغوب فيها فالصدمة الكهربية قليلـــة الشدة استخدمت للأطفال الأشقياء الذين يعرضون أنفســـهم لـــلأذى. هؤلاء يؤذون أنفسهم، يصدمون رؤوسهم فـــى الأشـــياء الصلبـــة. وبواسطة استخدام صدمة كهربية، عندما يســـلكون بـــهذا الســـلوك المؤذى لهم، قد يوقف ويعدل هنا السلوك بنجـــاح ويوقـــف الأذى،

وبمجرد الامتناع عن السلوك الخاطئ، عندئذ يمكن تشكيل السلوك الإيجابى الناتج عن العقاب.

ولا يفهم مما سبق آنفاً أن العقاب أمر مرغوباً فيه، أو أنه أكثر قبولاً من التعزيز الإيجابى كوسيلة عامة للضبط، ولكن المقصود ببساطة أن "سكينر" شديد التحمس فى رفضه للعقاب كأسلوب يضبط السلوك المؤثر.

نقد روجرز Criticism of Rogers

يتهم "روجرز" بممارسة ظاهرة ساذجة فى قبوله ما يقوله المرضى clients. فكثير من شهادة المشتغلين بعلم النفس تدل على أنه من الصعوبة بمكان فهم والتعبير بدقة عن حقيقة مشاعر وأفكار المرضى إلخ. وحتى فى حالة سماع "روجرز" لمرضاه وإنصاته لهم طوال فترة العلاج، لكى يفهم خبراتهم الداخلية المعاشة، فإنه لا يكتشف معظم المحددات الأساسية للتوظيف الإنسانى. وإذا كانت تعبيرات مرضاه اللفظية تمثل معظم مصادر "روجرز" المفترضة نظرياً، فإنه من المهم طرح سؤال عن مدى صدق وثبات تلك البيانات. هل من الممكن الحصول على صورة كاملة وكافية عن الفرد بمجرد الاستماع إليه؟ أولاً يجب القول بأن "روجرز" يهتم بالمشكلات بهذا النمط من علم الظواهر، وأنه يؤيد

وربما استخدم وسائل أخرى مثـــل "Q – Sort" لاختبـــار ودعـــم نظريته. وينفى الحقيقة، بأن مصــــادره الرئيســـية للبيانــــات تعتـــبر خبرات عيادية خلال فترة محاولاته الإنصــــات بعنايـــة وعاطفيـــة لألفاظ وتعبيرات مرضاه. فهل كشفت تلك الألفاظ حقيقة مريـــض أو مريضة؟ أى النواحى الحرجة للخبرات الإنسانية؟ وتبقى إمكانيـــــة أن الخلل سيبقى شعورياً أو لا شعورياً فى عبارات العميل.

وهناك نوع آخر من السذاجة يتهم فيـــها "روجـــرز" فيمـــا يتصل برؤيته للطبيعة الأساسية للإنسان. فإذا كنا وارثون للخــــير، لماذا نصنع الشر؟ ربما أكدت نظرية "روجرز" على الجانب الطيـب للإنسان. إلا إنه من السهل أن نرى كيف يصبح الشخص "سـيئاً" إذا نشأ "هو أو هى" تحت ظروف شديدة وقاسية. ولكن كيـــف نذهـــب بعيداً بصفة مبدئية عن الاتجاه، حتى ننمى جيلاً بعد جيــــل أفـــرادا غير مناسبين. فى كيفية توظيف حياتهم؟

وأيضاً ما هو التفسير لطفل شديد التدليل والحرية فى نشـأته يتحول إلى بالغ أنانى فى تعامله وبصفة عامة بالغ غـــير متوافـــق؟ "ربما يقول روجرز أنها إيجابية غير مشروطة كانت واضحة فــــى مثل تلك الحالة"، والوجه الآخر لهذه العمليـــة، مــــاذا عـــن الطفـــل الملتصق بالأعراف الجامدة للأخلاقيات والسلوك ومع ذلك عندمـــا يكبر نجده خلاقاً واجتماعياً، وبالطبع فإن نظريات السلوك الإنســا

لا تتوقع فى هذه الحالة من التاريخ النفسى أن يكون سوياً فهناك استثناءات للقواعد القائمة لأى نظرية موجودة.

إن التنبه لتلك الاستثناءات يمكن أن تساعد فى التطور الصحيح لتقييم مدى سلامة أى نظرية.

ويؤكد "روجرز" أننا منشأين فى أسلوب "ميكانيزم" يسمح لنا، إذا بقينا فى تناغم معه، أن نقوم بتحركات مناسبة فى حياتنا، تلك العملية التقديرية للكائن الإنسانى ستجعلنا نباشر أنفسنا بالقرارات الحكيمة والسلوكيات السليمة.

ما هى الشواهد الثابتة عن الميكاينزم الداخلى أو الموروث الذى يساعدنا فى الاختيارات الصحيحة؟

ربما يكون السؤال الهام هو: كيف يمكن لعملية تقييم الكائن العضوى أن تنفصل عن تأثيرات القيم المكتسبة ثقافياً؟ نحن نبدأ التعلم منذ الولادة. هذا أمر واضح. هل يمكن لكل هذا فضلا عن التعليم المباشر أن يفصل عن العمليات الداخلية الموروثة؟ وأين يمكننا رسم الخط "إذا وجد" بين "المكتسب تعلماً" "والطبيعى ولادة"؟

أما عن نقد المشتغلين بالتحليل النفسى ضد روجرز بأنه لم يلتفت كما يجب للعمليات اللاشعورية، وأنه بالطبع أشار إلى الخبرات غير الرمزية خبرات يدركها الشخص بكامل شعوره، ولكن رؤيته فى هذا الأمر أن الفرد يمكن أن يهتم بتلك الخبرات

غير الرمزية فى حالة وجود إيجابية غـير مشـروطة. ويعـارض المحللين النفسيين هذا الوضع قائلين بأن التفسير التحليلى ضـرورى لفهم اللاشعور، وأيضاً أن هناك أجزاءاً معينة من الشخصية سـتبقى دائماً فى مستوى اللاشعور.

أصحاب نظرية "السلوكية الراديكالية" يـرون أن "نظريـة روجرز" قائمة أساساً على الملاحظات فى أحوال غير منضبطـة، بمعنى آخر هم يعتقدون أن كثيراً من ادعاءاته كان نتيجة إيجابيـة غير مشروطة بسبب احتمال تعزيزى غير محدد. وبالنسبة "لسكينر" فإنه لا يوجد، مثلاً أن تعطى للشخص حريته ليسلك "هو أوهى" مـا يشاء، فاحتمالات التعزيز فى حالة عمل مستمر. وعلى ذلـك فـإن "سكينر" وغيره يرون أن إصرار "روجرز" قد أخطأ فى تفكيره بـأن مرضاه ينمون حرية الاختيار كلما تقدم العلاج، فـإذا لـم يطبـق المعالج، المتمركز حول العميل، التعزيزات، فـإن سـلوك العميـل سيبقى متأثراً بتعزيزات أخرى مثل تلـك الموجـودة فـى موقـف العلاج. وقد يكون المعالج المتمركز حول العميل وعلى الرغم منـه يسبب تغيرات فى سلوك العميل من خلال تعزيزات غير مقصـودة، فمثلاً انحناء الرأس أو تغيير تعبيرات الوجه عندما يتحدث العميـل حول أمور مهمة ويبقى المعـالج سـاكتاً عندمـا يتنـاول العميـل موضوعاً غير مهم، تغير سلوك العميل قد يكون ناجماً عن تعـامل

الآخرين "معه أو معها" بطريقة مختلفة فى الحياة اليومية العادية، بمعنى أن احتمالات التعزيز المختلفة مستمرة فى العمل. هذا النوع من العملية يؤدى على المدى الطويل إلى تغيرات ذات دلالة قد يعزوها المعالج المتمركز حول العميل إلى الإيجابية غير المشروطة.

وكتعليق نهائى عن مفاهيم "روجرز" بأنها واسعة جداً وغامضة. فمثلا "خبرات الكائن الحى" تتضمن الكثير بما يقترب بالعبارات التى لا معنى لها: وتعبير مفهوم الشخص عن نفسه أو المفهوم الذاتى أو التوظيف الكامل، بالمثل نجد أنهما يتحديان المحاولة البسيطة للفهم. ربما كانت التقسيمات التجزيئية لتلك المصطلحات العامة أكثر فائدة للدارس. ويحاول "روجرز" أيضاً فى أحياناً أخرى أن يعبر عن أفكار، ويقر هو نفسه أنه لا يستطيع أن يوضحها بدقة، وتعبيرات نجد أنه يوجد القليل جداً من البحوث التى تؤكدها. ربما فى تلك الحالات هو يخاطب فقط القارئ الذى يوافقه فى الرأى، أما القارئ المتشكك أو المدقق فهو لا يمكنه أن يتواصل بشكل مناسب أو سليم مع تعبيرات "روجرز"، بمعنى آخر يجب على القارئ أن يكون مؤمناً بروجرز قبل قراءته حتى يستطيع أن يفهم نزعاته الفكرية.

تعليق نهائى Concluding Comments

بعض التعليقات العامة:

إن النقد الذى عرضناه فى الجزء السابق لا يجب أن يثنى الدارس عن قراءة الكتاب نفسه ليتفهم السلوك البشرى. فقط عندما يتوقع القارئ الكمال التام يمكن أن يكون هذا سبباً لعدم حماسة فيما يتعلق بضعف الآراء التى يعرضها هؤلاء الكتاب الثلاثة. ويجب أن نضع فى اعتبارنا أن توقع الكمال هذا سابق لأوانه، لأن تاريخ علم النفس كله يعتبر قصيراً نسبياً. فكل رأى لكل من هؤلاء المنظرين، فيه شىء هام للذين يريدون أن يتفهموا سلوكهم الشخصى وسلوك الآخرين. وأيضاً، من المهم أن نذكر أن كل رأى هو بمثابة الحافز لبحث أكثر فى علم النفس وفى العلوم السلوكية بصفة عامة.

إن آراء "فرويد وسكينر وروجرز" تمثل دافعاً فعلياً لأن ينتج الباحثون أبحاثاً لكل معتقد نفسى نصل إليه بحماس لكى نؤكد وجهة نظر تبناها كل منهم.

إن أفضل طريقة لأن يتقدم العلم هو إجراء أبحاث بصورة مخلصة ومتفانية لمتابعة آراء مختلفة ومسالك متنوعة للفكر بقوة وإصرار. وفى المستقبل عندما نصل إلى نهايات البحوث ونجد أن المسارات المختلفة قد حققنا فيها نجاحات معينة، فى هذه المرحلة

فقط يمكن أن ننسج الآراء مع بعضها البعض ونصفيها ونربط أجزائها مع بعضها البعض، بحيث يصبح كل جانب من نظرية درسناها متوائماً مع الجوانب الأخرى فى كل يجمع فهم عميق للسلوك البشرى.

بالنسبة للوقت الحالى فإن كل منظر له الحق أن نعجب بإسهاماته. ركز فرويد على مظاهر شتى لتوظيف القدرات الإنسانية التى نستطيع القول أنها لم تلق من قبل اهتماماً نظرياً متكاملاً: فالمخاوف غير المبررة، والخيالات والأحلام والصراعات الجنسية والاضطرابات النفسجسمية والعصاب فى مرحلة الطفولة إلخ. إن أفكار فرويد واسعة المجال فى أنها تغطى موضوعات كثيرة، كما أنها تشجع الباحث أن يتمعن فى مضمونها.

أما "سكينر" فقط طور مبادئ لها سمة التطبيقات العملية على نطاق واسع. كان تركيزه على المؤثرات التى تسببها البيئة على سلوك الفرد، مما يساعد على تأكيد أن اهتماماً واجباً لا بد أن يبذل لبحث تلك المؤثرات الخارجية. ومن ناحية "روجرز"، فقد ساعد على أن نحتفظ باهتمامنا بحيث يقودنا هذا للاهتمام "بالنفس" والذى يؤكد تفرد سمات السلوك البشرى. وقد قام بتذكير علماء النفس مراراً بأنه لا يوجد إطلاقاً طريق واحد نحو الحقيقة، وأن هناك مدى واسعاً لقدرات الإنسان، وهى قدرات ذاتية وغير

موضوعية، يؤكد بها ذاته وقدرات لها سمات الموضوعيـــة، وهـو أسلوب له مشروعية فى محاولاته للبحث عن معرفة أكثر للســلوك البشرى.

بعض التعليقات الخاصة Some Personal Comments

إلى جانب قيمتهم العلمية، ما فـــائدة هـــذه الآراء المتباينـــة للإنسان فى نطاق فلسفته الذاتية عن الحياة؟

فى هذه النقطة كل إنسان يجب أن يتحدث عن نفسه "هـو أو هى". سأحاول أن أوضح ما فهمته أنا شخصياً: لقد حاول فرويـد أن يجعلنى أسأل نفسى هل أنا أعرف "بالفعل" لمـــاذا أتصـــرف بـــهذه الطريقة؟ هل أنا مدرك لأسباب ودوافع ما أقوم به؟. إنه يدفعنى بـأن أسأل نفسى، ما هى دوافعى؟ ويحاول أن يقلل من الظلام المحيـــط بفهمى لبعض الخصائص الشخصية غير المبررة، وغير المنطقيـــة، مثل التحامل، والأحقاد، التى قد أشعر بها تجاه البعــض. مــن رأى فرويد أن هناك ديناميات تتفاعل فى اللاشعور، ولكنى أعتقد أنـــه إذا كنا على وعى بإمكانية هذا، فعلى الأقل أحياناً نرى لمحة من تلـــك الديناميات أثناء تصرفنا أو سلوكنا اليومى بصفة عامة. لقد ســـألت نفسى مراراً... هل أنا أتبنى وســـيلة دفاعيـــة نفســـية بطريقـــة أو بأخرى؟ على الرغم من أن إجابتى على هذا السؤال قد تكون نفســها

دفاعية، ومازلت أعتقد أن مجرد السؤال قد أفضى إلى الكشف والتوصل إلى إجابات ما ليست بالضرورة سارة، وقد تكون مؤلمة.

وأيضاً يبدو لى أن نزعة الحيل النفسية الدفاعية ذات قيمة فى التعامل مع الآخرين. لكن يجب الحرص دائماً فى استقدام تعبير حيل دفاعية عندما نتكلم عن الآخرين، وأوصى أن تلك الطريقة يجب تفاديها بصفة عامة "اتهام الآخرين". إن أهمية فكر "الدفاعية" فى العلاقات المتبادلة بين أطراف مجموعة ما ليست من الأهمية فى أن نضع لافتة "يافطة" نصف بها سلوك الآخرين. المهم هو محاولة فهم سلوكهم. لقد اكتشفت مراراً أن ردود أفعالى اتجاه الآخر قد تغيرت للأفضل عندما أتيح لى أن أتفهم بوضوح، أنهم إنما يدافعون عن ذواتهم نفسياً. تقييمى السابق كان الابتعاد عن أشخاص من الصعب التعامل معهم. فهمى هذا يؤثر فى نفسى ويمنع دخولى فى صراعات يومية.

وبرغم إقرارى بأن الدفاعية هى مفهوم تحليلى نفسى هام فإنى أعتقد أيضاً أن مفاهيم معينة أخرى لفرويد، ونزعات أخرى فردية أخرى تكاد تكون، بصفة عامة غير مستقرة. مثال فكرة أن العدوان التخريبى أو المدمر هو سلوك غريزى "غريزة العدوان". ببساطة لا أستطيع تقبل هذا الرأى، ولا أعتقد أنى فى رفضى هذا الرأى أكون فى موقف دفاع عن النفس. إن بعض الكتاب مثل:

"كونراد لورنز، وروبرت آردرى، وأنتونى ستور" يوافقون على التفسير الغريزى للعدوان، أنا لا أتفق معهم لأنى مقتنع بتلك الخطط النظرية المعارضة. وما قدمته البحوث من دليل مثل أبحاث علماء النفس "ألبرت باندورا، وليونارد باركويدز، ومظفر شريف" وجراحى الجهاز العصبى "فينون مارك، وفرانك إرفن"، كل تلك الأبحاث كافية لأن تزيح فكرة أن الإنسان مجبول على العدوان بطبيعته الفطرية. باختصار شديد اعتقادى القائم على أبحاث السابق ذكرهم هو أن العدوان أساساً سلوك متعلم "يكتسب"، إن الأشخاص العدوانيين غالباً ما يقلدون قالباً من الأفعال العدوانية قام بها الآخرون سواء الآباء أو الأصدقاء أو أبطال التلفزيون "وهو ما نعانى منه" وقد تم تعزيز هذا السلوك. إن العوامل البيئية مثل التنافس الشديد والحاد يمكن أن يدفع بالعقل الذى لا يعمل بصورة طبيعية بسبب وراثى أو مكتسب، وينجم عن ذلك فى النهاية سلوك غير سوى وغير منظم. إن كيمياء الدم يبدو أنها تلعب دوراً فى العدوان، فالتغيرات الهرمونية فى مستويات معينة يبدو أنها تؤثر فى تكرار السلوك العدوانى.

لا أجد مبرراً للتمسك بنظرية فرويد فى الدافعية التى تعتمد على الغرائز "دافعية الغرائز". سلوك الفرد الجنسى وسلوكه العدوانى تحددهما بصفة عامة وتتحكم فيها ظروف بيئية. إن قوة ما

يسمى بالدافع الجنسى نتأثر بتعزيز سابق أو تجارب جنسية عوقب الفرد عليها. ونتأثر أيضاً بتوافر الجنس الآخر وبدرجة الحرمان إلخ. لو أخذنا كل تلك العوامل فى الاعتبار لربما بقى القليل لكى نتمعن فى هذا العامل الإضافي المسمى نزعة غريزية فطرية "أساسية" لكى تفسر لنا سلوك الإنسان الجنسي.

إن اعتقادى أن "سكينر" قد زودنا بإسهام هام بإشارته وبصورة حماسية إلى تأثير البيئة كسبب رئيسى وأولى فى السلوك. لكنى لا أشعر أننى قد قبلت كل آراء "سكينر" ولا أشعر أن لديه كل الإجابات عن كل الحقائق. ومع ذلك فقد كان كثيراً مما يجب أن تضعه محل الاعتبار من نتائج أبحاثه.

يلفت "سكينر" انتباهنا إلى مظهر هام فى الحياة الإنسانية. التعزيز. إن له دلالة وأهمية للتحكم فى سلوكنا وفى تربيتنا لأطفالنا، وفى تحسين سبل التعليم، وفى التعامل الجيد مع الآخرين، وفى نشاطات أخرى تقوم بها الكائنات البشرية، وربما كانت المبادئ التى يتضمنها التعزيز تبدو بسيطة للوهلة الأولى، ويحدث كثيراً أن نتجاهلها. أما بالنسبة لى فإن أنماطاً كثيرة من السلوك قد أصبحت مفهومة لى عندما تمعنت فى التعزيز الإيجابى "الإجرامى والفشل الدراسى والعنف بصفة عامة" سنجد أن جذورها تمتد إلى الافتقار إلى التعزيز الإيجابى الذى يجب أن نكافئ به السلوك

"المرغوب فيه". وما أن نظهره من تعزيز سلبى اتجاه السلوك غير المرغوب فيه.

إن الشخص المحروم والذى ينجح فى السرقة قد حصل على تعزيز فى التو. لأن البديل بالنسبة له هو أن ينتظر إلى ما لانهاية حتى يدخل كم من النقود جيبه وهو يمارس وظيفة وضيعة. هذا التعزيز الفورى للسرقة قد يتحكم فى السلوك المستقبلى. أنا لا أعتقد أن كل مشكلات السلوك يمكن تفسيرها بهذه الطريقة البسيطة "ولا سكينر أيضاً"، ولكننا أحياناً نتغاضى عن هذه الحقيقة البسيطة. مثال آخر، السلوك العنيف المدمر، أحياناً يكون الشخص الذى يسلك بهذه الطريقة ليس أمامه وسيلة لكى يهرب من هذا النمط، لأن سلوكه هذا يبعده عن العقاب، أو داخل مجموعة معينة يكون هذا السلوك هو الوسيلة الوحيدة للحصول على تعزيز إيجابى المدرسة أو السجن حيث من الشائع احترام القوى الذى يتسم بتحدٍ للسلطة.

إن التعزيز قد يكون مرتبطاً بصفة شخصية أيضاً. فى خلال حياتى لاحظت تغييرات فى سلوكى نتيجة لحدوث تعزيزات طارئة، أحياناً من الممكن إقامة مصادفات فاعلة مؤثرة قد تساعد على تأكيد نشاط مثمر. بالنسبة لى فإن بعض الخطايا قد أفادتنى، عندما أخطط لكمٍ كبير من الكتابة أو القراءة أو الدراسة لمسافة

زمنية تمتد لأسابيع أو شهور، أحاول أن أضع جدول يسمح لى بتعزيز بعد عدد معين من ساعات العمل المركز كل يوم. يبدو أنه لو تركت العمل بصفة منتظمة بعد عدد معين من الساعات والاستمتاع ببقية ساعات اليوم قد أصبح فى وضع أفضل بحيث أعمل يوم بعد يوم "هذا المثل لا يعنى أن الكتابة فى حد ذاتها ليست تعزيزاً إيجابياً وممتعاً بالنسبة لى. وفى مراحل كثيرة أجد أنها مرهقة. إن التعزيز الكبير سيكون فى النهاية، أى عندما أكمل مشروع الكتابة والنشر".

النظريات السابقة توضح لماذا أنا أحب طريقة تفكير "سكينر". إن أفكاره أقرب إلى الجانب العملى لدى، وأستطيع إدراك مدى ما يوضحه من عناصر هامة تتحكم فى السلوك الإنسانى بما فيه سلوكى أنا.

لكن ماذا عن "روجرز"؟ أين موقعه بين أرائى؟ عن الحياة والمعيشة بصفة عامة، عندما أقرأ أعماله أشعر عموماً بإحساس طيب، فهو يمنحنا كبشر تقديراً شخصياً "ذاتى"، ويجعلنا نلاحظ أنه برغم ما فى الحياة من صراع فهو صراع نبيل. وربما استطعنا أن نتقدم فى الحياة ونستمر فى "أن نكون" برغم كثير من المشاعر والانفعالات. بينما فرويد يركز على الجوانب المظلمة، ويشير دائما إلى ما هو غير طبيعى "شذوذ فى السلوك". نجد "سكينر" يحاول أن

يصورنا وينبهنا بأننا طبيعيين ولنا نقاط ضعف. "روجـــرز" يؤكـد وبإصرار على صفاتنا البشرية الخاصة ويدعم الرأى القائل بأن كـل منا مهم فى حد ذاته، فردى فى سلوكه، يستحق كل واحد أن تسـتمع إليه، وأن كل إنسان أساساً يتسم بالنبل ويستحق الثقة. فى أيامنا هـذه وفى سنى هذه تستطيع أن نستخدم الآمال بالنسبة لأنفسنا وللبشـرية والتى نأمل أن نصل إليها. كتاب "روجرز" أيضاً يشجعنى علـى أن أبقى منفتحاً مع الآخرين ومتجاوباً معهم ومع آراء متعـددة ومـع آراء تتردد فى أقطار أخرى من العالم، وأن اقترب من الحقيقـة. إن تأكيده على ضرورة تنوع المنظور الذى ننظر به إلـى الإنسـان، وضرورة امتلاك تقنيات متعددة للتوصل إلـى المعرفـة العلميـة "الموضوعية"، وأيضاً ضرورة المعرفة الذاتية. وهو بالنسبة لى أمر هام.

سأنهى هذا الحديث بعدة اقتراحات عن علاقات ممكنة بيـن آراء "روجرز وسكينر". إن "سكينر" فى وصفه للإجراء الشـرطى يعطينا توضيحاً مفسراً وملائماً عن كيف نكون على ما نحن عليـه عن طريق الشرطية أو "الاشتراطية" نحن نطور صفاتنا الشـخصية الرئيسة بما فيه سلوكنا الذى نحاول إخفاؤه مثل مفهومنا عن ذواتنـا ومفهومنا عن الآخرين. لو افترضنا أن هذه العملية تأخذ مجراهـا، فإن ظاهرية "روجرز" تبدو لى أنها ما زالت هامة، فهى تؤكد أهمية

عدة مفاهيم كمظاهر للسلوك يمكن وصفه بأنـــه كـــامل أو محقـــق لطبيعة الشخص. إن اقتراحاته لفهم أفضل لمفاهيمنـــا عـــن أنفســنا "وعياً بذواتنا" ووعينا بالآخرين "التعـــاطف معـــهم" مـــازالت ذات أهمية، ليس بالضرورة لقدرتها على التفسير، ولكن لإســهامها فـــى توضيح الحياة المؤثرة التى نعيشها يوماً بعد يوم.

إن القول بعبارة: "ليس بالضرورة بقدرتها على التفسير" هـو أننى أنحو نحو موافقة "سكينر" فى تأكيده أن أسباب ســلوكنا الــذى يشمل نشاطاتنا العقلية مثل الإدراك يمكن أن نجدها بصورة نهائيـــة فيما ورثناه من عوامل وفى تاريخنا البيئى، وفيما نقابله فى حياتنـــا من مصادفات تحدث فى البيئة المحيطة بنا، إذا أردت التمعن فـــى هذا المعنى ارجع إلى الفصل الخامس فـــى كتـــاب "ســكينر" عـــن السلوكية، بمعنى آخر عندما نقول أن شـــخصين يســلكان بطريقـــة مختلفة لأن لديهما مفاهيم مختلفة عن العالم، هذا القول ليس تفســيراً نهائياً. قد يكون لهما تفسيران مختلفان، كلاهما، لمـــاذا قـــد أدركـــا الواقع بصورة مختلفة؟ ولماذا نجد ســـلوكهما الواضـــح مختلـــف؟ الأسباب يجب البحث عنها فى المورثات الجينية وفـــى الظـــروف البيئية. حتى داخل هذا السياق من التفكير السكينرى من الممكـــن أن نرى كما أرى أنا أن كتابات "روجرز" ذات أهمية أيضاً. فإن آرائـــه تفى بالغرض بطريقة معينة وعندما تقرأها تصبح هذه الآراء جـــزءاً

من تاريخنا البيئى وقد تفضى بنا إلى سلوك اجتمـــاعى وشـــذ
مفيد من عدة وجوه.

ربما لديك أنت تقدير آخر مختلف عـــن العلمـــاء الثا
وآرائهم لتفسير السلوك البشرى التى ناقشناها هنـــا، أو ربمـ
وجدت أنت رأياً آخر أكثر ملاءمة بالنسبة لـــك ولأغراضـــك
الحياة. أياً كان الحال فإن ما اتخذناه من منظـــور نحـــو الحه
النفسية هو قاصر بطبيعته لأنه مرتبط بالمرحلة التاريخية التى
بها. فى المستقبل قد يتغير هذا المنظور، لكن فـــى رأيـــى ر
"فرويد وسكينر وروجرز" تمثل نقاط هامـــة فـــى تقدمنـــا اله
لمحاولة فهم أنفسنا ككائنات بشرية.



7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043